

موسوعة العقيدة والأديان

جل. المختصر



١٤

الْحَقِيقَةُ الْإِنْتِهَىٰ

نَشَأَتْهُ وَتَطَوَّرَهَا



د. فرج عاصم العجّار الباري
أستاذ العقيدة والأديان

هو سر العقيدة والأدینا

١٤

الْعَقِيلُ الْأَنْبِيَّرُ

نشأتها وتطورها

د. فرج الله عبّار
أستاذ العقيدة والأديان



دار الأفق العربية

نشر - توزيع - طباعة
٥٥ - ش. محمد ود طلعت - منش الطيران
مدينة نصر - القاهرة
تلفون: ٢٦١٧٣٣٩ - ٢٦١٠٦٤
E-mail : daralafk@yahoo.com

اسم الكتاب : *الحقيقة الراينية شأتما وتطورها*
اسم المؤلف : د. فرج الدين عباد

رقم الإيداع : ٢٠٠٥/١٥٨٣٦
الترقيم الدولي : ٩٧٧ - ٣٤٤ - ١٢١ - ٥

الطبعة الأولى
م ٢٠٠٦

جميع الحقوق محفوظة للناشر



الإهداء

إلى والدى ووالدى. عليهم رحمة الله
إلى رمز العفة والطهر صاحبة البذل الكبير والعطاء
الوفير زوجتى الكريمة
إلى أبنائى: حور وبحيى وجنات ومحمد أهدى إليهم
هذا العمل
سائلًا الله أن يبارك فيهم جميعا

أ. فرج الله عبد البارى أبو عطا الله

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلوة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم وبعد.

فهذا بحث عن نشأة الدين والتدین. بين التوحيد والتطور. وكما يظهر من العنوان فإن الموضوع حيوي للإنسان بوجه عام، والمسلم المعاصر بوجه خاص . خاصة وأن هناك تيارات متعددة تتجاذب الموضوع إنْ بالحق أو بالباطل.

وواجب المشتغلين بالفکر الإسلامي من المتخصصين أن يُدلوا بدلواهم في الموضوعات التي يتناولها نفر من غير المتخصصين في العلم الديني خاصة الذين يتابعون الغربيين في وجهات نظرهم.

ومن ثمَّ وجدت لزاماً علىَ كأحد المنتدين إلى الإسلام، والمنتسبين إلى الجامع الأزهر العريق ، والمعروف بدفاعه عن قضايا الدين بوسطيته المشهود لها. أن أتناول موضوع نشأة الدين وبواعث التدین.

مبيناً الحق الذي أعتقده مدللاً عليه من خلال نصوص الكتاب والسنة مستأنساً بفهم العلماء حولهما

ما معنى كلمة الدين في معاجم اللغة العربية ؟ وما هي المعانى التي تدل عليها تلك الكلمة التي تمسُّ شغاف القلوب حين تذكر . يموت بسببها من يموت ويعيش من أجلها من يعيش . إنْ بالحق أو بالباطل ؟

هذا ما يجذب عليه هذا البحث. في البحث الأول بمسائله الثلاثة – التي تتناول معنى الدين في اللغة وماذا قال المستشرقون عن كلمة الدين الواردة في اللغة العربية ؟ وما هو الجواب عما أثاروه ؟ هذا ما تتناوله المسألة الثانية من البحث الأول . أما المسألة الثالثة . فكانت عن معنى الدين في اصطلاح الفكر الإسلامي.

أما المبحث الثاني : فكان عن الدين وإطلاقاته في القرآن والسنّة واشتمل على عدّة مسائل منها الدين في القرآن الكريم - بمعناه العام الذي يشمل الحق والباطل - فمن دلالته على الحق وروده بمعنى الإسلام أي استسلام المرء لله وتوحيده وهذا الإسلام هو ما وصف الله به الأنبياء في القرآن الكريم ومن دلالته على الباطل . قوله تعالى **﴿لَمَّا دَيْنُكُمْ وَلَيْ دِين﴾** أما الدين بمعناه الخاص فيطلق على الإسلام الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم والذي لا يقبل الله ديناً سواه.

أما المسألة الثالثة: فكانت عن الدين وإطلاقاته في السنة النبوية، وقد أوضحت أن لفظ الدين ورد بمعناه العام الذي يعني الدين الباطل كدين اليهود والنصارى وورد أيضاً بمعناه الخاص الذي يعني الدين الحق وهو الإسلام الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم وأوردت نماذج من المعينين وإطلاقاتهما في أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم.

أما المبحث الثالث : فكان عن إبطال زعم من ادعى خجاة غير المسلم بعد مبعث محمد صلى الله عليه وسلم . وقد ناقشت فيه بعض الآراء التي زعم أصحابها أن المسلمين من أخلص وجهه لله من أي ملة كان ، وفي أي زمان وجد بدون تقييد ذلك بين كان قبل بعثة محمد صلى الله عليه وسلم . أما بعد بعثته فلا يقبل من أحدٍ صرفاً ولا عدلاً إذا بلغته دعوة الإسلام ولم يؤمن بالله ولم يصدق بمحمد ﷺ وحشدت الأدلة على ذلك.

أما المبحث الرابع فعقدته للحديث عن اللغة والاصطلاح ، وورودها في القرآن الكريم والسنّة النبوية.

أما المبحث الخامس: فكان عن النحلة في اللغة ، والاصطلاح ، ودلالة هذه الكلمة وعلاقتها ب مجال العقيدة وعلاقتها ب مجال العقيدة والتدين.

أما المبحث السادس: فكان عن الدين في اصطلاح الغربيين . عرضت فيه جملة من تعاريفاتهم للدين وبينت قصور التعريفات عن الوفاء بالدلول الحقيقي لكلمة الدين ثم بينت العناصر الضرورية الالزامية للدين ، والتي غابت عن تعاريفات الغربيين

ورجحت ما ذهب إليه العلامة الدكتور "دراز" وانتصرت للتعريف الذي أورده.. وأنهت بذلك الفصل الأول من الدراسة.

أما الفصل الثاني: فجاء بعنوان مصدر الدين وبواعث التدين عند الغربيين وقد اشتمل على عدة مباحث:

المبحث الأول: دعوى أن الإنسان هو مصدر الدين.

في هذا المبحث عرضت وجهة نظر بعض الغربيين الذين ذهبوا إلى أن الإنسانية قد عاشت قرونًا طويلة في حياة مادية خالصة قبل أن تفكك في مسائل الدين، وبينت أن هذا الاتجاه سيطر على الفكر الأوروبي فترة من الزمن، ولا تزال بقاياه موجودة في هذا العصر. وقد أوردت الأسباب التي جعلت البعض يذهب إلى هذا الرأي. وذكرت منها: القدوة غير الحسنة، والأخلاق الخلقى عند رجال الكنيسة. ومصادرة الفكر من قبل رجال الدين، وسيطرة الكنيسة واضطهادها للمفكرين. هذه الأمور وغيرها جعلت الكثير ينفر من الدين ويهاجمه. وكان خطأ هؤلاء أنهم عمموا أحكامهم فلم يقتصروها على الدين الذي عذبوا باسمه. ولكن تدعوه إلى جميع الأديان وعلى رأسها الإسلام.

أما المبحث الثاني: فكان عن البواعث على التدين عند من يزعم بأن الإنسان مصدر الدين.

عرضت فيه أهم النظريات التي تفسر البواعث على التدين. فذكرت منها المذهب الطبيعي، والمذهب الحيوى، ومذهب الطوطم وأوردت بعض الاتجاهات الثانوية في البواعث على التدين والتي منها الشعور بالحب، والاتجاه النفسي كباعث على التدين.

ثم عقبت بتعليق رصدت فيه انتشار هذه الأفكار الأمر الذي جعل بعض المفكرين في العالم الإسلامي يتبعون الغربيين في نظرتهم إلى مصدر الدين والبواعث عليه.

ذكرت من هؤلاء الأستاذ "سليمان مظہر" في كتابه "قصة الديانات" والأستاذ "عباس العقاد" في كتابه "الله كتاب في نشأة العقيدة الإلهية" وما لفت نظرى

واسترجعى انتباھي إقراره بما ذهب إليه الغربيون من أن الإنسان بدأ وثنياً معدداً وانتهى بتوحيد الآلة في إله واحد. وإذا بالأستاذ ، بعد أن يعدد الأدوار التي مرت بها الأمم في العقيدة والتي تمثلت عنده في دور التعدد ، ودور التمييز والترجيح ، ودور الوحدانية . إذا به يقول : " وينطبق هذا الترتيب تمام الانطباق على فحوى قصة إبراهيم في القرآن **«فَلَمَّا جَاءَ عَنِّيَ الْيَلِزَمَ كَوْكَباً قَالَ هَذَا زَرَّيٌ** » سورة الأنعام الآيات (٧٩ - ٧٦)

وبهذا التعمق أنتهيت المبحث الأول من الفصل الثاني .

أما المبحث الثاني : فقد خصصته لتقديم الاتجاهات الواردة في المبحث الأول . والتي يزعم أصحابها أن الإنسان هو مصدر الدين ، وأن البواعث على التدين مظاهر أرضية أو سماوية بعيدة عن الوحي والغيب .

فنقضت ما ذهب إليه أصحاب المذهب الطبيعي . وأيضاً ما ذهب إليه أنصار المذهب الحيوى . وتوقفت قليلاً عند أصحاب مذهب الطوطم خاصة زعيمهم " دور كايم " فيما ذهب إليه .

ثم تحدثت عن نقض القول بالتطور في خلق الإنسان والكائنات . والذى دفعنى إلى إيراد هذا النقض ما ظهر لي أثناء عرض وجهة نظر الغربيين من سيطرة فكرة القول بالتطور بمعناه " البيولوجى " عليهم جميعاً حتى بدا لي أن القول بالتطور هو القاسم المشترك بينهم على اختلاف أزمنتهم ، وأمكنتهم ، ولغاتهم . وقد أوردت خلاصة بحث العلماء التي انتهت إلى زيف القول بالتطور في خلق الكائنات والإنسان من الناحيتين العلمية والدينية .

وبعد أن أنهيت تفنيد القول بالتطور " البيولوجى " يمثُّ وجهى شطر الذين يقولون بالتطور في العقيدة . فيبيت الخطأ المنهجى الذى وقعوا فيه ، وأوضحت أن دراساتهم تقوم على الظن والتخمين . لا على اليقين . وتساءلت ما هي الأدوات التي استخدمها هؤلاء لدراسة معتقدات الإنسان منذ مليونين ونصف المليون عام.. ؟ هذا من ناحية . ثم من جهة أخرى إن القول بقياس التطور في العقائد على التطور في الصناعات حجة على التطوريين لا لهم . ثم أوضحت أن القول بالتطور في العقيدة

بضاعة أوربية استنفت أغراضها وانتهت صلاحيتها بعد أن جاء الإسلام ، وقرر القرآن أن الناس منذ خلقوا كانوا على التوحيد وأن الرسل كانت توظف فطر الخلق لترشيدهم إلى توحيد الله وألوهيته ..

أما ما يتعلق بما ذهب إليه الأستاذ " العقاد " (يغفر الله له) فقد تناولت الآيات التي استدل بها على التطور ، وأوردت ما ذكره ثلاثة ، من المفسرين وعلماء العقيدة حولها وتابعتهم فيما ذهبوا إليه من أن هذه الآيات كانت على سبيل المجادلة والمحاجة لقومه بدليل قوله تعالى في بداية الآيات (وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقين) وكما يقول " الرازى " : " ومن كان منصبه في الدين كذلك وعلمه بالله كذلك فكيف يليق أن يعتقد بإلهية الكواكب " ، وما يدل أيضاً على أنه في هذه الآيات كان مجادلاً لقومه . قوله تعالى في نهاية الآيات « وَتَلَكَ حُجَّتَنَا إِاتَّيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ تَرْفَعُ دَرَجَتُنَا مَنْ كَشَأْتَ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ » الأنعام الآية ٨٣

وقد ناقشت المفسرين الذين ذهبوا إلى خلاف ذلك - ثم بينت خطورة قول الأستاذ " العقاد " ومن قال بقوله . لأن القول بالتطور في الدين يؤدي منطقياً إلى أن الدين من صنع الإنسان وأن فكرة " الله " ليست سوى مثل أعلى متغير وضعه الناس لأنفسهم ، وأيضاً فإن القول بالتطور في العقيدة فيه تكذيب للنصوص الدينية التي تقرر سمو التصور الديني عن سيدنا " آدم " عليه السلام . وأنهيت بالرد على الأستاذ " العقاد " المبحث الثاني من الفصل الثاني .

أما الفصل الثالث : فكان عن مصدر الدين ، وبواعث الدين عند جمهور المسلمين . وقد اشتمل هذا الفصل على عدة مباحث :

المبحث الأول : عقده للحديث عن القرآن الكريم وحديثه عن مصدر الدين .. وقد أوردت في هذا المبحث ما ذكره الله عز وجل عن قصة " آدم " عليه السلام إن في السماء أو في الأرض والتي تدل على أن مصدر الدين هو الله ، وأن الإنسان الأول نزل بالوحى ، والهدى ، والتوحيد ، وأن الباущ على التدين الفطرة ودعوة الرسل إلى توحيد الله وعبادته وكذلك العقل السليم .

المبحث الثاني : فكان عن البواعث على الدين عند المسلمين . أوضحت في هذا المبحث أن الفطرة ، والميثاق الذي أخذه الله على بنى آدم ، وإرسال الرسل

لتذكير الخلق ودعوتهم إلى توحيد الله . كل هذه الأسباب وغيرها كانت من البواعث على التدين ، وأوضحت أن الأصل هو الوحدانية ، وأن الشرك هو الطارئ على البشرية واستعرضت قوله تعالى ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ (البقرة الآية ٢١٣) وما دار حولها. من دلالتها على الاجتماع على التوحيد وهو مذهب جمهور المسلمين في تفسير الآية. وما ذهب إليه البعض من أن الناس كانوا أمة واحدة على الكفر والضلال. عرضت ما ذهب إليه كل فريق ورجحت ما ذهب إليه الجمورو من أن الناس كانوا أمة واحدة على التوحيد وحشدت الأدلة على ذلك وأنهيت بذلك الفصل الثالث . من الدراسة.

أما الفصل الرابع : فجاء تحت عنوان العلم التجربى والدين وقد اشتمل على مباحثين وعدة مسائل

في المبحث الأول : مهدت بتمهيد أوضحت فيه سيادة الاتجاه المادى المستند على الحس والتجربة ثم عرضت تعريف المذهب الوضعي ، وقانون الحالات الثلاث الذى ذكر فيه "أوجست كونت" المراحل التى مرت بها البشرية ابتداءً بالمرحلة اللاهوتية ، وتوسعاً بالمرحلة الميتافيزيقية ، وانتهاءً بالمرحلة الوضعية التى يقرر فيها "كونت" ضرورة الاستغناء عن الدين والاكتفاء بالعلم التجربى وأن جميع المشكلات لا تحل بالدين ، ولكن بالعلم.

ثم أوردت الأسباب التى أدت إلى سيادة المذهب الوضعي وانتشاره فى أوروبا وكيف تسرب هذا المذهب إلى العالم الإسلامى وذكرت بعض المفكرين الذين تبنوه فترة ثم تراجعوا عنه أمثال "إسماعيل مظهر" والدكتور "زكي نجيب محمود" (يغفر الله لهما) .

أما المبحث الثانى : فعقدته لتقويم المذهب الوضعي. ودار الحديث فيه عن عدم اتباع "كونت" للمنهج العلمى فيما ذهب إليه بالزغم من ادعائه تمثيل العلم فى جميع الأمور.

وبينت أن "كونت" نفسه قد هدم المذهب الوضعي الذى دعا إليه حين اخترع ديانة الإنسانية وكيف عبد "كونت" صنماً تمثل فى إمرأة تدعى "كلوتيد دى فو" ؟ وأوردت قوله تعالى ﴿إِنَّ يَدْعُونَ مِنْ دُونِنَا إِلَّا إِنَّا نَأَنْدَعُونَ إِلَّا شَيْطَنَنَا مُرِيدًا﴾ النساء الآية ١١٧

وأوضحت أن "كانت" الذي دعا إلى ترك العقيدة الدينية. صنع له ديناً جمع فيه خسنة الفكر البشري في اتباع الهوى ، والكفر بالله العظيم .

ثم بينت في معرض الرد على "كانت" كيف أن العلم التجربى الذى دعى إليه قائم على الغيبات مستشهاداً في هذا الصدد بأقوال أساطين العلم التجربى الحديث ، والمعاصر. وأن العلماء التجربيين يصرحون بأنهم مضطرون لقبول أشياء كثيرة في المجال العلمي بلا مناقشة.

ثم تحدثت عن إخفاق العلم التجربى في حل مشكلات الإنسان المعاصر . وأن العلم الذى دعا إليه "كانت" بعيداً عن الدين هو المسئول عن الإبادة الجماعية والفقر والجوع في العالم الآن.

ثم أوردت نماذج من انتشار السحر والتنجيم والشعوذة في العالم الغربي. الذي اتخد العلم إليها عبده من دون الله . وأوضحت أن العلم عجز عن إشاعة الجانب الروحي الأمر الذي أدى إلى انتشار هذه الخرافات في أرقى المجتمعات الأوروبية من الناحية المادية.

ثم كانت الخاتمة التي اشتملت على تعقيبين :

التعليق الأول : كان عن علاقة الإسلام بالعلم . أوضحت فيه شمولية الإسلام واهتمامه بكافة أمور الإنسان الدنيوية منها التي تتحقق خلافته عن الله في الأرض واستكشاف سنن الله في كونه ، والأخروية التي تتحقق له الأمان في دار البقاء وبينت أن المسلمين الأوائل اكتشفوا سنن الله في أرضه وسمائه فانطلقوا يبحثون وينقبون ويشغلون بالعلوم التجريبية من فلك وطب ورياضيات وكانوا يعتبرون أن ذلك انشغال بالعلم النافع الذي يحيث عليه القرآن ويرغب فيه الرسول . وأوضحت أن المسلمين الآن لا يمكن لهم أن يتحققوا تعاليم الإسلام إلا بالعلم بكافة أنواعه وشتى ضروريه لأن إعداد القوة للأعداء لا تتأتى ولا تتحقق إلا بالعلم ولأن زراعة الأرض وعمارتها لن تتحقق إلا بالعلم . ولكن شتان بين مشتغل بعلم كلما اكتشف شيئاً أو حق اختراعاً كلما ازداد قريباً من الله ، وبين مشتغل آخر كلما اكتشف مخترعاً جديداً

كلما زاد طغياناً وفساداً واستكباراً في الأرض كما هو شأن الكثرين الآن في الحضارة الغربية.

أما التعقيب الثاني: فكان عن الدين الحق الذي ينقد البشرية وقصدت به الإسلام الذي جاء به محمد ﷺ لما امتاز به من خصائص وبينت أن البشرية في أمس الحاجة إليه الآن . واقتصرت على جوانب ثلاثة من الإسلام يحمل بها الإسلام مشاكل البشرية باعتباره رسالة عامة للعالمين واعتبار رسوله خاتماً للأنبياء والمرسلين . تمثلت هذه الجوانب في :-

أولاً: عقيدة التوحيد:

وقد أوضحت أن التخطيط الذي يصيب المجتمعات البشرية الآن يكمن في غياب التصور الصحيح عن الألوهية . والذى لا نجده في الديانات الكتابية مثل اليهودية ، والنصرانية ولا في الديانات الوضعية مثل الهندوسية والبوذية ، ولا في المذاهب الوضعية مثل الرأسمالية وغيرها . وإنما نجد هذا التصور في الإسلام الحنيف .

ثانياً: الجانب الأخلاقي.

وقد بينت أن المستنقع الأسن الذي وصلت إليه البشرية الآن من الناحية الأخلاقية التي لن يأخذ يدها وينجيها من الغرق فيه سوى الإسلام الذي جاء به محمد ﷺ .

ثالثاً: جانب المعاملات بين الأفراد والدول وأن الإسلام بتعاليمه المثبتة في القرآن الكريم وصحيح السنة النبوية . هو الأمل المنشود للبشرية كلها تحقيقاً لوعده الله . وإنما اقتصرت على هذه الأمور الثلاثة لأنها من وجهة نظرى المتواضعة هى الأهم . وإلا فإن تعاليم الإسلام كلها في غاية الأهمية . والأمر الثاني الذى دعاني للإلتئام على هذه الجوانب الثلاثة . أن الدراسة ليست مخصصة لشرح تعاليم الإسلام .

أسأل الله أن يعز دينه وأن يمكن لأتباعه ليعيدوا أمجاد السلف الصالح . إنه سميع مجيب . وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

د/ فرج الله عبد الباري أبو عطا الله

رئيس قسم العقيدة والفلسفة

كلية أصول الدين

الفصل الأول

سلطات تتعلق بالعتقد

المبحث الأول

الدين في اللغة والاصطلاح

ويشتمل على المسائل التالية :

المسألة الأولى: الدين ودلالاته في اللغة العربية .

سوف نحاول تبع معانى كلمة الدين في المعاجم اللغوية حتى نقف على استعمالها اللغوى. أملين أن نصل إلى ضوابط تجمع المعانى المختلفة للكلمة. يقول ابن فارس " الدال والنون أصل واحد إليه يرجع فروعه كلها وهو جنس من الانقياد والذل " ^(١)

وبالنظر في المعاجم اللغوية وكتب التفسير وشرح السنّة وجدنا أن الدين من الناحية اللغوية يطلق على عدة معانٍ . منها :-

١- الطاعة

يقال دان له يدين ديناً إذا أصّبَّ وانقاد وطاع، وقوم دينُ أى مطيعون منقادون، وقد دنّته أطعته. ومنه قول عمرو بن كلثوم

وأياماً لنا غرّاً كراماً عصينا الملك فيها أن ندّينا ^(٢)

وأصل الدين هو الطاعة والجزاء ثم استعير للشريعة، والدين كمللة لكنه يقال باعتبار الطاعة والانقياد للشريعة ^(٣)

٢- الحكم القاضي

ومنه الديّان وكان على ديان هذه الأمة أى قاضيها وحاكمها ^(٤) ومنه قوله ﴿ مَا كان ليأخذ أخاه في دين آل ملّك ﴾ ^(٥) أى في حكمه وقضائه

(١) معجم مقاييس اللغة لابن فارس ج ٢ ص ٣١٩ تحقيق عبد السلام هارون

(٢) لسان العرب ج ٢ ص ١٤٧٠ - ١٤٧٧

(٣) معجم القرآن ص ٢٢٣ - ٢٢٤

(٤) لسان العرب والقاموس الحفيظ ج ٤ ص ٢٢٦ - ٢٢٧

(٥) سورة يوسف الآية ٧٦

٣- السياسة والقهر

تستعمل كلمة الدين بمعنى السياسة ومنه قول ذي الإصبع
 لاه ابن عمك لا أفضلت في حسب
 فينا ولا أنت دياني فتخزونى
 أى لست بقاهر فتسوس أمري^(١)

٤- الجزاء والحساب الحكم

ومنه يوم الدين أى الجزاء والحساب. سواء أكان يوم الحكم أو الجزاء والحساب
 فأى ذلك كائن فهو أمر ينقاد له. وقال أبو زيد: دين الرجل يُدان إذا حُمل على ما
 يكره^(٢) وفي المثل "كما تدين تدان" أى كما تُجازى تُجازى بفعلك وحسب ما
 عملت ومنه قوله تعالى «أَءِنَا لَمَدِينُونَ»^(٣) أى مجازيون محاسبون

٥- العادة والشأن

يُقال ما زال ذلك ديني وديدنتي أى عادتى وشأنى يقول ابن فارس "أما قولهم إن
 العادة يقال لها دين كان صحيحاً فلأن النفس إذا اعتادت شيئاً مرت معه
 وانقادت له، وينشدون في هذا:

كلينك من أم الحويرث قبلها
 وجارتها أم الريّاب بأسفل^(٤)
 ومنه قوله

يا دين قلبك من سلمى وقد ديننا^(٥)
 أى يا عادة قلبك، وقد ديننا أى حُمل على ما يكره.

٦- الذل

يطلق الدين على الذل ، والمدين العبد ، والمدينة الأمة كأنها أذلها العمل ، والمدينة
 الحاضرة كأنها مفعلة سميت بذلك لأنها تقام فيها طاعة ذوى الأمر^(٦)

(١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطيه ج ١ ص ١١٥-١١٦

(٢) معجم مقاييس اللغة ج ٢ ص ٣١٩ - ٣٢٠

(٣) سورة الصافات الآية ٥٣

(٤) معجم مقاييس اللغة ج ٢ ص ٣١٩ - ٣٢٠

(٥) المحرر الوجيز ج ١ ص ١١٦

(٦) انظر معجم مقاييس اللغة ج ١ ص ٣١٩ والمحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ج ١ ص ١١٦

٧- الحال

من الإطلاقات التي تستعمل بمعنى الدين في لغة العرب الحال قال النضر بن شمبل : "سألت أعرابياً عن شيء فقال لي لو لقيتني على دين غير هذا لأخبرتك " أى على حال^(١)

ولعلنا نلاحظ المعانى المتعددة التي تحملها إطلاقات كلمة الدين غير أن هذا التنوع في استخدام الكلمة في المعاجم اللغوية جعلها - أى المعاجم - لا تحدد بالضبط المعنى الدقيق لكلمة (الدين) ، ولعل من أبلغ من عبر عن هذا التنوع في تلك المعاجم ، وتلمس العذر لواضعها

الدكتور " دراز " حيث يذكر عن هذه المعاجم أنها إنما وضعت " لضبط اللسان لا لشقيف الجنان " ^(٢)

المحاور التي تدور حولها كلمة دين

بعد هذا الاستعراض يمكن أن نخلص إلى أن كلمة دين - تعود إلى ثلاثة معانٍ تكاد تكون متلازمة - ^(٣)

أولاً: فهي تؤخذ من فعل متعد بنفسه " دانه يدينه " أو دانه ديناً وتعنى بذلك أنه حكمه وملكه وسasse ودبره وقهره ، وحاسبه وقضى في شأنه فالدين بهذا الاستعمال يدور حول معنى الملك والقهر والمحاسبة والمحازاة ^(٤) ولأن الحساب والجزاء معنى أصيل في استخدام العرب لكلمة دين.

ثانياً: تأتي كلمة الدين من فعل متعد باللام " دان له " ومعناه أطاعه وخضع له فالدين هنا بمعنى الخضوع والطاعة العبادة.

ثالثاً: تأتي كلمة الدين من فعل متعد بالباء " دان به " كقولنا دان الشيء معناه اتخاذه ديناً واعتقده واعتاده ، وتدانين القوم استدان بعضهم

(١) المحرر الوجيز ج ١ ص ١١٦ انظر في المعانى المتعددة لاستخدام كلمة دين - القاموس المحيط ج ١ ص ٢٢٦ - ٢٢٧ وختار الصحاح ص ٢٠٤ ، والمعجم الوسيط ج ١ ص ٣٠٤

(٢) الدين للدكتور دراز ص ٢٩

(٣) نفسه ص ٢٥

(٤) الدين للدكتور دراز ص ٢٦

بعضًا وتعاملوا بالدين وهذا الاستعمال تابع للاستعمالين من قبله لأن العادة أو العقيدة التي يُدان بها لها من السلطان على صاحبها ما يجعله ينقاد لها ويلزم اتباعها.

وينتهي الدكتور "دراز" إلى أن مادة دين تدور حول معنى لزوم الانقياد كما في الاستعمال الأول الذي هو إلزام الانقياد، وفي الاستعمال الثاني هو التزام الانقياد. وهناك فرق بين الإلزام والالتزام، وفي الاستعمال الثالث هو المبدأ الذي يلتزم الانقياد له ^(١) وإن كان للبعض رأى آخر في أصل كلمة دين - فيرى الإمام الأكبر الشيخ "مصطفى عبد الرزاق" - أن أكثر المعاجم اللغوية تجمع لفظ دين ولفظ دين في مقام واحد باعتبار أنهما من مادة واحدة ويتساءل "أليس من المعقول أن تكون كلمة دين بمعنى ملة مأخوذة من كلمة دين بمعنى الشيء غير الحاضر فإن أساس الأديان كلها الإيمان بأمر وراء هذا الموجود المحسوس الحاضر" ^(٢)

غير أننا نرى أن هذا تضييق لاستعمال كلمة "دين" بعد أن رأينا استخداماتها المتنوعة - وحصرها في معنى واحد بلا مرجع والأولى بالقبول هو ما عبر عنه الدكتور دراز لجمعه المعانى المتعددة لكلمة "دين" في رياط جامع يتمثل في تعدد الكلمة بنفسها.

وهذا التعدد يجمع عدة إطلاقات وكذلك تعديها باللام، وتعديها بالباء، وفي كل معانٍها. فإنها تعنى الإلزام والانقياد مع ما يتطلبه الإلزام من صاحب طاعة ومطاع، وشئ يُنفذ أو يُفعَل من جانب المطاع إرضاءً لصاحب الطاعة والانقياد.

(١) الدين للدكتور دراز ص ٢٦ - ٢٧ وانظر مقارنة الأديان بين اليهودية والإسلام ص ٦ للدكتور عوض الله حجازى وانظر في الدين المقارن ص ١٩ للدكتور محمد كمال جعفر دار الكتب الجامعية ١٩٧٠

(٢) الدين والوحى والإسلام ص ٣٥

المسألة الثانية: وقفة مع بعض المستشرقين حول كلمة دين وأصالتها في اللغة العربية.

بعد هذه الجولة الواسعة بين المعاجم والقواميس اللغوية القديمة منها والمعاصرة في كلمة "دين" والمعانى المختلفة التى تحملها فى لغة العرب وأشعارها بعد هذا كله يطالعنا أحد كُتاب دائرة المعارف الإسلامية من المستشرقين برأى يقول فيه " ذكر فقهاء اللغة من العرب فى مادة دين معانى مضطربة أساسها كلمات ثلاثة قائمة برأسها

١. كلمة آرامية عبرية معناها الحساب

٢- كلمة عربية خالصة ، ومعناها عادة أو استعمال تَمَّتْ هي والكلمة الأولى إلى أصل واحد مثلها في ذلك مثل الكلمة العبرية "تشبات" بالنسبة إلى الكلمة "شافاط"

٣. كلمة فارسية مستقلة تمام الاستقلال معناها ديانة ، ويستشهد هذا المستشرق بكلام مستشرق آخر فيقول " وقد عارض "فولرز" الرأى القائل بوجود كلمة عربية خالصة هي دين ، وبَيِّنَ أن الكلمة الفارسية "دين" يُعنى ديانة كانت مستمدَّة بالفعل من اللغة العربية أيام الجاهلية وذهب إلى أن المعنى عادة أو استعمال اشتُق من هذه الكلمة " ZEITSCHR- FASSYR ^(١) وهو بهذا الطرح ينفي وجود كلمة عربية خالصة يُعنى الدين وإذا عورض باستعمالها عند العرب في الجاهلية رد ذلك إلى أن أصلها فارسي.

ويواصل افتراطه فيقول " وكان من الطبيعي أن يؤدى هذا الاضطراب إلى وقوع مفسرى القرآن في مصاعب لا تنتهي ، وشاهد ذلك أنهم حين تعرضوا لتفسير آية (مالك يوم الدين) انظر تفسير البيضاوى ، والرازى ، والطبرى حاروا حيرة شديدة في التماس ما يؤدى بهم إلى هذا المعنى.. على أتنا يمكن أن نرد آيات القرآن جمِيعاً إلى معنى أو آخر من معانى هذه الكلمة الثلاث التي ذكرناها آنفأ " ^(٢)

(١) انظر دائرة المعارف الإسلامية مادة دين ج ٩ ص ٣٦٨

(٢) انظر دائرة المعارف الإسلامية ج ٩ ص ٣٦٨

كانت هذه هي الشبهة التي أثارها بعض كتاب دائرة المعارف الإسلامية من المستشرقين.

ويمكن الرد عليهم في النقاط التالية:-

أولاً: إن كلامهم لا يقوم على أي معيار علمي وأن الأمر لا يعود أن يكون نزعة شعورية ت يريد تجريد العرب من كل فضيلة حتى فضيلة البيان التي هي من أعز مفاسيرهم⁽¹⁾

ثانياً :- بالرجوع إلى المفسرين الذين وصفهم كاتب مادة " دين " بأنهم حاروا حيرة شديدة في التماس ما يؤدى بهم إلى أن معنى الدين في قوله (مالك يوم الدين) المقصود به الحساب والجزاء ، وجدنا أنهم عبروا عن تفسير الدين بالحساب والجزاء في منتهى الوضوح ، والبيان واستدلوا على ما ذهبوا إليه بلغة العرب وشواهد من أقوال الصحابة والتابعين وهذا يوضح مدى الافتراء الذي يمارسه بعض المستشرقين على اللغة والدين من ناحية وعلى العلماء والحقيقة من جهة أخرى . وسوف نعرض رأي المفسرين الذين ذكرهم كاتب دائرة المعارف . ليرى القارئ مدى صدق كلام المستشرقين من عدمه .

يقول إمام المفسرين "الطبرى" فى تفسير قوله تعالى ﴿مَنْلِكِ يَوْمَ الدِّين﴾^(٢) والدين فى هذا الموضع بتأويل الحساب والمجازاة بالأعمال كما قال كعب بن جعيل

إذا ما رمونا رميناهم ودناهم مثل ما يقرضونا

ومن ذلك قوله ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِاللَّدِينِ﴾ يعني الجزاء وقوله ﴿فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ يعني مجزيin بأعمالكم ولا محاسبين يقول "وللدين معان في كلام العرب غير معنى الحساب والجزاء ثم يستدل على تفسير الدين بالحساب والجزاء بالأثار الواردة عن الصحابة فينقل عن ابن عباس وابن مسعود أن يوم الدين يوم الحساب^(٢) ونحن نسأل هذا المستشرق أى اضطراب إذن حصل في كلام

(١) الدين: للدكتور دراز ص ٢٧ - ٢٨

(٢) سورة الفاتحة الآية ٤.

(٣) تفسير الطبرى ج ١ ص ١٥٦ تحقيق أحمد و محمد شاكر دار المعارف

الطبرى وقد رأيناه يستدل ويتتمكن على ما ذهب إليه بكلام العرب وبالمأثور عن الصحابة رضوان الله عليهم.

أما الفخر الرازى الذى اتهم بالاضطراب فى تفسير الآية فنصه كالتالى " قوله ﴿ مَلِكٌ يَوْمَ الدِّين ﴾ سورة الفاتحة الآية ٤ أى مالك يوم البعث والجزاء ، وتقديره أنه لابد من الفرق بين المحسن والمسئ والمطيع وال العاصى ، والموافق والمخالف وذلك لا يظهر إلا يوم الجزاء " ^(١)

وأيضاً البيضاوى يفسر يوم الدين بـ يوم الجزاء والحساب ويستدل بلغة العرب على ذلك يقول " ومنه كما تدين تُدان " ^(٢)

وكما هو واضح من النصوص التى نقلناها عن المفسرين الذين اتهموا من قبل بعض المستشرقين بالاضطراب لاحظنا الدقة فيما ذكره المفسرون حول (مالك يوم الدين) ولم يُحارروا فى تفسيرها كما زعم كاتب دائرة المعارف وهذا ما حدا بالشيخ مصطفى عبد الرزاق إلى استبعاد أن يكون لفظ " دين " بمعنى الملة لفظاً غير عربى خصوصاً مع الاعتراف بوجود اللفظ نفسه عربياً. بمعنى آخر فى رأى " ماكدونالد " كاتب دائرة المعارف الإسلامية ^(٣)

ثالثاً: والذى بدا لي أن كتاب دائرة المعارف لاحظوا اختلاف المفسرين حول قراءة مالك ، وملك فتوهموا أن المفسرين اضطربوا واحتاروا فى تفسير يوم الدين بالحساب والجزاء ، وهذا ما لم يحدث كما أوضحت عند عرض رأى المفسرين فى تفسير الآية على أن شطط المستشرقين فيما ذهبا إليه مرده إلى جهلهم باللغة العربية ومعانها وهم من هذه الناحية آخر من يصلحون علمياً للبحث فى لغة القرآن وبلاغته كما يقول الأستاذ أحمد شاكر عليه رحمه الله ^(٤)

(١) التفسير الكبير ج ١ ص ٢٣٦

(٢) تفسير البيضاوى ص ٤

(٣) انظر الدين والوحى والإسلام ص ٣٤

(٤) هامش دائرة المعارف ج ١٢ ص ٤١٧

المسألة الثالثة: - الدين اصطلاحاً

يُعرف الدين^١ في الاصطلاح بأنه " وضع إلهي سائق لذوى العقول السليمة باختيارهم المحمود إلى ما هو خير لهم بالذات "^(١) وبالتأمل في التعريف نلاحظ الآتي :-

أولاً: أن الوضع المشار إليه في التعريف لا يتعلّق بالأحكام الشرعية فقط وإنما يدخل فيه كل ما يوحى به الله إلى رسّله عليهم السلام من أمور الدنيا والآخرة ، وهذا يشمل العقائد والأعمال^(٢)

ثانياً: أن التقييد هنا بكلمة إلهي يُخرج ما يضعه الساسة والحكماء من التشريعات التي يسوّسون بها الرعية ويدبرون شؤونهم لأن هذه القوانين موضوعة ولكنها ليست من عند الله وإنما هي من صنع البشر.

ثالثاً: كلمة "سائق" في التعريف تفيد معنى الحمل والبعث للنفس على فعل أمور الدين . لأن المكلف إذا سمع ما يترتب على فعل الواجب من الثواب وما يترتب على الفعل الحرام من العقاب انساق إلى الأول ، وترك الثاني .

ويجب أن تخصّص كلمة "سائق" بالملكفين إذا إن هناك أموراً تسوقهم وتسوق غيرهم بحكم الضرورة وبالجبلة مثل الأوضاع الطبيعية التي تسوق الحيوانات لمنافعها.

رابعاً: الاختيار المحمود يخرج الأمور التي تسوق الإنسان إلى أمور لازمة لا تكون باختياره كالآلام السائقة إلى الأنين وكالجوع الذي يسوق إلى الطعام ، والعطش الذي يسوق إلى الشراب.

أما المحمود فإنه يخرج الاختيار المذموم كالكفر وكمّن الزكاة المترتب على حب الدنيا والتعلق بها.

(١) البيجورى على الجوهرة ص ١٤

(٢) كشاف اصطلاحات الفنون للتهانوى ج ٢ ص ٥٠٣

♦ الدين هنا باعتباره " لا يكون إلا وحيّاً من الله إلى أنبيائه الذين يختارهم من عباده ويرسلهم أئمّة يهدون بأمر الله " انظر الدين والوحى والإسلام ص ٤١

خامساً: الذات الواردة في التعريف. تتعلق بالخير الذاتي الذي هو عبارة عن السعادة الأبدية ، وخرج ، بالخير الذاتي كافة التعاليم والصناعات السائقة إلى الخير فإنها وإن ساقت إلى الخير والمنفعة إلا أنه خير جزئي أما الخير الكلى فهو الذي يدل عليه الدين ويأتي به ^(١)

(١) انظر البيجورى على الجوهرة ص ١٥ بتصرف

المبحث الثاني

الدين وأطلاقه في القرآن والسنة

المسألة الأولى: الدين في القرآن الكريم (المعنى العام)

تطلق كلمة الدين في القرآن الكريم على عدة معان منها:

١- الحساب والجزاء

كما في قوله تعالى ﴿مَلِكِ يَوْمَ الْدِين﴾^(١) ومنه قوله تعالى (﴿فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ تَرْجِعُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^(٢) ومنه قوله تعالى (﴿وَمَا أَدْرِنَاكَ مَا يَوْمُ الْدِينِ﴾^(٣) ثمَّ مَا أَدْرِنَاكَ مَا يَوْمُ الْدِينِ^(٤) وقوله تعالى (﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْدِينِ﴾^(٥) وكل كلمة دين إذا أضيفت إلى يوم فهى يوم القيمة^(٦) وقد ذهب إلى أن معنى كلمة "دين" في هذه الآيات - جميعها معناها الجزاء والحساب جمهرة من المفسرين واستندوا على أقوال للصحابة والتابعين يفسرون فيها يوم الدين - بأن المقصود به الحساب والجزاء^(٧).

٢- النّظام والملك والحكْم

كما في قوله تعالى ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذُ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾^(٧) أى في نظام ملک مصر أو في قضاء الملک ومنه قوله تعالى ﴿وَلَا تَأْخُذُ كُمْرَبَهَا فِي دِينِ اللَّهِ﴾^(٨) أى في قضايه وحكمه وشرعيته^(٩)

(١) سورة الفاتحة الآية ٤

(٢) سورة الواقعة الآية ٨٦ - ٨٧

(٣) سورة الانفطار الآية ١٧-١٨

(٤) سورة الماعون الآية ١

(٥) معجم القرآن ص ٢٢٣-٢٢٤ عبد الرءوف المصري مطبعة حجازى ١٩٨٤ م

(٦) انظر تفسير ابن عطية ج ١ ص ١١٥ ، و تفسير الرازى ج ١ ص ٢٣٧-٢٣٨ . وأبو السعود ج ١ ص ١٧

٧٦) سورة يوسف الآية ٧)

(٨) سورة النور الآية ٢

(٩) الکلیات لائی، الیقاء ج ٢ ص ٣٣٨-٣٢٩

٢- الطاعة والإذعان

كما في قوله تعالى ﴿وَمَنْ أَخْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ حَسِينٌ﴾^(١) أى ومن أحسن طاعة^(٢)

ومنه قوله تعالى ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ﴾^(٣) أى الطاعة والعبادة

وقوله تعالى ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي﴾^(٤) أى طاعتي وعبادتي

٤- الطريقة والغاية والعقيدة والمذهب

كما في قوله تعالى ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِي دِينِي﴾^(٥) أى لكم طريقتكم التي تتبعونها في عبادتكم ومعاملاتكم، ولـى ديني أى طريقة التي علمـنى الله إياها وأرشـدى إليها وأمرـنى بها^(٦)

وقد استخدم "الرازى" رحـمه الله مـعـانـى متـعدـدة لـكلـمـةـ الـدـيـنـ فـىـ تـفـسـيرـهـ لـهـذـهـ الـآـيـةـ،ـ وـفـسـرـاـةـ الـآـيـةـ بـهـاـ.

فينقل عن ابن عباس في تفسير قوله تعالى ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِي دِينِي﴾ أى لكم كفركم، ولـى التـوـحـيدـ وـالـإـلـاـصـ بـالـلـهـ.

ويقول: إذا قيس الدين بمعنى الحساب لكم حسابكم ولـى حـسـابـيـ وـلـاـ يـرـجـعـ إـلـىـ كلـ وـاحـدـ مـنـ عـمـلـ صـاحـبـهـ أـثـرـ الـبـتـةـ.ـ أـوـ الـدـيـنـ الـعـقـوـبـةـ مـنـ رـبـىـ وـلـىـ الـعـقـوـبـةـ مـنـ أـصـنـامـكـمـ لـكـنـ أـصـنـامـكـمـ جـمـادـاتـ فـأـنـاـ لـأـخـشـىـ عـقـوـبـتـهـاـ،ـ وـأـمـاـ أـنـتـمـ فـيـحـقـ لـكـمـ عـقـلـاـ أـنـ تـخـافـوـاـ عـقـوـبـةـ جـبـارـ السـمـوـاتـ وـالـأـرـضـ.

(١) سورة النساء ١٢٥

(٢) المفردات للراغب ص ١٧٧ - ١٧٨

(٣) سورة الزمر الآية ١١

(٤) سورة الزمر الآية ١٤

(٥) القرطبي المجلد الثامن ص ٢٤٢ - ٢٤٣

(٦) سورة الكافرون الآية ٦

(٧) انظر الدين ص ٢٦ ومقارنة الأديان ص ٦

وإذا فسر الدين بمعنى العادة فمعناه لكم عادتكم المأخوذة من أسلافكم ومن الشياطين ولـى عادتـى المـأخـوذـة منـ المـلـائـكـة والـلـوـحـى ثم يـبـقـى كـلـ مـنـا عـلـى عـادـتـه وطـرـيقـتـه حـتـى تـلـقـوا الشـيـاطـين وـالـنـار ، وأـلـقـى المـلـائـكـة وـالـجـنـة^(١)

بهـذـه الشـمـولـيـة استـخـدـمـ الرـازـى مـعـظـمـ المـعـانـىـ المـسـتـخـدـمـةـ فـىـ كـلـمـةـ الدـيـنـ فـىـ تـفـسـيرـ قـوـلـهـ تـعـالـىـ « لـكـرـبـ دـيـنـكـ وـلـىـ دـيـنـ ».

٥- الدين بمعنى الإسلام الذي عليه جميع الأنبياء والرسل

ورـدـتـ كـلـمـةـ الدـيـنـ فـىـ الـقـرـآنـ الـكـرـيمـ بـمـعـنـىـ الـإـسـلـامـ بـوـجـهـ عـامـ وـالـإـسـلـامـ فـىـ هـذـهـ إـطـلـاقـاتـ اـسـمـ لـلـدـيـنـ الـمـشـرـكـ الـذـىـ هـتـفـ بـهـ كـلـ الـأـنـبـيـاءـ وـاـنـتـسـبـ إـلـيـهـ كـلـ أـتـبـاعـ الـأـنـبـيـاءـ^(٢) وـعـنـوـانـهـ قـوـلـهـ (لـاـ إـلـهـ إـلـاـ اللـهـ) الـدـيـنـ يـعـنـىـ عـبـادـةـ اللـهـ وـحـدـهـ لـاـ شـرـيكـ لـهـ الـذـىـ بـعـثـ بـهـ جـمـيعـ الـأـنـبـيـاءـ كـمـاـ دـلـ عـلـىـ اـتـخـادـ دـيـنـهـ نـصـوـصـ الـكـتـابـ^(٣) وـالـدـيـنـ الـذـىـ جـاءـ بـهـ الـأـنـبـيـاءـ قـبـلـ مـحـمـدـ^(٤) هـوـ الـإـسـلـامـ بـمـعـنـىـ إـخـلـاـصـ الـدـيـنـ وـالـعـبـادـةـ لـلـلـهـ^(٥)

وـعـلـىـ هـذـاـ إـطـلـاقـ لـلـدـيـنـ بـمـعـنـىـ الـإـسـلـامـ بـمـعـنـىـ الـعـامـ وـرـدـ مـاـ يـعـرـفـ بـوـحـدـةـ الـدـيـنـ عـنـ جـمـيعـ الـأـنـبـيـاءـ وـالـمـرـسـلـينـ وـأـتـبـاعـهـمـ مـنـ الـمـؤـمـنـينـ. يـقـولـ تـعـالـىـ « إـنـاـ أـوـحـيـنـاـ إـلـيـكـ كـمـاـ أـوـحـيـنـاـ إـلـىـ نـوـحـ وـالـنـبـيـعـ مـنـ بـعـدـهـ ». وـأـوـحـيـنـاـ إـلـىـ إـبـرـاهـيـمـ وـإـسـمـاعـيلـ وـإـسـحـاقـ وـيـعـقـوبـ وـالـأـسـبـاطـ وـعـيـسـىـ وـأـيـوبـ وـيـوـنـسـ وـهـرـونـ وـسـلـيـمـنـ وـأـتـيـنـاـ دـاـوـدـ زـيـورـاـهـ^(٦)

وـيـجـبـ أـنـ نـقـرـ هـنـاـ أـنـ الـدـيـنـ الـمـوـحـىـ بـهـ مـنـ اللـهـ لـلـأـنـبـيـاءـ هـوـ الـإـسـلـامـ بـمـعـنـىـ الـعـامـ . وـقـدـ وـصـفـ مـعـظـمـ الـأـنـبـيـاءـ بـأـنـهـمـ مـسـلـمـونـ ، وـبـأـنـ دـيـنـهـمـ هـوـ الـإـسـلـامـ .

(١) انظر تفسير الرازى ج ٣٢ ص ١٤٧

(٢) الدين ص ١٧٥

(٣) الإيمان لابن تيمية ج ٧ ص ٦٣٥ - ٦٣٦

(٤) تفسير الرازى ج ٨-٧ ص ٢٠٨

(٥) سورة النساء الآية ١٦٣

- ١- سيدنا نوح عليه السلام يذكر أن دينه الإسلام يقول تعالى ﴿فَإِنْ تَوَلَّهُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أُخْرَى إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأَمْرَتُكُمْ أَنْ تَكُونُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾^(١)
- ٢- سيدنا إبراهيم عليه السلام يقول تعالى عنه ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُمْ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(٢)
- ٣- سيدنا يعقوب عليه السلام يحكي القرآن وصيته لأبنائه عند احتضاره يقول تعالى ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتَ إِذْ قَالَ لِبْنَيْهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ أَبَابِيكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَيْهَا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾^(٣)
- ٤- سيدنا يوسف عليه السلام يقول ﴿رَبِّيْ قَدْ أَتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلِمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَأَطْرَأَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْتَ وَلِيَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَالْحَقِيقِي بِالصَّابِرِحِينَ﴾^(٤)
- ٥- سيدنا موسى عليه السلام يدعو قومه إلى الإسلام يقول تعالى («وَقَالَ مُوسَى يَنْقُرُمْ إِنْ كُنْتُمْ إِمَانْتُ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ»)^(٥)
- ٦- وسيدنا سليمان حكى القرآن عنه أنه دعا ملكة سبا إلى الإسلام يقول تعالى ﴿إِنَّمَا مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّمَا يُسَمِّيُ اللَّهُ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٦﴾ أَلَا تَعْلُوُ عَلَى وَأَتُونَ مُسْلِمِينَ﴾^(٦) ويتحدث عن دينه ﴿وَأَوْتَيْنَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾^(٧) وملكة سبا حين أذاعت لسليمان أعلنت أنها قد دخلت في دين الإسلام يقول تعالى ﴿فَقَالَتْ رَبِّي إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(٨) وسيدنا عيسى عليه

(١) سورة يومن الآية ٧٢

(٢) سورة البقرة الآية ١٣١

(٣) سورة البقرة الآية ١٣٢

(٤) سورة يوسف الآية ١٠١

(٥) سورة يومن الآية ٨٤

(٦) سورة النمل الآية ٣٠، ٣١، ٣٢

(٧) سورة النمل الآية ٤٢

(٨) سورة النمل الآية ٤٤

السلام كانت دعوته ودينه الإسلام يقول تعالى ﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفَّارَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ إِمَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِإِنَّا مُسْلِمُونَ ﴾^(١)

فكلمة الإسلام في هذه الآيات تعنى الخضوع لله وطاعته وعلى هذا فإن أتباع الأنبياء مسلمون ومن ثم فجميع الملل والشائعات التي جاء بها الأنبياء روحها الإسلام والانقياد والخضوع وإن اختلفت في بعض التكاليف وصور الأعمال، وبه كان الأنبياء يوصفون فالمسلم الحقيقي من كان خالصاً من شوائب الشرك مخلصاً في أعماله^(٢). على أن الإسلام هنا يراد به الاستسلام طوعاً

فكان المسلم هو الذي رضي بطاعة الله فاجتمعت له الطاعة والإرادة ، وإنما قلنا طوعاً حتى نميز بين نوع آخر من الإسلام بمعنى الانقياد والطاعة ولكن بالقهر والكفر وعليه قوله تعالى ﴿ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾^(٣) وهذا أسلم المؤمن طوعية والكافر اضطراراً من حيث أنه وغيره من الكائنات خاضعون الله ومنقادون له بحكم خلقهم رضوا أم كرروا^(٤)

(١) سورة آل عمران الآية ٥٢.

(٢) فجر الإسلام لأحمد أمين ص ٧٠ وتفسير الماغني ج ٣ ص ١١٩.

(٣) سورة آل عمران الآية ٨٣.

(٤) فجر الإسلام ص ٧٠ لأحمد أمين مكتبة النهضة الطبعة الحادية عشرة

المسألة الثانية الدين في القرآن الكريم (المعنى الخاص) للإسلام

والإسلام على هذا الوجه هو " ما اختص به محمد ﷺ من الدين والشريعة والنهاج ، وهو الشريعة والحقيقة " ^(١) وقد اعتبر الله أن الإسلام الذي جاء به محمد ﷺ هو الدين الحق الواجب اتباعه من المشركين أو اليهود أو النصارى وبالجملة من جميع الناس .

يقول تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ اللَّهِ إِلَّا سَلَمٌ﴾ ^(٢) أى لا دين مرضى عند الله سوى الإسلام وهو التوحيد الذي جاء به محمد ﷺ والتذرع بشرعه ^(٣)

يقول ابن كثير في تفسير هذه الآية " إخبار منه تعالى بأنه لا دين عنده يقبله من أحد سوى الإسلام وهو اتباع الرسل فيما بعثهم الله به في كل حين حتى ختموا بمحمد ﷺ الذي سد جميع الطرق إليه إلا من جهة محمد ﷺ فمن لقى الله بعد بعثة محمد ﷺ بدين على غير شريعته فليس بمتقبل كما قال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ اللَّهِ إِلَّا سَلَمٌ﴾ ^(٤)

ويقول سبحانه ﴿وَمَنْ يَتَّبَعْ غَيْرَ الْإِسْلَمِ دِيَنًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِيرِينَ﴾ ^(٥) يذكر إمام المفسرين الطبرى في تفسيره لهذه الآية " أى ومن يطلب غير دين الإسلام ليدين به فلن يقبل الله منه وهو في الآخرة من الخاسرين الباخسين أنفسهم حظوظها من رحمة الله عز وجل وذكر سبحانه أن أهل كل ملة أدعوا أنهم هم المسلمون لما نزلت هذه الآية فأمرهم الله بالحج إن كانوا صادقين لأن من فرائض الإسلام الحج فامتنعوا فأدحض الله حجتهم " ^(٦) ويدرك القرطبي أن هذه الآية نزلت في الحارث بن سعيد أخو الجلاس بن سعيد وكان من الأنصار ارتد عن الإسلام هو

(١) مجمع الفتاوى ج ٧ ص ٦٣٥ - ٦٣٦ .

(٢) سورة آل عمران الآية ١٩ .

(٣) تفسير البيضاوى ص ٦٩

(٤) سورة آل عمران الآية ١٩ وانظر تفسير ابن كثير ج ١ ص ٣٥٤

(٥) سورة آل عمران الآية ٨٥

(٦) تفسير الطبرى المجلد الثالث ص ٢٤١

واثنا عشر معه ولحقوا بمكة كفاراً فنزلت هذه الآية ثم أرسل إلى أخيه يطلب التوبه، وروى ذلك ابن عباس وغيره قال ابن عباس : وأسلم بعد نزول الآيات ^(١) وينقل الطبرى عن عكرمة في سبب نزول الآية (ومن يبتغ غير الإسلام ديناً) قالت اليهود فتحن المسلمين قال الله عز وجل لنبيه ﷺ قل لهم ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجْمٌ الْبَيْتُ مَنْ أَسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾ ومن كفر يعني من أهل الملل **﴿ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾** ^(٢)

والخلاصة أن الإسلام في هذه الآية مقصود به المعنى الخاص أى الدين الذي جاء به محمد ﷺ ^(٣)

ومن إطلاقات الدين على الإسلام بمعنى الخاص قوله تعالى **﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَذْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴾** ^(٤) فدين الله في هذه الآية المراد به الإسلام يقول الله تعالى **﴿ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ اللَّهِ إِلَسْلَمُوا ﴾** ^(٥)

وقوله **﴿ وَمَنْ يَتَنَعَّمْ غَيْرُ إِلْسَلِمٍ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلْ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِيرِينَ ﴾** ^(٦)

وللدين أسماء أخرى بمعنى الإسلام منها صراط الله في قوله تعالى **﴿ صِرَاطُ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾** ^(٧)

ومنها كلمة الله في قوله تعالى **﴿ وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَسْفَلًا وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلَيَا ﴾** ^(٨)

(١) تفسير القرطبي ج ٣ / ٤ ص ١٢٨

(٢) انظر الطبرى المجلد الثالث ص ٢١٤ ، الآية ٩٧ من سورة آل عمران

(٣) انظر تفسير الرازى ج ٧ / ٨ ص ١٢٥ - ١٢٦

(٤) سورة النصر الآية ٢١

(٥) سورة آل عمران الآية ١٩

(٦) سورة آل عمران الآية ٨٥

(٧) سورة الشورى الآية ٥٣

(٨) سورة التوبه الآية ٤٠

ومنها الحبل في قوله تعالى ﴿وَأَعْتَصُمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرُّقُوا﴾^(١) وبعد أن يعدد الرازى إطلاقات كلمة الدين بمعنى الإسلام يقول : " وإنما قال في دين الله ولم يقل في دين الرب ولا سائر الأسماء لوجهين : الأول : أن هذا الاسم أعظم لدلاته على الذات والصفات فكانه يقول : هذا الدين إن لم يكن له خصلة سوى أنه دين الله فإنه يكون واجب القبول. الثاني : لو قال دين الرب لكان يشعر بذلك بأن هذا الدين إنما يجب عليه قبوله لأن ربك وأحسن إليك، وحينئذ تكون طاعتك له معللة بطلب النفع فلا يكون الإخلاص حاصلاً"^(٢)

ومن إطلاقات الدين على الإسلام بالمعنى الخاص قوله تعالى ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظَهِّرَهُ عَلَى الَّذِينَ كُلُّمُهُ وَلَقَ كَرَهَ الْمُشْرِكُونَ﴾^(٣)

وقوله تعالى ﴿قَتَلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحِرِّمُونَ مَا حَرَمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدْيِنُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْعِزْيَةَ عَنْ يَدِهِمْ صَفَرُونَ﴾^(٤)

فالمراد بالدين في جميع هذه الآيات هو نظام الحياة الكامل الشامل لنواحيها المختلفة من ناحية الاعتقاد والتشريع والسلوك^(٥) لأن الدين عند المسلمين معنى جامع لكل تصرف يتصرفه المرء المسلم في حياته منذ أن يستيقظ من نومه إلى أن يذهب إلى فراشه ، وفي كل عمل يعمله مهما اختلفت هذه الأعمال من أحقرها إلى أدنىها إلى أشرفها وأعلاها كل ذلك دين هو مسئول عنه يوم القيمة وعلى هذا المعنى يحمل قول الله تعالى على لسان رسول الله ﷺ ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(٦)

(١) سورة آل عمران الآية ١٠٣

(٢) تفسير الرازى ج ٣٢ ص ١٥٧

(٣) سورة التوبه الآية ٣٣

(٤) سورة التوبه الآية ٢٩

(٥) انظر المصطلحات الأربعية ص ٨٥ - ٨٦ - ٨٧

(٦) سورة الأنعام الآية ٦٣ وانظر في مفهوم الدين كتاب أباظيل وأسماء ص ٢٣٢ - ٢٢٤ للأستاذ محمود

شاكر - طبعة المدنى الطبعة الثانية.

المسألة الثالثة كلمة الدين واطلاقاتها في السنة النبوية

وردت كلمة الدين في السنة النبوية الشريفة بمعانٍ عدّة^(١) لا تخرج عما ورد في القرآن من إطلاقاتات بمعنى العام والخاص.

١- وردت كلمة الدين بمعنى التوحيد

روى البخاري بسنده عن ابن عمر أن زيد بن عمرو بن نفیل خرج إلى الشام يسأل عن الدين ويتبعه. فلقي عالماً من اليهود فسألته عن دينهم فقال : إنّى لعلى أدين دينكم فأخبرني فقال : لا تكون على ديننا حتى تأخذ نصيبيك من غضب الله. قال زيد : ما أفر إلا من غضب الله، ولا أحمل من غضب الله شيئاً أبداً وإنّى أستطيعه؟ فهل تدلني على غيره؟ قال : ما أعلمه إلا أن يكون حنيفاً. قال زيد : وما الحنيف؟ قال دين إبراهيم لم يكن يهودياً ولا نصراوياً، ولا يعبد إلا الله^(٢) وهذا النص جزء من حديث طويل.

والشاهد في هذا الحديث قوله "يسأل عن الدين" أي عن التوحيد^(٣).

وفيه أيضاً إطلاق لفظ الدين على ما عليه اليهود من اعتقاد وعبادة باطلة - كما أخبر اليهودي زيد.

أما ما ورد في الحديث من قوله "وما الحنيف؟

قال : دين إبراهيم . فيقصد به الدين الحق بدليل قوله "ولم يكن يهودياً ولا نصراوياً ولا يعبد إلا الله" ورد أن زيد بن عمرو كان يفتخّر على أهل مكة قائلاً : ما بقى أحدكم على دين إبراهيم إلا أنا^(٤)

٢- بمعنى الحساب والجزاء

من إطلاقات الدين في السنة إطلاق اللفظ على الجزاء سواء في الخير أو في الشر، وكذلك إطلاق اللفظ على الحساب - وهي معانٍ لا تخرج عما ورد في القرآن الكريم كما أسلفنا ولا عما ورد في لسان العرب . وقد ذكر البخاري رحمة الله تحت

(١) انظر المجمع المفهرس لألفاظ الحديث ج ٢ ص ١٦٣

(٢) البخاري كتاب مناقب الأنصار باب حديث زيد بن عمرو بن نفیل ج ٢ ص ١٤٢

(٣) فتح الباري ج ٧ ص ١٤٤

(٤) نفسه ص ١٤٥

باب ما جاء في فاتحة الكتاب ما نصه : " الدين الجزاء في الخير والشر كما تدين تدان ، وقال مجاهد : الدين الحساب ^(١)

وقد أورد ابن حجر في شرحه لقول البخاري ما يفيد أن ما ذكره البخاري من معنى للدين هو " كلام أبي عبيدة أيضاً قال الدين الحساب والجزاء يقال في المثل كما تدين تدان ^(٢) ثم تتبع ابن حجر ما أورده البخاري في قوله كما تدين تدان " بأن ذلك ورد في حديث مرفوع أخرجه عبد الرزاق عن معاذ عن أيوب عن أبي قلابة عن النبي ، وهو بهذا مرسل رجاله ثقات ، وما رواه عبد الرزاق بهذا الإسناد أيضاً عن أبي قلابة عن أبي الدرداء مرفوعاً وأبو قلابة لم يدرك أبو الدرداء ، وله شاهد موصول من حديث ابن عمر أخرجه ابن عدي وضعيته ^(٣) وبعد أن يؤصل ابن حجر الحديث ويورد طرقه - يقول " وللدين معان أخرى : منها العادة ، والعمل ، والحكم ، والحال ، والخلق ، والطاعة والقهر والملة ، والشريعة ، والورع ، والسياسة وشواهد أخرى ^(٤)

٣- بمعنى الدين الباطل الذي عليه أهل الشرك

روى البخاري في صحيحه وأبو داود في سنته عن عائشة رضي الله عنها قالت " كانت قريش ومن دان دينها يقفون بالمزدلفة ، وكانوا يسمون بالحمس وكان سائر العرب يقفون بعرفات فلما جاء الإسلام أمر الله نبيه أن يأتي عرفات ثم يقف بها يفيض منها فذلك قوله (ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ) ^(٥) من دان دينها أى تبعهم واتخذ دينهم ديناً ^(٦) والمقصود به دين أهل الشرك من مكة.

(١) البخاري بهامش فتح الباري ج ٨ ص ١٥٦ كتاب التفسير باب ما جاء في فاتحة الكتاب

(٢) فتح الباري ج ٨ ص ١٥٦ كتاب التفسير باب ما جاء في فاتحة الكتاب

(٣) نفسه

(٤) نفسه

(٥) صحيح البخاري بهامش فتح الباري ج ٨ ص ١٨٦ - ١٨٧ ، والآية ١٩٩ من سورة البقرة.

(٦) انظر أبو داود باب الوقوف بعرفة ج ٥ ص ٣٨٩ شرح الحافظ ابن قيم الجوزية الناشر المكتبة السلفية - ضبط وتحقيق عبد الرحمن محمد عثمان .

وفي رواية أخرى للبخاري عن عروة " والخمسُ قريشٌ وما ولدت " (١) والأخمس الشديد على دينه، وكانت قريش تسمى **الخمس**، وكان الشيطان قد استهواهم فقال لهم إن عظمتكم غير حرمكم استخف الناس بحرمكم فكانوا لا يخرجون من الحرم " (٢) "

أما قوله " والخمسُ قريشٌ وما ولدت " عن أبي عبيدة عمر بن المثنى قال : كانت قريش إذا خطب إليهم الغريب اشتربوا عليه أن ولدتها على دينهم فدخل في **الخمس** من غير قريش ثقيف، وليث وخراءة، وبنو عامر بن صعصعة يعني وغيرهم، وعرف بهذا أن المراد بهذه القبائل من كانت له من أمهاه قريشية لا جميع القبائل المذكورة (٣) المقصود هنا أن من دان بدين أهل مكة وهو الشرك والكفر بالله كان يفعل فعلهم . فجاء رسول الله ﷺ فخالفهم، وأمر المسلمين أن يفريضوا من حيث أفضى الناس . والمقصود به إبراهيم عليه السلام . فقد روى ابن أبي حاتم وغيره عن الضحاك أن المراد بالناس هنا إبراهيم عليه السلام وعنده المراد به الإمام وعن غيره أدم عليه السلام وحجة من ذهب إلى أن المقصود بالناس إبراهيم عليه السلام على اعتبار أن الحج من ميراث إبراهيم . ومحمد مأمور أن يتبع ملة إبراهيم حنيفاً ولكن ابن حجر رجح أن المقصود بالناس هنا العموم وهذا ما تستريح إليه النفس (٤)

٤- وتأتي كلمة الدين في السنة بمعنى الإسلام الذي جاء به محمد ﷺ

روى البخاري بسنده عن عروة بن الزبير أن عائشة رضى الله عنها زوج النبي قالت " لم أعقل أبوي قط إلا وهم يدينان الدين ولم يمر علينا يوم إلا يأتينا فيه رسول الله ﷺ طرف النهار بكرة وعشية " (٥) وهذا جزء من حديث طويل .

(١) البخاري بهامش فتح الباري ج ٣ ص ٦٠٢

(٢) نفسه ج ٣ ص ٦٠٣

(٣) نفسه ج ٣ ص ٦٠٤

(٤) نفسه

(٥) البخاري بهامش فتح الباري ج ٧ ص ٢٣٠ كتاب مناقب الأنصار بباب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة

يذكر ابن حجر أن قول عائشة "لم أعقل أبي" يعني أبا بكر وأم رومان قوله "يدينان الدين" بالنصب على نزع الخافض أي يدينان بدين الإسلام^(١)

والشاهد هنا أن الدين في حديث عائشة استخدم بمعنى الإسلام الذي جاء به محمد ﷺ . وفيه أن أبا بكر وأم رومان من السابقين في الإسلام بدلالة هذا الحديث وأن عائشة منذ أن وعيت وأبواها على الإسلام ، وقد وردت روايات متعددة تفيد أن أبا بكر أول من أسلم من الرجال.

(١) نفسه ج ٧ ص ٢٣٢

المبحث الثالث

دحض دعوى نجاة غير المسلم بعد ظهور الإسلام وبلغه دعوته ودفع توهם نجاة أحد من أتباع الأديان بعد مجيء الرسول ﷺ بالإسلام.

نقف هنا وقفه مع بعض الذين يتوهمون أن النجاة من النار يمكن أن تتحقق لأحد من أتباع الأديان كاليهودية والنصرانية والمجوسية وغيرها بعد بعثة محمد ﷺ . وأكثر ما يكون الخلط عند استعمال بعض الآيات الواردة في القرآن على عمومها . مع أن المقصود منها التقييد بدين الإسلام الذي جاء به محمد ﷺ .

يقول "المراigli" في تفسير قول الله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ اللَّهِ إِلَّا سَلَمُ﴾ أي أن جميع الملل والشائعات التي جاء بها الأنبياء روحها الإسلام والانقياد والخضوع وإن اختلفت في بعض التكاليف وصور الأعمال وبه كان الأنبياء يُوصَفُونَ فالMuslim الحقيقي من كان خالصاً من شوائب الشرك مخلصاً في أعماله مع الإيمان من أي ملة كان وفي أي زمان وجُدُّ، وهذا هو المراد بقوله عز وجل ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ إِلَّا سَلَمٍ دِيَنًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾^(١)

ونرى أن هذا الإطلاق يجب أن يقيد لأن القول بأن المسلم من كان مخلصاً في أعماله مع الإيمان من أي ملة كان وفي أي زمان وجُدُّ فيه نوع من الإيهام وكان يجب أن يقيد هذا بن كأن شأنه قبل بعثة محمد ﷺ . أما بعثة محمد ﷺ . فلا يقبل من أحد صرفاً ولا عدلاً إلا إذا آمن بمحمد ﷺ وخلص من معتقداته السابقة . وبناءً على ذلك فلا إسلام بعد بعثة النبي إلا الإسلام بمعناه الخاص الذي ختم الله به الرسالات ، ويتبين ذلك جلياً في دعوة النبي لليهود أن يسلموا . فقالوا أسلمنا قبلك . وهم يقصدون الإسلام العام . فدعاهم النبي ﷺ إلى أداء فريضة الحج أحد أركان

(١) سورة آل عمران الآية ٨٥ وانظر تفسير المراigli ج ٣ ص ١١٩

الإسلام بمعناه الخاص . فأبوا فأنزل الله ﷺ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجْرُ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿١﴾

ونفس الأمر حدث مع النصارى الذين حضروا من نجران ودار بينهم وبين النبي ﷺ حوارٌ وما وجدتهم النبي من عشاق الجدل وعُباد الحوار عرض عليهم الإسلام . أخرج ابن سعد في الطبقات عن الأزرق بن قيس قال : قدم على النبي ﷺ أسقف نجران والعقاب فعرض عليهما الإسلام فقالا : إن كنا مسلمين قبلك قال كذبتما ، وأنه منع منكمما الإسلام ثلث قولكم : اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ، وَأَكَلَكُمَا لَحْمَ الْخَنْزِيرِ ، وَسَجَدُوكُمَا لِلصُّنْمِ ﴿٢﴾

ولذلك تكون عبارة الشيخ المراغى عن المسلم الحقيقي " من كان حالصاً من شوائب الشرك مخلصاً في أعماله مع الإيمان من أى ملة كان ، وفي أى زمان وجُد وهذا هو المراد بقوله ﷺ وَمَنْ يَتَنَعَّمْ بِغَيْرِ إِلَّا سَلَمَ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ ﴿٣﴾ عبارة مطلقة في موضع يجب فيه التقييد بنـ كان قبل بعثة النبي ﷺ أما بعد بعثة محمد فإن المسلم الحقيقي هو من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وأخلص وجهه لله وعمل بمحاجتها .

وقد التفت إلى هذا المعنى الدكتور عبد الحليم محمود " في لفترة رائعة منه لتحديد من هو المسلم الحقيقي يقول " والإسلام هو الدين في إطلاقه المطلق وفي تحديده المحدد فمما لا شك فيه أنه لا دين خارج إسلام الوجه لله ، وأن الدين في معناه الصحيح إنما هو إسلام الوجه لله ، ومن هنا كان لفظ الإسلام أصدق تعبير عن الدين وكانت القضية ﷺ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ اللَّهِ أَلْيَا سَلَمُ ﴿٤﴾ قضية لا شك فيها وكانت القضية المترتبة على هذه ﷺ وَمَنْ يَتَنَعَّمْ بِغَيْرِ إِلَّا سَلَمَ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ

(١) سورة آل عمران الآية ٩٧ وانظر تفسير الطبرى المجلد الثالث ص ٢٤٢ ولباب المنقول في أسباب النزول للسيوطى ص ٨٣ بهامش المصحف

(٢) نفسه ص ٧٨ - ٧٩

(٣) سورة آل عمران الآية ٨٥

(٤) سورة آل عمران الآية ١٩

من **الخسيرين**^(١) قضية هي الأخرى لا شك فيها إن كل من يرفض إسلام الوجه لله إنما يرفض الدين، وبمقدار بُعد الإنسان أو قريه من إسلام الوجه لله يكون قريه أو بعده من المعنى الصادق للدين، وإسلام الوجه لله هو التوحيد وإذا كانت سمة النصرانية في وضعها الراهن هي التشليث فإن سمة الإسلام هي التوحيد. إنها توحيد الله بالربوبية. بالخلق والإيجاد وبالإعطاء والمنع ^(٢)

فلا يستقيم إسلام إنسان مع قوله عيسى ابن الله ولا قوله عزير ابن الله وهذه قيود توضع على كلمة الإسلام بالمعنى العام، وأيضاً بالمعنى الخاص فما جاء موسى ولا عيسى ولا محمد ﷺ بغير توحيد الله

إننا ننطلق من قوله تعالى ﴿ وَمَن يَتَنَعَّمْ عَيْرَ الْإِسْلَمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِيرِينَ ﴾^(٣) فـي حكمنا عـلـى كل نصرانـي أو يهودـي أو بوذـي أو هندوسي سـمع بـالـإـسـلامـ وـبـلـغـتـهـ دـعـوـتـهـ ثـمـ لـمـ يـؤـمـنـ وـيـصـدـقـ بـمـحـمـدـ ﷺـ فـهـوـ كـافـرـ وـمـشـرـكـ وـإـنـ مـاتـ عـلـىـ ذـلـكـ فـهـوـ مـخـلـدـ فـيـ النـارـ أـبـدـ الـأـبـدـيـنـ .

يقول ﷺ : "والذى نفسى بيده ما من يهودى ولا نصرانى يسمع بالذى جئت به ثم لا يؤمن إلا كان من أصحاب النار" ^(٤)

ولابد من الإشارة إلى بعض الآيات القرآنية التي يحاول البعض أن يفهم منها خطأ أن اليهود والنصارى ، والصابئين إذا آمنوا بالله واليوم الآخر فهم ناجون في الآخرة ويستشهدون بقول الله تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَرَى وَالصَّدَّيِّينَ مَنْ ءامَنَ بِاللَّهِ وَأَلَّيْوْمَ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَلِيْحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا حَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ تَحْزَنُونَ ﴾^(٥) وأكثر ما نسمع الكلام حول هذه الآية حين يكون الحديث عن العلاقة بين المسلمين وغيرهم من أرباب الديانات الكتابية .

(١) سورة آل عمران الآية ٨٥

(٢) الإسلام والإيمان ص ٥٧ - ٥٨ - ٥٩ - للإمام الأكبر الدكتور عبد الحليم محمود الطبعة الثانية دار الكتب الحديثة

٨٥) سورة آل عمران الآية (٣)

(٤) انظر شرح الطحاوى ص ١٧٠ والحاديٰ أخرجه مسلم تحت رقم ١٥٣ انظر هامش الطحاوى ص ١٧٠.

(٥) سورة البقرة الآية ٦٢.

فيحاول البعض أن يضيع الحدود الفاصلة بين الحق والباطل وبين الصحيح وال fasid من الأديان بعد تحريفها وتبدلها .^(١) فيؤولون هذه الآيات ويخرجون معانيها عمما تعارف عليه جمهور العلماء من المفسرين وغيرهم من علماء الإسلام .

يذكر الرازي في تفسيره لهذه الآية أن المراد الذين آمنوا قبل مبعث محمد صلى الله عليه وسلم بيعيسي عليه السلام مع البراءة من أباطيل اليهود والنصارى مثل قس بن ساعدة وبخيري الراهب وزيد بن عمرو بن نفيل ، وورقة بن نوفل وسلمان الفارسي ، ووفد النجاشي فكانه قال : إن الذين آمنوا قبل مبعث محمد والذين كانوا على الدين الباطل الذي لليهود والذين كانوا على الدين الباطل الذي للنصارى كل من آمن منهم بعد مبعث محمد صلى الله عليه وسلم وبإلهه وبال يوم الآخر وبمحمد فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون^(٢) .

ونلاحظ أن الإمام " الرازي " فهم من الآية أن من آمن من هؤلاء بالله واليوم الآخر ثم من آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم فله أجره عند ربه ولا خوف عليه ولا حزن .

وإذا كنا قد أخذنا نموذجاً لتفسير الآية من أحد القدماء وهو الإمام الرازي فإننا سنعرض رأي أحد المحدثين في تفسيره للآية :

يقول الأستاذ سيد قطب " الذين آمنوا يعني بهم المسلمين والذين هادوا من اليهود ، والنصارى هم أتباع عيسى عليه السلام ، والصابئون الأرجح أنهم تلك الطائفة من مشركي العرب (قبل البعثة) الذين ساورهم الشك فيما كان عليه قومهم من عبادة الأصنام فبحثوا لأنفسهم عن عقيدة يرضونها فاهتدوا إلى التوحيد وقالوا إنهم يتبعون على الخنفية الأولى ملة إبراهيم واعتزلوا عبادة قومهم دون أن يكون لهم دعوة فيهم فقال عنهم المشركون إنهم صباؤا أي مالوا عن دين آبائهم كما كانوا يقولون عن المسلمين بعد ذلك . والآية تقرر أن من آمن بالله واليوم الآخر من هؤلاء جميعاً وعمل صالحاً فإن لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم

(١) انظر التفسير الكبير للرازي المجلد الثاني ج ٣ ص ١١٢

(٢) ظلال القرآن ج ١ ص ٧٥

يحزنون فالعبرة بحقيقة العقيدة لا بعصبية جنس أو قوم وذلك طبعاً قبلبعثة الحمدية أما بعدها فالآية تحدد شكل الإيمان الأخير فلا نجاة لأحد إلا بدخوله في دين محمد صلى الله عليه وسلم وهو الإسلام^(١) والإسلام هنا بمعناه الخاص يقول تعالى (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً) ^(٢) رقم الآية خطأ

والذي دعانا أن نعرض الآية وتفسيرها عند أحد القدامى وأحد المحدثين لنبين أنه ما كان يخطر على بال أحد أن النجاة في الآخرة من الممكن أن تتم لأحد دون الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم ولكن البعض من الكتاب - هداهم الله - يحاول أن يضيع الحدود الفاصلة بين المسلمين من أتباع محمد، وبين غيرهم من أتباع الأديان الأخرى فيقول "إن المسلمين في لغة القرآن هم المؤمنون بالله الواحد، وليسوا أتباع دين خاص" ^(٣)

وآخر في حديث له في التلفاز بمناسبة الإسراء والمعراج يعتبر أن ما جاء في حديث الإسراء والمعراج من قوله ﷺ عن لقائه بالأنبياء وأخوته لكل منهم "أخي موسى أخي عيسى" يعتبر هذا إعلان بالأخوة بين الإسلام والمسيحية^(٤) وهذا نوع من الخلط والتمويه فمحمد ﷺ وعيسى دينهم واحد ولكن شتان بين أتباع عيسى بعد بعثة محمد ﷺ وأتباع محمد، ولا يمكن أن نقول إنه يجمعهم الإسلام على اعتبار أن المسلمين في لغة القرآن ليسوا أتباع دين خاص - كما يقول البعض - إنه وكما يقول البيروني "إن الشهادة بكلمة الإخلاص (لا إله إلا الله) شعار المسلمين، والتثليث علامة النصرانية، والإسبات (أى اتخاذ يوم السبت يوماً مقدساً) علامة اليهود" ^(٥) فـأى إسلام إذن مع التثليث ، وعند من نجد التوحيد بعد بعثة محمد ﷺ ؟ إن التوحيد بمعناه الصحيح ليس عند أحدٍ من الأمم إلا عند أتباع دين الإسلام بمعناه الخاص.

(١) ظلال القرآن ج ١ ص ٧٥

(٢) سورة النساء الآية ٦٥

(٣) انظر جريدة الأهرام القاهرة ١٧/٣/١٩٨٧

(٤) انظر مقدمة الدكتور بخيت هاشم لكتاب اليوم الآخر بين اليهودية والمسيحية والإسلام ص ١١

(٥) تحقيق ما للهند من مقوله ص ٣٩ لأبي الريحان البيروني - عالم الكتب ١٩٨٣

كما يحاول البعض أن يخلط - بين الإسلام بمعناه الخاص ومعناه العام - يقول أستاذنا الدكتور يحيى هاشم " إن بعض الباحثين الذين نكن لهم الاحترام عندما يكتبون في مجالات غير تخصصهم تنزلق بهم الأقدام في هذا المقام. إذ يخلط بعضهم بين كلمة الدين عندما يراد بها المعنى اللغوي العام الذي يشمل الصحيح وغيره، وكلمة الدين عندما يراد بها المعنى الخاص الذي لا ينطبق على غير الصحيح فيكون عندئذ خاصاً بالإسلام يخلط بين الاستعملين فيقتضي شواهد من المقام الأول يستعملها في خصائص من المقام الثاني وعندئذ يعلن تعددية الأديان في نظر الإسلام " ^(١))

ثم ينتهي فضيلته إلى وضع بعض القواعد الهامة في تحديد الدين بمعنى الإسلام " لا إسلام ولا دين مقبولاً عند الله بعد بعثة محمد ﷺ إلا بالإيمان به وباتباع كل ما جاء به ، والقرآن صريح وقاطع في وصف عقائد أهل الكتاب بأنها كفر وشرك وبأن مصير أصحابها إلى النار " ^(٢) وإن رفضنا لما عليه أتباع أهل الأديان الأخرى بعد التحرير والتبديل لا يعني رفضنا للتوراة ، والإنجيل الصحيحين إذ يعتقد المسلمون أن الله أنزل كتاباً على موسى اسمه التوراة وأنزل الإنجيل على عيسى ولكن أين هما؟ إن القرآن يعلن ويتحدى اليهود وكذا النصارى **﴿فَلَنْ فَأَنْتُمْ بِالْقَوْزَنَةِ فَأَنْتُمْ هَا إِنْ كُنْتُمْ صَدِيقِنَ﴾** ^(٣) ومن ثم يجب أن توضع الأمور العقدية في وضعها الصحيح فلا نحرف ديننا ولا نأتي على عقیدتنا لحساب أى طرف وتحت أى ظرف لأن أتباع الأديان الأخرى يحافظون على عقيدتهم ويتمسكون بها ، وإذا فعلنا فالخسارة ستتحقق بنا دنيا وأخرى. وسنكون على خطر عظيم إذا نحن ساومنا الغير على الحق الذي شرفنا الله به . ولذلك حسم الله قضية الدين بمعنى الإسلام الذي جاء به محمد ﷺ واعتبر أن أتباعه هم وحدهم أصحاب الحق والهدى ، وأن غيرهم على ضلال وشقاق . يقول تعالى **﴿وَقَالُوا كُوَثُرًا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةٌ إِنْ تَرَهِمْ**

(١) مقدمة كتاب اليوم الآخر ص ١٢

(٢) نفسه ص ١٣ ، ١٤

(٣) سورة آل عمران الآية ٩٣

حَيْنَفَا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ قُولُوا إِمَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزَلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزَلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ الْنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُمُ الْمُسْلِمُونَ ﴿٢﴾ فَإِنَّمَا آمَنُوا بِمِثْلِ مَا إِمَّا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ^(١)

يذكر البغوى أن الآية نزلت في رؤساء اليهود ^(٢) وفي نصارى أهل نجران وذلك أنهم خاصموا المسلمين في الدين كل فرقة تزعم أنها أحق بدين الله وأن دينها أفضل، وكفروا بمحمد ﷺ والقرآن، وقال كل واحد من الفريقين للمؤمنين كونوا على ديننا فلا دين إلا ذلك فقال تعالى (قل) يا محمد (بل ملة إبراهيم) بل تبع ملة إبراهيم حنيفا قال ابن عباس: الحنيف المائل عن الأديان كلها إلى دين الإسلام ثم علّم المؤمنين طريق الإيمان فقال جل ذكره (قولوا آمنا بالله) الآية - ثم قال سبحانه (فإإن آمنوا بمثل ما آمنت به فقد اهتدوا) أى أتو بإيمانكم كإيمانكم وتوحيدكم ^(٣) فقد اهتدوا يقول سيد قطب "رحمه الله" قوله (فإإن آمنوا بمثل ما آمنت به فقد اهتدوا) هذه الآية تسكب في قلب المؤمن الاعتزاز بما هو عليه ، ومن لا يؤمن بما يؤمن به فهو المشاق للحق المعادى للهوى ، وأما المؤمن فإن الله هو وليه وهو الذي يدافع عنه ^(٤) هذا هو المعنى الصحيح الذي يجب أن يعتقد في المسلم ويعتنقه من ناحية المفاضلة بين الدين الحق المتمثل في الإسلام وبين غيره من الأديان.

وتبقى هنا وقفة هامة مفادها أن المفاضلة في أمور العقيدة بين المسلم وبين غيره شيء ومعاملة المسلم مع غيره من أتباع الأديان الأخرى في المجتمع شيء آخر. وكما يقول أستاذنا الدكتور يحيى هاشم "إن الاستقرار والتعايش وتجنب الفتنة لا يكون قط بمحاولات طمس الحدود ما بين العقيدتين فهذا لا يرضى أياً من الطائفتين لأنه يتعدى عليهما معاً.

(١) سورة البقرة الآية ١٢٥ - ١٣٦

(٢) انظر لباب المنشول في أسباب النزول للسيوطى بهامش المصحف ص ٣٠

(٣) انظر تفسير البغوى ج ١ ص ٤٧

(٤) في ظلال القرآن ج ١ ص ١١٢ بتصرف يسر

إن الطريق إلى تجنب الفتنة الطائفية كان دائمًا وسيكون بضمان من شريعة الله التي تعطى أهل الكتاب حقوقهم الاجتماعية كاملة "لهم ما لنا وعليهم ما علينا" ^(١) أي أن المسلم يجب عليه أن يتبع هدى الله وهدى رسول الله ﷺ في معاملة أهل الكتاب ما لم يبدأوا بعدها أو يظاهروا على المسلمين. وهم إن لم يفعلوا فلهم عهد الله وعهد رسوله ﷺ ^(٢) وكفى بهمما أمناً وسلاماً واستقراراً. وهذه الأمور هي فحوى المعاهدات التي تمت بين المسلمين وبين أهل الكتاب من اليهود والنصارى ^(٣) الذين خُتم العهد بينهم وبين رسول الله ﷺ.

بقوله " وإن الله على أصدق ما في هذه الصحيفة وأبره وأنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم وآثم ، وأنه من خرج آمن ، ومن قعد آمن بالمدينة إلا من ظلم وأثم وإن الله جار لمن بر واتقى و محمد رسول الله ﷺ " ^(٤)

وكذلك ختمت معاهدة نصارى نجران بقوله ﷺ " وعلى ما في هذه الصحيفة بجوار الله وذمة محمد رسول الله حتى يأتي الله بأمره ما نصحوا وأصلحوا فيما عليهم غير مبتلين بظلم " ^(٥)

وعلى هذا الأساس سارت معاهدات الخلفاء الراشدين ، ومن جاءوا بعدهم من خلفاء الدولة الإسلامية :

وكان مصر مثلاً يحتذى به في الأمان والأمان لأهل الكتاب الأمر الذي جعلهم يدخلون في الإسلام طواعية . بعد أن قارنوا بين المسلمين - وبين غيرهم من الرومان على الرغم من أنهم كانوا على دين واحد. يذكر "السير توماس أرنولد" أن الفتح الإسلامي جلب إلى القبط حياة تقوم على الحرية الدينية التي لم ينعموا بها قبل ذلك ، وقد تركهم عمرو بن العاص أحراراً ، وكفل لهم الحرية في إقامة شعائرهم الدينية ، وخلصهم بذلك من هذا التدخل المستمر الذي أثروا من عبئه الثقيل في ظل

(١) انظر مقدمة فضيلته لكتابنا اليوم الآخر بين اليهودية والمسيحية والإسلام ص ١٢

(٢) انظر النماذج الرائعة لمعاملة المسلمين لأهل الكتاب خاصة النصارى في كتاب الدعوة إلى الإسلام للسير توماس أرنولد ص ٩٤ - ١٢٢

(٣) انظر نص معاهدة النبي ﷺ لليهود المدينة في سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٨٨، ٨٩، ٩٠ و ٩١

(٤) نفسه ج ٢ ص ٩١

(٥) مختصر سيرة الرسول ﷺ ص ٤٢٧

الحكم الروماني، ولم يضع عمرو يده على شيء من ممتلكات الكنائس، ولم يرتكب عملاً من أعمال السلب والنهب، وليس هناك شاهد من الشواهد يدل على أن ارتدادهم عن دينهم القديم ودخولهم في الإسلام على نطاق واسع كان راجعاً إلى اضطهاد أو ضغط يقوم على عدم التسامح من جانب حُكّامهم الجدد^(١) ويدوّي أن هذا التسامح لم يكن فترة محدودة وإنما كان على طول امتداد الحكم الإسلامي والمراجع في هذا فضلاً عن كتب التاريخ الإسلامي تاريخ الكنيسة يقول توماس أرنولد "ولقد أمدنا تاريخ كنيستهم بكثير من الأمثلة عن رجال الكنيسة الذين تمعوا بعطف الأمراء الذين حكموا بلادهم، ونعم القبط في عهدهم بأقصى درجات الطمأنينة، وذلك أدى إلى اندماج كثير من المسيحيين في جماعة المؤمنين"^(٢) وهذا الذي ينبغي أن يكون دوماً في علاقة المسلمين بأهل الكتاب لهم ذمة الله ورسوله. لأن الفتنة تأتي بخسارة لا يعلم مداها إلا الله. ولن يستفيد منها أحد إلا الذين يحرصون على بث الفرقة بين أبناء الوطن الواحد. وقد تنبه عقلاً أهل الكتاب لهذا. فجاءت تصريحاتهم المعلنة لتصب في مصلحة الجماعة يقول الأنبا شنودة "إن الأقباط في ظل حكم الشريعة يكونون أسعد حالاً وأكثر أمناً، ولقد كانوا كذلك في الماضي حينما كان حكم الشريعة هو السائد نحن نتوق إلى أن نعيش في ظل "لهم ما لنا وعليهم ما علينا"^(٣)

والأنبا "يوحنا قته" وهو كاثوليكي مصرى يقول "أوافق على أن أكون مصرياً مسيحياً تحت حضارة إسلامية بل أنا مسلم ثقافة مائة في المائة. أنا عضو في الحضارة الإسلامية كما تعلمتها في الجامعة المصرية تلك الحضارة التي تُعلى من قيمة الإنسان ك الخليفة عن الله في الأرض، وإنه ليشرفني وأفتخر أنني مسيحي عربى أعيش في حضارة إسلامية ، وفي بلد إسلامى ، وأساهم وأبني مع جميع المواطنين هذه الحضارة الرائعة"^(٤) وهذه النظرة التي لا تخلط بين الأمور هي التي تمنى أن تسود، ونسأل الله لأمتنا وأوطاننا أن يجنبها شرور الفتنة ما ظهر منها وما بطن، وأن يهدي المسلمين أمر رشد حتى يعزوا ما أعز الله ، ويدلوا ما أذل الله ورسوله.

(١) سورة آل عمران الآية ٩٣

(٢) انظر الدعوة إلى الإسلام ص ١٢٨ و انظر مقدمة الدكتور بخيي هاشم لكتاب اليوم الآخر ص ١٢ - ١٣

(٣) الإسلام والسياسة د/ محمد عماره ص ٢٠٤ نقلًا عن صحيفة الأهرام ٦/٣/١٩٨٥

(٤) نفسه ص ٢٠٥

المبحث الرابع

الملة في اللغة والاصطلاح

من المصطلحات الشائعة في دراسة الأديان الملة - فلزم أن نتحقق معناها اللغوي والشرعى - وإطلاقاتها في القرآن والسنة حتى يتبيّن لنا مدى توافقها مع معنى الدين من الناحيتين اللغوية والشرعية.

أولاً: الملة في اللغة

ورد في لسان العرب لابن منظور أن الملة تطلق على الشريعة والدين ، وفي الحديث لا يتواتر أهل ملتين ، وتطلق الملة على الدين حقاً كان أو باطلأ كملة الإسلام كدين حق ، وملة النصرانية واليهودية كدينين باطلين^(١) وتطلق الملة على الشرك أيضاً.

وتطلق الملة على الطريقة . ثم نقلت إلى الشرائع من حيث أن الأنبياء يعلمونها ويسلكونها^(٢) وتطلق الملة على الطريقة المسلوكة والسنة ، ويرى بعضهم أن ذلك من إملال الكتاب لأن السنة تُمَلَّ ، وتكتب ليعمل بها ويرى آخرون أن ذلك من قولهم طريق مل مل مسلوك مُعدَّة للسير ، والملة تُوطأ للناس ليسيروا عليها^(٣) .

ثانياً: الملة في الاصطلاح الشرعي

تطلق الملة في الشرع على ما شرعه الله تعالى لعباده على لسان الأنبياء ليتوصل بها إلى جوار الله^(٤) ومن ثم فهى تطلق على الدين من هذا الوجه يقول تعالى ﴿وَمَن

(١) لسان العرب ج ٦ ص ٤٢٧١ وانظر مختار الصحاح ص ٥٦٤

(٢) الكليات لأبي البقاء ج ٢ ص ٣٢٨ و ٣٢٩

(٣) معجم ألفاظ القرآن الكريم المجلد الثاني من الشين إلى الياء - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٠ م مجمع اللغة العربية

(٤) المفردات للراغب الأصفهانى ص ٤٩٢

يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفَهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ أَضْطَفَيْتَهُ فِي الْدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمَّا نَعَى الْأَصْلَاحِينَ »^(١) وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى « وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْنَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ »^(٢) إِنَّ اللَّهَ أَطْلَقَهَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ عَلَى الْإِسْلَامِ الْخَالِصِ الْصَّرِيعِ الَّذِي لَا يَرْغُبُ عَنْهَا وَيَنْصَرِفُ إِلَّا ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُسْتَهْرِبًا، إِنَّ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى كَانُوا يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ عَلَى مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ - وَلَكِنَّ اللَّهَ يَدْلِلُهُمْ عَلَى حَقِيقَةِ دِينِ إِبْرَاهِيمَ وَأَنَّهُ الْمَلِلُ عَنِ الشَّرِكِ - وَيَؤْكِدُ هَذِهِ الْحَقِيقَةَ مَرَّتَيْنِ: مَرَّةً بِأَنَّهُ كَانَ حَنِيفًا وَمَرَّةً بِأَنَّهُ مَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَمَا بِالْهُمْ هُمْ الْمُشْرِكُونَ^(٣)

وَيَقُولُ عَزْ وَجْلُهُ « وَجَهَدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جَهَادِهِ هُوَ أَجْتَبَنَّكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الَّذِينَ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةُ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّنَكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلِهِ »^(٤)
وَالْمَعْنَى أَتَبَعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ لِأَنَّهَا دَاخِلَةٌ فِي مِلَّةِ مُحَمَّدٍ^{صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ} فَإِنْ قِيلَ فَمَا وَجَهَ قَوْلُهُ (مِلَّةُ أَبِيكُمْ) وَلَيْسَ كُلُّ الْمُسْلِمِينَ يَرْجِعُ نِسْبَتَهُمْ إِلَى إِبْرَاهِيمَ؟ قِيلَ خَاطِبُ بِهِ الْعَرَبُ وَهُمْ كَانُوا مِنْ نَسْلِ إِبْرَاهِيمَ، وَقِيلَ خَاطِبُ بِهِ جَمِيعَ الْمُسْلِمِينَ وَإِبْرَاهِيمُ أَبُ لَهُمْ عَلَى مَعْنَى وَجُوبِ احْتِرَامِهِ وَحَفْظِ حَقِّهِ كَمَا يَجِبُ احْتِرَامُ الْأَبِ^(٥)

وَهَذِهِ الإِطْلَاقَاتُ جَمِيعُهَا تُشَعِّرُ بِأَنَّهُ لَيْسَ ثَلَاثَةَ فِرَقٍ بَيْنَ الدِّينِ الصَّحِيفِ وَبَيْنَ الْمِلَّةِ فِي إِطْلَاقِ الشَّرِعِ يَقُولُ أَسْتَاذُنَا الدَّكْتُورُ عَوْضُ اللَّهِ حِجازِي "لَقَدْ ظَهَرَ لِي بَعْدَ الْبَحْثِ الدِّقِيقِ وَاتَّضَحَ لَنَا بَعْدَ الْمَرْاجِعَةِ الْوَاسِعَةِ أَنَّهُ لَيْسَ هُنَاكَ فِرَقٌ وَاضْطَرَابٌ بَيْنَ الدِّينِ وَالْمِلَّةِ شُرُعًا لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ أَطْلَقَ الْمِلَّةَ عَلَى الدِّينِ الْحَقِّ فِي كَثِيرٍ مِنْ آيَاتِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ"^(٦) وَقَدْ اسْتَعْرَضَنَا آيَاتُ الْقُرْآنِ الَّتِي تَبَيَّنَ أَنَّ الْمِلَّةَ تَرَدُّ بِمَعْنَى الدِّينِ الْحَقِّ.

وَإِذَا كَانَ هُنَاكَ مِنْ فِرَقٍ بَيْنَ الدِّينِ الْحَقِّ وَالْمِلَّةِ. فَذَلِكَ الْفِرَقُ لِغَوِّ لَا شَرِعِي.

(١) سورة البقرة الآية ١٣٠

(٢) سورة البقرة الآية ١٣٥

(٣) انظر في ظلال القرآن ج ١ ص ١١٠ - ١٠٩ وانظر ص ٤٢٨

(٤) سورة الحج الآية ٧٨

(٥) مختصر تفسير البغوي ج ٢ ص ٦١٩

(٦) مقارنة الأديان بين اليهودية والإسلام ٩، ١٠

يذكر أبو هلال العسكري في كتابه "الفرق بين الدين والملة" أن الملة اسم لجملة الشريعة، والدين اسم لما عليه كل واحد من أهلها ألا ترى أنه يقال فلان حسن الدين، ولا يقال حسن الملة وإنما يقال هو من أهل الملة ويقول ديني دين الملائكة ، ولا يقول ملتي ملة الملائكة لأن الملة اسم للشريعة مع الإقرار بالله ، والدين ما يذهب إليه الإنسان ويعتقد أنه يقرب إلى الله وإن لم يكن فيه شرائع مثل دين أهل الشرك ، فاليهودية ملة لأن فيها شرائع ، وليس الشرك ملة ، وقد يسمى كل واحد من الدين والملة باسم الآخر في بعض الموضع لتقارب معانيهما^(١) وهذا التوضيح من أبي هلال يضبط مصطلح الملة وإطلاقاتها. حتى يكون المرء على بينة من كلامه خاصة فيما يتعلق بمصطلحات الأديان .

ويضيف الشهرستاني بعدها آخر في التفريق بين الدين والملة إذ يقول : إن الإنسان لما كان محتاجاً إلى اجتماع مع الآخرين من بني جنسه في إقامة معاشة والاستعداد ليعاده ، وذلك الاجتماع يجب أن يكون على شكل يحصل به التمانع والتعارف حتى يحفظ بالتمانع ما هو أهله ، ويحصل بالتعاون ما ليس له فصورة الاجتماع على هذه الهيئة هي الملة "^(٢)" فقد نظر الشهرستاني إلى الاجتماع على هيئة أو مبدأ وأطلق عليه اسم الملة ولكنه يبين أن الملة وضعها لا تتصور إلا بوضع شارع "أى نبي" يكون مخصوصاً من الله بآيات تدل على صدقه "^(٣)" أى أن الملة التي يجتمع عليها لابد وأن تكون على الحق .

(١) الفرق في اللغة لأبي هلال العسكري ص ٢١٤

(٢) المل والتحل للشهرستاني ص ٣٨

(٣) نفسه ص ٣٨

إطلاق الملة في القرآن الكريم على الدين الباطل

يقول تعالى ﴿ وَلَن تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَبَعَ مِلَّتَهُم ﴾^(١) أورد السيوطي في لباب المنقول عن الثعلبي عن ابن عباس قال : إن يهود المدينة ونصارى نجران كانوا يرجون أن يصلى النبي ﷺ إلى قبلتهم. فلما صرف الله القبلة إلى الكعبة شق ذلك عليهم وأبوا أن يوافقهم على دينهم فأنزل الله (ولن ترضي عنك اليهود ولا النصارى) ، ونلاحظ هنا أن الملة الواردة في الآية يراد بها الدين الباطل بدليل قول الله عز وجل للنبي ﷺ في نفس الآية ﴿ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ أَهْدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا تَصِيرُ ﴾^(٢)

ومن ذلك أيضاً قول الله تعالى في سورة الأعراف (قال الملا الذين استكروا من قومه لخرجنك يا شعيب والذين معك من قريتنا أو لتعودن في ملتنا قال أولو كانا كارهين قد افترينا على الله كذباً إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا وسع ربنا كل شئ علما على ﴿ اللَّهُ تَوَكَّلَنَا رَبَّنَا أَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَتَّاحِينَ ﴾^(٣) فالملة هنا استعملت بمعنى الدين الباطل ومنه قوله تعالى ﴿ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْعِلْمَةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا أَخْتِلَقُ ﴾ والملة هنا يعني بها النصرانية كما ورد عن ابن عباس ومقاتل والكلبي أو المقصود بها ملة قريش ودينهم كما ورد عن مجاهد وقتادة^(٤)

(١) سورة البقرة الآية ١٢٠ وانظر لباب المنقول في أسباب النزول للسيوطى بهامش المصحف ص ٢٨

(٢) سورة البقرة الآية ١٢٠

(٣) سورة الأعراف الآية ٨٨ - ٨٩ -

(٤) سورة ص الآية ٧ وانظر نفسير البغوى ج ٢ ص ٧٩٧ والجلالين ص ١٣٧

إطلاقات الملة في السنة

نأتى هنا ببعض استخدامات الملة في السنة حتى نتبين المقصود بإطلاقاتها، ودلائلها عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال: رسول الله ﷺ لا يتوارث أهل ملتين ^(١) فقد ذهب الجمهور إلى أن المراد بالملتين الكفر والإسلام فيكون كحديث "لا يرث المسلم الكافر" ^(٢)

وهناك إطلاق آخر للملة في السنة بمعنى الدين الحق فقد وردت رواية لحديث "كل مولود يولد على الفطرة" أي على الملة بدلًا من الفطرة في قوله ﷺ "ما من مولود إلا ويولد على الملة بدلًا من الفطرة، والدين في قوله (فأقم وجهك للدين حنيفًا) هو عين الملة. كما يقول ابن حجر ^(٣)

وإطلاقات الملة في الأحاديث التي أوردناها لم تخرج عما ورد في القرآن أي أن الملة تأتي أحياناً بمعنى الدين الحق . وقد وردت في السنة بمعنى التوحيد في قول النبي ﷺ في أذكار الصباح " أصبحنا على فطرة الإسلام، وكلمة الإخلاص ، وعلى دين نبينا محمد، وملة أبينا إبراهيم حنيفًا مسلماً وما كان من المشركين" ^(٤) فملة إبراهيم الواردة في الحديث هي التوحيد، ودين محمد ﷺ ما جاء به من عند الله قوله ﷺ "ولا وعملاً واعتقاداً، وكلمة الإخلاص : هي شهادة أن لا إله إلا الله، وفطرة الإسلام : هي ما فطر عليه عباده من محبته وعبادته وحده لا شريك له والإسلام له عبودية وذلاً وانقياداً وإنابة وتأتي أحياناً بمعنى الدين الباطل ، وقد أوردنا شواهد على ذلك.

(١) رواه أحمد والأربعة إلا الترمذى وأورده صاحب سبل السلام ج ٤ ص ١٥١

(٢) نفسه ج ١ ص ١٥٢

(٣) فتح البارى ٢٩٣/٣

(٤) الحديث أخرجه أحمد ٤٠٦/٣ ، ٤٠٧ ، والدارمى ٢٩٢/٢ والنمساني في عمل اليوم والليلة وابن السنى من حديث عبد الرحمن بن أبي زبى وسنده صحيح انظر هامش الطحاوى ص ٥٤

البحث الخامس

النحلة في اللغة والاصطلاح

النحلة في اللغة

تطلق النحلة في اللغة على عدة معانٍ منها:
الدعوى تقول اتحل فلان شعر فلان أو قول فلان إذا أدعى أنه قائله وتحل
ادعاه وهو لغيره.

ونحله القول يتحله نحلاً نسبه إليه ونحلته القول أخله نحلاً إذا أضيف إليه قوله قاله
لغيره وادعيته عليه وفلان يتتحل مذهب كذا إذا انتسب إليه ، ودان به.
نحله شيئاً أعطاه من ماله وخصمه به^(١).

النحلة العطية ومنه قوله تعالى ﴿ وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدْقَتِهِنَّ بِنَحْلَةً ﴾^(٢) أى عطية
ومنحة خالصة

النحلة الديانة والمذهب ومنه كتاب الملل والنحل^(٣)
وقد وردت النحلة في السنة بمعنى العطية ورد في صحيح مسلم " إن ربى أمرني
أن أعلمكم ما جهلتكم مما علمتني يومي هذا كل ما نتحله عبداً حلال " معنى نتحله
أعطيته^(٤)

وهذه المعانى كلها تدور حول العطية والهبة والانتساب إلى الشئ وادعائه بالحق
أو بالباطل.

(١) انظر لسان العرب ج ٦ ص ٤٣٦٩ والقاموس المحيط ج ٤ ص ٣٣٨

(٢) سورة النساء الآية ٤.

(٣) محيط المحيط للبستاني ج ٢ ص ٢٠٤٩ وانظر الرائد ص ١٤٨٨ ، ومعجم متن اللغة ج ٥ الشيخ أحمد رضا

(٤) مسلم بشرح النووي ج ١٧ / ١٨ ص ١٩٧ باب الصفات التي يعرف بها فى الدنيا أهل الجنة وأهل

النحلة في الاصطلاح

تطلق على المذهب أو الديانة أو ما ينتمي إليها المرء من دين أو مذهب ^(١) أو هي: المذاهب المشتبهة عن كل دين بتعذر المجتهدين ^(٢) كما يقول التهانوي وقد استعمل ابن حزم النحلة بمعنى التمسك بالسنة يقول في كتابه الفصل "وثبت بذلك عند كل منصف من المخالفين صحة قولنا أن كل من خالف دين الإسلام، ونحلة السنة ومذاهب أصحاب الحديث فإنه عارف بضلال ما هم عليه ^(أى اليهود والنصارى) ^(٣)

ثم يقول "فمحمد الله كثيراً على ما هدانا له من الإسلام ونحلة السنة واتباع الآثار الثابتة" ^(٤)

وابن حزم بصنعيه هذا يُعد مخالفًا لإجماع العلماء على التغاير بين الملة والنحلة والمذهب . يقول أستاذنا الدكتور "عوض الله حجازي" معلقاً على نص ابن حزم "عطف ابن حزم السنة ومذاهب أصحاب الحديث على دين الإسلام وهو فيما يبدو من عطف المترادفات ذلك أنه ليست السنة مخالفة لدين الإسلام وليس مذهب أصحاب الحديث خارجاً عنه" ^(٥) وهذا التغاير عند ابن حزم رأى له لا ينقض ما اشتهر بين العلماء من التغاير بين الملة والنحلة والمذهب عموماً ^(٦)

وهذا التغاير هو ما نذهب إليه مع أستاذنا الدكتور "عوض الله حجازي" مخالفة لما ذهب إليه ابن حزم في فصله.

(١) مقارنة الأديان بين اليهودية والإسلام ص ١٠

(٢) كشاف اصطلاحات الفنون ج ٦ ص ١٣٣٩

(٣) الفصل في الملل والأهواء والنحل ج ١ ص ٩٤ مكتبة السلام العالمية

(٤) مقارنة الأديان بين اليهودية والإسلام ص ١٠

(٥) مقارنة الأديان ص ١١

(٦) نفسه

المبحث السادس

الدين في اصطلاح الغربيين

تعريف الدين عند الغربيين

تنوعت التعريفات المقترحة للدين عند علماء الغرب تبعاً للتوجهات الفكرية التي ينتمي إليها هؤلاء الباحثون فالبعض يعد الدين ظاهرة تنبع من الفرد ومن ثم صاغ التعريف على هذا الاعتبار.

والبعض الآخر عدَ الدين ظاهرة اجتماعية . ووضع له تعريفاً يخدم وجهة نظره وأخرون جردوا الدين عن المعانى الغبية . وألغوا فكرة الألوهية تماماً من تعريف الدين ، وسوف نعرض بعض هذه التعريفات ونحاول أن نستخلص تعريفاً يجمع بين التعريفات المختلفة.

كلمة " دين " باللغة العربية تقابلها كلمة " Religion " المقتسدة من اللغة اللاتينية التي يردها معظم الباحثون إلى مادة تفيد معنى الربط الشامل لربط الأفراد ببعض الأعمال من جهة التزامهم لها وفرضها عليهم ، ولربط الناس بعضهم ببعض ، ولربط البشر بالآلهة.

وكلمة " Religio " اللاتينية تدل في غالب استعمالها على معنى الشعور بحق الآلهة مع الخشية والإجلال.

أما كلمة " Religion " الحديثة فتطلق على معانٍ ثلاثة:

- ١- نظام اجتماعي لطائفة من الناس يؤلف بينهما إقامة شعائر موقوتة وتعبد ببعض الشعائر ، وإيمان بأمر هو الكمال الذاتي المطلق ، وإيمان باتصال الإنسان بقوة روحانية أسمى منه حالة في الكون أو متعددة أو هو الله الواحد.
- ٢- حالة خاصة بالشخص مؤلفة من عواطف وعقائد ومن أعمال عادية تتعلق بالله.

٣. احترام في خشوع لقانون أو عادة أو عاطفة وهذا المعنى أقدم معانى الدين^(١) تلك هي المعانى العامة لكلمة "Religion" - بمعنى الدين - ومن التعميم إلى التعريفات المحددة التي عرّف بها الباحثون في الغرب كلمة "الدين" ١ - يعرف "روبرت سبنسر" الدين بأنه "الإيمان بقوة لا يمكن تصور نهايتها الزمانية ولا المكانية^(٢) أو هو الإحساس الذي نشعر به حينما نغوص في بحر من الأسرار^(٣) ٢. أما ماكس ميلر فيعرف الدين بأنه محاولة تصور ما لا يمكن تصوره والتعبير عما لا يمكن التعبير عنه. هو التطلع إلى اللانهائي. هو حب الله^(٤) أو هو "إدراك اللانهائي أو "اللا محدود" في ظواهر خاصة بدرجة مؤثرة على الشخصية الأخلاقية للإنسان "^(٥) ٣. أما "هيجيل" فيعرف الدين بأنه "المعرفة التي تكتسبها النفس أو الروح المحدود بجواهرها كروح مطلقة"^(٦) ٤. يعرف "دور كايم" الدين بأنه مجموعة متساندة من الاعتقادات والأعمال المتعلقة بالأشياء المقدسة. اعتقادات وأعمال تضم أتباعها في وحدة معنوية تسمى الملة "^(٧) وهذا التعريف سيكون لنا معه وقفة أثناء التعليق على التعريفات التي وضعها الغربيون ٥. يقول "ساملون ريناك" الدين هو مجموعة التورعات التي تقف حاجزاً أمام الحرية المطلقة لتصرفاتنا "^(٨)

(١) انظر الدين والوحى والإسلام ص ١٩ - ٢٠ بتصريف وانظر في الدين المقارن ص ١٩ - ٢٠ للدكتور محمد كمال جعفر - دار الكتب الجامعية ١٩٧٠ م

(٢) الدين للدكتور دراز ص ٤٤

(٣) نشأة الدين ص ٣١ د / على النشار

(٤) الدين ص ٣٥

(٥) في الدين المقارن ص ٢٢

(٦) نفسه ص ٢٢

(٧) الدين للدكتور دراز ص ٣٦ ونشأة الدين ص ٢٨

(٨) الدين للدكتور دراز ص ٣٦

٦- الدين هو الأسلوب الأساسي الذي يطبع تصرفات الإنسان وتفكيره كما أنه أقوم سبيل لانطلاق الإنسان من إسار نفسه^(١)

والملاحظة التي نسجلها على هذه التعريفات هي:-

أولاً: أن بعض هذه التعريفات قد ضيق دائرة الدين تضييقاً شديداً بحيث لا يستطيع تصوره إلا فئة قليلة من البشر وهم كبار الفلاسفة والعلماء كما في تعريف "سبنسر" وتعريف "ماكس مولر" ثم إن هذه التعريفات فردية ولا تتجه نحو تبيين عمومية الظاهرة الدينية وهذه التعريفات من الممكن أن نبني عليها فلسفه أما الدين فلا^(٢)

ثانياً: أن بعض التعريفات ركزت على الجانب العقلى والمعرفى فى الدين وأهملوا جانب العبادة والسلوك . كما يظهر ذلك فى تعريف " هيجل " للدين .

ثالثاً: أن بعض التعريفات قد ألغى الفكرة الأساسية فى الدين وهى فكرة الألوهية كما فى تعريف " سالمون ريناك " وتعريف " دوركاييم .

وحجتهم أن أدياناً متعددة لا آلله لها بل إن بعض الأديان المتحضرة لم تتحقق فيها فكرة الإله مثل البوذية والكونفوشيوسية حيث أنها تقوم على أساس أخلاقي بحث خال من تأليه كائن ما ، وأن الذين يؤلهون " بودا " " وجينا " إنما هم مبتدعون خارجون عن أصول دينهم الحقيقي القديم^(٣)

رابعاً: إن كل تعريف من هذه التعريفات يركز على جانب واحد من جوانب تعريف الدين . أى أنه غير جامع ، ولا مانع وبالجملة فهى ليست وصفاً دقيقاً للدين . والسبب فى ذلك أن ظاهرة الدين أكثر تعقداً وتشابكاً لجوانب عديدة من أن تعرف تعريفاً مختصراً مركزاً ، ولذا يجب من البدء أن نفهم مصطلح الدين بأوسع معنى يتناسب مع استعماله التقليدي المأثور .

(١) انظر الدين مادة ورزاً . ضمن آفاق المعرفة تأليف جورج هدل . ترجمة فؤاد جميل . مؤسسة فرانكلين للطباعة ببغداد نيويورك

(٢) الدين للدكتور دراز ص ٣٧ - ٣٨ ونشأة الدين ص ٢١

(٣) الدين للدكتور دراز ص ٣٨

ومعنى ذلك أن كل شيء يقع في نطاق الديانات الفعلية عبر التاريخ يجب أن يؤخذ بعين الاعتبار عند فهم المدى الذي يتسع له هذا اللفظ كما يجب ألا نغفل في هذا الصدد أي عنصر نعتقد أهميته في الارتباط بهذه الظاهرة الجليلة .^(١)

خامساً: توقف بوجه خاص عند تعريف "دور كايم" الذي ذهب إلى استبعاد فكرة الألوهية عن الدين وتعريفه . وهنا نتساءل . هل الأديان التي عددها "دور كايم" . خلت فعلاً عن فكرة الألوهية؟ هذا من ناحية ومن ناحية أخرى هل إذا خلت المعتقدات عن فكرة الألوهية يصح أن تسمى أدياناً؟

إن الإجابة عن التساؤل الأول . تتمثل في إجماع مؤرخي الأديان على أنه ليس هناك جماعة إنسانية بل أمة كبيرة ظهرت وعاشت ثم مضت دون أن تفكر في مبدأ الإنسان ومصيره ، وفي تعليل ظواهر الكون وأحداثه ودون أن تتخذ في هذه المسائل رأياً معيناً . حقاً أو باطلأ . وما ذكره "دور كايم" من أن بعض الأديان خلت عن فكرة الألوهية . هذه الأديان لم تشد عن القاعدة التي أجمع عليها مؤرخو الأديان .

أما الإجابة عن التساؤل الثاني : فإن اصطلاح الناس على تسمية العقائد التي خلت من فكرة الألوهية ديناً فهذا اصطلاح مجاف لذوق اللغات خارج عن معهود الناس لأن هذه الأفكار الأجدر أن يطلق عليها فلسفات لا أديان . على أن الديانات التي ذكرها "دور كايم" عُرفت ودرجت في جدول الأديان لأن في ثناياها فكرة التالية .^(٢) وعلى أقل تقدير كانت في بدايتها مؤلمة وإن أنكر الأتباع فيما بعد الألوهية .

سادساً: إن العناصر الرئيسية التي يجب أن يتكون منها الدين كما حددها الدكتور دراز تمثل في : -

- ١ - عنصر الذات

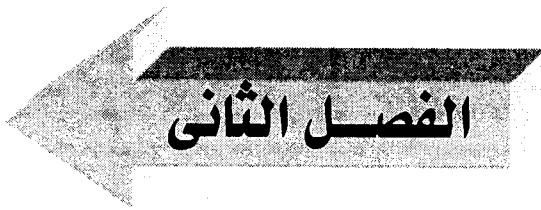
(١) في الدين المقارن ص ٢٤

(٢) انظر الدين ص ٣٩ - ٤٠ بتصريف

- ٢ - عنصر الغيبة
٣. عنصر الروحية
٤. عنصر الاتصال بالعابدين

وبعد أن حدد تلك العناصر الأربع انتهى إلى تعريف الدين بأنه " الإيمان بذات إلهية جديرة بالطاعة والعبادة "^(١) والذات الجديرة بالطاعة والعبادة هي الذات الإلهية بأوصافها التي وردت في القرآن الكريم والسنة الصحيحة أى هي ما جاء بها الإسلام عن طريق الوحي إلى محمد ﷺ.

^(١) الدين للدكتور دراز ص ٤٩ بتصرف



الفصل الثاني

مصدر الدين و بواحث الدين عند الفربين

المبحث الأول

دعوى أن الإنسان هو مصدر الدين

هل الدين أمر فطري في الإنسان ولد مزوداً به ؟ أو أن الدين عرض طارئ استحدثه الإنسان ؟ قبل أن نجيب على هذه التساؤلات ينبغي أن نقرر بداية لماذا تطرح هذه التساؤلات وما قيمة الإجابة عليها ؟

وبنادر فنقول : تكمن قيمة طرح هذه الأسئلة ، والإجابة عنها في أن كثيراً من الباحثين المحدثين تعالت صيحاتهم معلنة أن البحث في أصل الدين له أهميته ونتائجها الخامسة . لأنه إذا أمكن البرهنة على أنه من أعلى أى موحى به من عند الله . فإن ذلك يوثق صحته ، وثبتت حقيقته وفرض إلزامه (وأرى أنه لن يستفيد دين من الأديان الموجودة الآن من البحث في أصل الدين مثلاً يستفيد الإسلام لأن الدين الوحدى الآن الذي يمكن إثبات أنه وحى من عند الله وأنه الوحدى موثوق الصحة ، والذي يمكن البرهنة عليه دينياً وعلمياً . عكس الأديان الأخرى الكتابية أو الوضعية . ومن ثم فإن البحث في أصل الدين تكمن أهميته في نظرنا أنه بذلك على أن الدين هو الإسلام) وإذا أمكن البرهنة على أن الدين من أسفل (أى من وضع البشر أفراداً وجماعات) فهو في هذه الحالة إنتاج بشرى شأنه شأن غيره من الأفكار والمخترعات القابلة للخطأ أو للصواب ، وقد ينتهي الأمر فيه إلى أنه أمر لا يوثق به وليس له سلطة الإلزام^(١) . ونحن انتلاقاً من هذا نتناول الاتجاهات الرئيسية في هذا الموضوع ونستطيع أن نضع أيدينا وسط الكم الهائل من الآراء والمقولات حول مصدر الدين على اتجاهين رئيسيين^(٢) : وسوف نتحدث عن أحدهما .

(١) في الدين المقارن ص ٢٤

(٢) في الدين المقارن ص ٢٤

وهو القائل بأن الدين مصدره الإنسان وهذا ادعاء الغربيين الذين سوف نعرض رأيهم في هذا البحث، ونرجئ الحديث عن الاتجاه الآخر إلى الفصل الثالث إن شاء الله.

هذا الاتجاه يمثله مجموعة من الباحثين الغربيين وتقوم حجتهم على أن الإنسانية لابد وأن تكون قد عاشت قرونًا طويلة في حياة مادية خالصة قوامها الحرف والنحت والبناء والخدادة والتجارة قبل أن تفكر في مسائل الدين والروح بل قال أحدهم وهو "فولتير": إن فكرة التاليه إنما اخترعها دهاء ماكرون من القساوسة والكهنة الذين لقوا من يصدقهم من الحمقى والساخناء^(١)

وهذا الرأى الحديث من أمثال "فولتير" سبقه به جماعة من السوفياتيين الذين نظروا بسخرية إلى الدين والقانون فقد يماني زعم السوفياتيون "أن الإنسان كان في أول نشأته بغير رادع عن قانون، ولا وازع من خلقٍ وأنه كان لا يخضع إلا إلى القوة الباطشة ثم وضعت القوانين فاختفت المظاهر العلنية من هذه الفوضى البدائية، ولكن الجرائم السرية ما برح سائدة منتشرة فهناك فكر بعض العابرة في إقناع الجماهير بأن في السماء قوة أزلية أبدية ترى كل شئ وتسمع وتهيم بحكمتها على كل شيء"^(٢)

وإن أصحاب هذا الاتجاه على اختلاف مشاربهم قد يماني وحديثاً يجمعهم رأى واحد هو أنهم لا يرون مصدرًا للدين خارج هذا العالم الحسي ومن الطبيعي أن يجمع هؤلاء على إنكار الألوهية كحقيقة موضوعية ذات وجود فعلى ثابت شامل ومستقل كما يجمعهم القول بالتطور في الديانات^(٣)

يقول رالف لتون "إن عقيدة القادر المطلق في نهاية الأمر الذي لا يرضى إلا بالطاعة الكاملة والوفاء كانت أول ما أنتجه نظام المجتمع السامي لقد خلق هذا النظام جروتاً غير عادٍ، وكانت ل نتيجته أن شريعة موسى خرجت بقوائم مفصلة عن

(١) في الدين المقارن ص ٢٤

(٢) نفسه ص ٨١

(٣) في الدين المقارن ص ٤٨

المحرمات في كل مجال من الحياة الإنسانية، وقد آمن بهذه القوائم الطويلة العوام الذين يتقلبون أحکام آبائهم العمياء، ويطبعونها وما التصور الإلهي (اليهودي) إلا خيال مثال لأب سامي . مع شيء من المبالغة والتجريد في الأوصاف والطاقات ^(١)

ونلاحظ هنا أنه يتحدث عن الدين اليهودي كنموذج وإلا فهو يرفض جميع الأديان ويعتبر أنها من صنع الإنسان أو المجتمع . المهم أن الدين ليس من عند الله . كما يزعم.

ويذهب البعض إلى أن العوامل التاريخية كانت أحد الأسباب الرئيسة التي جعلت الإنسان يخترع الدين . ويفترض قوى خارجية يلجأ إليها عند الحاجة . وهذه القوة هي الإله . اخترع ليجتمع الناس حوله ويهرع الجميع إلى رضاه .

يقول " جوليان هكسلى " : لقد خلق العقل الإنساني الدين ، وأتم خلقه في حالة جهل الإنسان وعجزه عن مواجهة القوى الخارجية ^(٢) ويضيف قائلاً " فالدين نتيجة لتعامل خاص بين الإنسان وب بيته ، وهذه البيئة قد فات أو أنها أو كاد ، وقد كانت هي المسئولة عن هذا التعامل فأما فناءها وانتهاء التعامل معها فلا داعي للدين ^(٣) ويذهب إلى أبعد من هذا حين يقول : لقد انتهت العقيدة الإلهية إلى آخر نقطة تقيدنا وهي لا تستطيع أن تقبل الآن أية تطورات . لقد اخترع الإنسان قوة ما وراء الطبيعة لتحمل عبء الدين جاء بالسحر ثم بالعمليات الروحية ثم بالعقيدة الإلهية حتى اخترع فكرة الإله الواحد . وقد وصل الدين بهذه التطورات إلى آخر مراحل حياته ، ولا شك أن هذه العقائد كانت في وقت ما جزءاً مفيداً من حضارتنا بيد أن هذه الأجزاء قد فقدت اليوم ضرورتها ومدى إفادتها للمجتمع الحاضر المتطور ^(٤) .

إنه كإخوانه في الغى ينكر أن يكون الدين من عند الله ويؤكد أنه من صنع الإنسان ويجمع كل مظاهر الدين . ويلغيها بكلمة واحدة وعلى الرغم من أن الدين

(١) نقاً عن الإسلام يتحدى ص ٣٧ Tree of culture , Ralphlinton

(٢) الإسلام يتحدى ص ٢٨

(٣) نفسه

(٤) انظر الإسلام يتحدى ص ٣٨ - ٣٩

من صنع الإنسان إلا أنه كان مناسباً في مرحلة معينة أما وقد تطور المجتمع فقد فقد الدين ضرورته في الوقت الحاضر وسوف يكون لنا وقفة مع هذا الادعاء على صفحات هذا البحث إن شاء الله.

وإذا كانت هذه الأقوال آراء لبعض الملحدين . يعلنونها للناس ويكتبونها في مؤلفاتهم . فإن الأمر الأدهى والأمر أن تقوم دول على هذه الأفكار وتبني هذه الآراء. يقول "إنجلز" فيلسوف الشيوعية "فالطبيعة توجد مستقلة عن كل فلسفة في الأساس الذي نمونا عليه خن الناس نتاجها أيضاً ، وخارج الطبيعة والإنسان لا يوجد شئ أما الكائنات العلوية التي ولدت في مخيلتنا الدينية فليست سوى انعكاسات خيالية لوجودنا نحن" ^(١)

أما السبب في ترويج مثل هذه الآراء وانتشارها وقيام دول على أساس منها فمرده إلى بعض الأمور منها :

١- القدوة غير الحسنة والأخلاق الخلقي عند رجال الكنيسة. إضافة إلى الاضطهاد الديني الذي مارسه رجال الكهنوت ضد العلم وأصحابه.

٢ - ظلم القوانين الوضعية ، وسوء توزيع الثروة العامة التي منحها رجال الدين لأنفسهم بغير وجه حق ^(٢).

كل هذه الأمور وغيرها الكثير أدى إلى تلك الآراء وشيوخها إضافة إلى أمر خسيبه جوهرياً يتمثل في الغرور الذي صاحب الاكتشافات العلمية إذ ظن المخترعون وأفراد المجتمع على السواء أنهم وضعوا أيديهم على الحقيقة متمثلة في الاكتشافات العلمية بعيداً عن الدين وتكليفه.

(١) مذاهب فكرية معاصرة ص ٢٧٢ وانظر ص ٢٩٣ وما بعدها

(٢) أنظر الدين للدكتور دراز ص ٨٠ ، وفي الدين المقارن للدكتور كمال جعفر ص ٤٩ وانظر المعالجة القيمة لفساد الكنيسة ورجال الدين في مذاهب فكرية معاصرة ص ٣٥.٧٨

المبحث الثاني

البواعث على التدين عند القائلين بأن الإنسان مصدر الدين

يجب أن نفرق بين مصدر الدين ، وبين الباعث على الدين. فمصدر الدين عند أصحاب هذا الاتجاه هو الإنسان نفسه ومن ثم فإن كثيراً من هؤلاء ينكرن الألوهية ويرفضون ما وراء الطبيعة والمادة ، ويررون أن الإنسان نشا على الأرض وكان تطويراً وارتقاءً طبيعياً للخلية الأولى التي انتهت إلى فقاريات راقية كالقرود والنسانيس ثم الإنسان ^(١)

وهو لاء لهم مذاهب شتى في الباعث على التدين سوف ت تعرض لأهمها على الصفحات القادمة إن شاء الله.

(١) الإنسان في ظل الأديان ص ٤٢

أهم النظريات في تفسير الバاعث على التدين وتشمل المسائل التالية:

المسألة الأولى: نظرية المذهب الطبيعي

يرى أنصار هذا المذهب أن البااعث على التدين لدى الإنسان مظاهر الطبيعة من حوله وقد انقسموا إلى فريقين فريق ذهب إلى أن الذي دفع الإنسان إلى التدين

أ. التعظيم للطبيعة الناتج عن التأمل فيها

وحجة هذا الفريق أن الطبيعة بظاهرها المختلفة بما لها من قوة مستقلة عن إرادة البشر يخضع الجميع لها، ولا قدرة لهم على تحويل سيرها أو تعديل نظامها في المجتمع للإنسان القديم شعور مؤلف من دهشة وإعجاب رأى به الكون أشبه شيء بالمعجزة^(١)

ومن أصحاب هذا الرأي "ماكس مولر" الذي أيد وجهة نظره بدراسة الفيدا الهندية حيث أن أسماء الآلهة إنما هي أسماء مشتركة من الممكن ببساطة التوصل إلى أصلها اللغوي، وتعنى كلها ظواهر الطبيعة الرئيسية ومن الأمثلة على ذلك كلمة Agni وهو اسم أحد الآلهة الرئيسيين لم يكن لهذا الاسم أول الأمر أية دلالة دينية بل كان يشير فقط إلى فعل النار المادي كما تدركه الحواس، والذي يدل على أن هذا المعنى كان بدائياً أننا نجده في اللغات الهندية الأوربية ففي اللاتينية "Ignis" وفي الليتوانية "Ugnis" وفي السلافية القديمة "Ogny" وكل هذه الكلمات متصلة بكلمة "Agnī" في رأي "ماكس مولر"

أما ما تعبّر عنه "Dyaus" فهو الشمس المتلائمة، ومعنى هذه الكلمة وغيرها من الكلمات يدل على أن أول عبادة إنما اتجهت إلى عبادة الطبيعة في قواها وعناصرها المختلفة. فكانت القوى والعناصر الطبيعة أولى الأشياء مؤلّتها، وهكذا بدأت الإنسانية دينها^(٢)

(١) الدين للدكتور دراز ص ١١٤

(٢) انظر نشأة الدين ص ٧٢ - ٧١ للدكتور النشار وانظر كتاب الله في نشأة العقيدة الدينية للعقاد ص ١٧ - ١٨

بد البابا على الدين الخوف من مظاهر الطبيعة

ذهب إلى هذا الرأى جيوفنس " Jovons " حيث رأى أن النظر في مشاهد الطبيعة كان على الجملة هو منشأ العقيدة الإلهية ولكنه يقرر أن الظواهر العادية لم تكن كافية لإيقاظ فكرة التدين. نظراً لأن تكرارها على الحواس يجعل النفس تألفها، ولكن الطبيعة المفاجئة مثل الزلازل، والبراكين والطوفان، والصواعق هي التي دفعت الإنسان إلى التدين بما هو مفظور في غريزته استحالة أن يحدث شيء من لا شيء إلى درجة أن الطيور والحيوانات فضلاً عن الإنسان تفزع عند سماع صوت مزعج ، وتلتفت إلى الصوت المزعج بحثاً عن فاعله أو مصدره. فكان من الطبيعي أن هذه الحوادث الرهيبة المفزعية تزعج من يشهدها وتحفظه إلى السؤال عن مصدرها وإذ كان لا يرى لها سبباً ظاهراً اضطر عقلياً أن ينسبها إلى سبب خفي ذي قوة هائلة ^(١) هذه القوى الطبيعية بظاهرها المختلفة ومن ثم انبعث ولاء الإنسان لقوى أو كائنات خافها أو ظنها قادرة على دفع الخوف والرهبة من نفسه فحرص على التقرب لها ليتقى شرها ، ويضمن نفعها ويستدر عطفها عليه فأصبحت قوى الطبيعة وكائناتها آلة تُعبد. ما ينفع عبده وما يضر عبده ليأمن أذاه " ويتقى شره .

(١) الدين للدكتور دراز ص ١٢٦

المسألة الثانية

نظريّة المذهب الحيوي Amimisme

تعرضت نظرية المذهب الطبيعي أو الكوني في الباعث على التدين إلى النقد من جانب كثير من الباحثين ورفضوا هذا المذهب الطبيعي. وذهبوا إلى أن الدافع على التدين هو المذهب الروحي. وقد ذهب إلى هذه النظرية "تيلور" في كتابه "المدينة البدائية" وتابعه عليها مع تعديل طفيف الفيلسوف الإنجليزي "سبنسر" في كتابه "مبادئ علم الاجتماع" ومفاد هذه النظرية :

١. أن في الوجود كائنات عاقلة سواءً أكانت في الأصل أرواحاً إنسانية انتقلت عن أجسادها أم كانت منذ بدايتها أرواحاً مستقلة كالجن والملائكة أم كانت أرواحاً أعلى من ذلك وأسمى.
٢. أن هذه الكائنات الغيبية المزودة بتلك القوى الخارقة قد تتصل بعالم النفس أو عالم الحس من الحياة الإنسانية، وتترك فيه أثراً من آثارها العجيبة هكذا تنشأ عقيدة التأله التي تمت على مرحلتين : -

الأولى: في بقاء أرواح الموتى. وهذه الفكرة تعتمد في جوهرها على تجربة الأحلام، والتفسير البدائي. لهذه التجربة خلاصته أن الحلم عند البدائيين انتقال حقيقي لروح الشخص المرئ في النام فيراه حقيقة على شكل طيف.

وإذا كانت أرواحهم تجئ إلى الرائي في النام كما تجئ أرواح الأحياء دل على بقاء أرواح الموتى واستمرار اتصالها بالأحياء وتمكنها من نفعهم وضرهم فاقتضى الأمر التقرب إليها لتجنب أذها واستدار عطفها.

أما المرحلة الثانية : وهي عبادة أرواح الكواكب والعناصر الطبيعية فيرى "تيلور" أن العقلية البدائية فيها من السذاجة الطفولية ما يجعلها لا تميز بين الجماد والحيوان، و يجعلها تعامل كلاً منها معاملة الكائنات الحية كما يداعب الطفل دميته ويناجيها لأن فيها روحًا. بينما رأى "سبنسر" أن القدماء عبدوا الطبيعة لأن الأسلاف كانوا

يُسمون أحياناً بأسماء مظاهر الطبيعة فكان بعضهم يُسمى نجماً، والآخر غمراً، والثالث حمراً ثم بعد ذلك انتقل التقديس من أصحاب تلك الأسماء إلى الأشياء المسمى بتلك الأسماء نفسها^(١)

يقول برجسون "والواقع أن الطبيعة قد وهبت الإنسان ملكرة خاصة تشبه الخيال من بعض الوجوه تلك هي الوظيفة الأسطورية أو الملكرة الخرافية التي يمقتهاها يستطيع الإنسان أن يخترع شخصيات خيالية هذه الشخصيات قد تكون (أرواحاً) بادئ الأمر ثم تتحول إلى آلهة فيما بعد"^(٢)

(١) نشأة الدين ص ٣٣ - ٣٦ - ٣٧ وانظر الدين للدكتور دراز ص ١٣٣

(٢) الإنسان في ظل الأديان ص ٢١

المسألة الثالثة: مذهب الطوطم (Totem)^(١)

ذهب إلى هذه النظرية عالم الاجتماع الفرنسي "دور كايم" ومفاد هذه النظرية أن في معظم القبائل الاسترالية نظاماً له أهمية عظمى في الحياة الاجتماعية وهو "العشيرة" هذه العشيرة مرتبطة ليس برباط الدم أو المعاشرة أو غيرها، وإنما يطلق اسم واحد عليهم، وهذا الاسم هو نوع معين من الأشياء المادية تعتقد العشيرة أن لها به أوثق الصلات ويسمى هذا النوع "الوططم" و "وططم" القبيلة هو "وططم" كل فرد من أفرادها ولكل عشيرة طوططمها الخاصة بها. أو الأشياء التي تستخدم "طوططم" فهى في معظمها متصلة بأنواع نباتية أو حيوانية. وهي الأشهر أما الأشياء الجمادية فإن القائمة التي قدمها الذين دلوا على هذه النظرية خلت من الرموز الجمادية إلا عدداً ضئيلاً جداً يحمل أسماء حيوانية أو نباتية^(٢)

"والوططم" الذي تتخذه العشيرة ليس فرداً إنما هو نوع أي نوع الحيوان على العموم وكان الطوططم الذي تتخذه العشيرة شعاراً لها يرسم على كل الأمتعة التي تستخدمها العشيرة بل كانوا يحملونه معهم إلى القتال ويدافعون عنه أعظم دفاع.

وهذه الطوطاطم سواء من النباتات أو الحيوانات.. كان تقديسها يؤدى إلى تحريم أكلها اللهم إلا في بعض الأكلات الدينية، وأن من يقدم على هذا فجزاؤه الموت، لأنه كان يعتقد أن هذه الطوطاطم يسكن فيها عنصر هام لا يمكن أن يدخل في المكان

(١) هذا الاسم مأخوذ من لغة الهنود الحمر في أمريكا الشمالية هو اسم لم يتفق بعد على ضبطه ولا تحديد معناه فهو في الشهرة To tem ولكن يكتب أيضاً Totam أو Toodim أو dodaim أو Ododaim ويفسر تارة بمعنى موطن العشيرة ومستقرها وتارة بمعنى العلامة أو الشعار. انظر الدين للدكتور دراز ص

١٥١

(٢) نشأة الدين ص ١٠٠، ١١٤، ١١٥ والدين للدكتور دراز ص ١٥١

غير المقدس إلا إذا أعطيه وقضى عليه، وإن كانت بعض العشائر أباحت لأفرادها الذين بلغوا سنًا معيناً أكل تلك النباتات والحيوانات^(١)

ويبدو أن تحريم أكل هذه الحيوانات إنما هو تحريم شكلٍ لأن ترخيص أكله في بعض الأحوال ثم توسيع نطاق هذا الترخيص سيوسع بالتالي من دائرة الإباحة لأنها الأصل كما يرى "سبنس، روجلين" اللذان اعتبرا أن هذه التحديدات والنواهي طارئة على المجتمع الطوطيقي^(٢) ولكن التساؤل هنا هل يمكن أن نرى في الطوطمية مذهبًا في الوجود يحاول تفسير الكون أو بمعنى أدق: هل الطوطمية هي تلك العقائد الخاصة الضيقة التي لا تتناول سوى الرمز الطوطيقي.. والنبات والحيوان الذي تشير إليه الرموز. ثم أفراد العشيرة؟

إن مجموعة العقائد المتناقضة أو الجزئية لا يمكن أن تكون ديناً بمعنى الكلمة لأن الدين الحقيقي هو ما يحاول الإحاطة بالكون كله وأن يصبح تصوراً عاماً له. وتلك هي المحاولة التي أرادها "دور كايم" حين أراد أن يجعل من الطوطمية مذهبًا في الوجود ديناً يفسر الكون وهو في هذا يُشبه الطوطمية بأى دين آخر من الأديان التي قامت بهذا العمل^(٣)

بل يذهب البعض إلى أبعد من هذا حين يعتبرون أن الطوطمية تمثل أصلاً للأديان بين البدائيين والهمج مستندين إلى ما تحقق من أن شعائر الطوطم منتشرة بين مئات القبائل البممجية في استراليا وأفريقيا وأمريكا وبعض المناطق الآسيوية^(٤)

أما "تايلور وويلكن" فقد ذهبا إلى أن الطوطمية قد نشأت عن عبادة الأرواح التي كان السلف محوراً لها وكانت موضع تقديس الخلف وعبادتهم، وكانت في مبدأ الأمر قائمة بذاتها منفصلة عن الأجسام ثم أخذ الاعتقاد بتناصح الأرواح يتداخل شيئاً فشيئاً حتى انتهى الأمر ببعض الشعوب البدائية إلى

(١) نشأة الدين ص ١١٥ وانظر مصطلح الطوطمية في الموسوعة الميسرة في الأديان والملاهب ملحق . معجم المصطلحات ص ١٠٩٩ - ١١٠٠ وضع الأستاذ حمدى عيد

(٢) نشأة الدين ص ١١٥

(٣) نفسه ص ١٢٦

(٤) الإنسان في ظل الأديان د. عمارة نجيب ص ١١٤

الظن بأن هذه الأرواح قد حلّت في أجسام بعض من الآباء والأجداد واتّجه إليها التقدّيس^(١)

وقد أيد هذان الباحثان نظريتهما بما لا حظوه في بعض جزر أندونيسيا من تقدّيس الناس للتماسيح هناك^(٢)

أما "جيغونس" فيذهب إلى أن الطوطمية قد انبثقت عن عبادة مظاهر الطبيعة وذلك أن الإنسان البدائي تحت تأثير الخوف والرعب من مظاهر الطبيعة من حيوان ونبات وجماد حرص على التقرب إلى بعضها ليتقى شرها ويضمن نفعها ويستدر عطفها عليه ولم يكن ثمة وسيلة أقوى من القرابة فأعضاء العشيرة الواحدة يتعاونون لأنهم أقرباء أو لأنهم يعتبرون بعضهم بعضاً سواء ولذلك اصطنع العقل البدائي صلة القرابة بينه وبين بعض مظاهر الطبيعة ولم يُقم هذه الصلة بين أفراد وأفراد، وإنما أقامها بين العشائر الإنسانية من جهة والفصائل الحيوانية والنباتية والطبيعية من جهة أخرى. لقد نظر البدائي إلى عالم الحيوان والنبات نظرته إلى عالم الإنسان فلم يعتد بأفراد هذا العالم وإنما اعتد بفصائله وأنواعه وعمد إلى هذه الفصائل والأنواع فربطها بعشرتها بوشيعة القرابة ولُحمة النسب^(٣)

ومن عجيب الأمر أن تقدّيس الطوطم لا يزال حتى الآن له وجود بين القبائل الاسترالية الأصلية وبين المجتمعات الوثنية بماليزيا وأيضاً بين البهود الحمر بالساحل الشمالي الغربي في أمريكا. ويدرك بعض الباحثين أنه لازالت إلى الآن توجد آثار منه في أوروبا والدليل على ذلك تسمية مدينة بيرن (Berne) في سويسرا حيث تعظم الفيلة وكلمة بيرن في الألمانية جمع بير بمعنى فيل^(٤)

كانت هذه أهم النظريات التي تحدثت عن الباعث على التدين عند الإنسان بعد أن قررت أنه مصدره. وهناك بعض الاتجاهات الأخرى أقل شهرة من التي قبلها. تحدث عنها إجمالاً بكلمة موجزة.

(١) انظر الطوطمية للدكتور عبد الواحد وافي نقلأً عن الإنسان في ظل الأديان ص ١١٨

(٢) انظر نشأة الدين د/ على سامي النشار ص ١٤٦

(٣) انظر الطوطمية للدكتور عبد الواحد وافي ص ٩٥ وما بعدها نقلأً عن الإنسان في ظل الأديان ص ١٢١ و انظر نشأة الدين للدكتور على سامي النشار ص ١٤١ - ١٥١ - ١٥٠

(٤) انظر معجم المصطلحات الملحق بالموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب ج ٢ ص ١١٠ وضع الأستاذ حمدى عبيد.

بعض الاتجاهات الثانوية التي تحدثت عن الバاعث على التدين

١- الشعور بالحب

هذا الاتجاه يقرر أصحابه أنه ما دام أن الدين مصدره شعور الإنسان فإن اللائق أن يكون هذا الشعور متعلقاً بالحب لأن العين الذي لا ينضب في الحياة الدينية، وهو الذي يفسر التضحيات والأعباء التي يتحملها المتندون، ومعنى ذلك أن الغريزة الدينية - على فرض وجودها - تتضمن كل المقومات التي تدفعها نحو الوجود الإلهي - لأن الحب ليس إلا تعبيراً عن نزعة أكيدة، ورغبة مُلحة في داخل الإنسان ذاته، وهذا ما جعل بعض الباحثين في الأديان يعتبرون أن الدين في كل صورة ينتهي أخيراً إلى الميل والشوق إلى الله والدأب في البحث عنه وأن الحق الذي ترثه كل الأديان يتمثل في هذه الحقيقة الكبرى وهي أن الكل يبحث عن الله، وأن الصور المختلفة للأديان تدرك غاية الدين بدرجات مختلفة^(١)

٢- الاتجاه النفسي

ومفاد هذا الاتجاه أن البااعث على الدين عند الإنسان شعوره بمناقضة جوهرية بين حساسيته وإرادته، وهمما اللتان تتألف منهما حياة النفس في أيسر مظاهرها. إن قدرنا قد رسم دون استشارتنا فقضى علينا أن تكون في زمن معين، ومكان معين وترك لنا ميراثاً من الملوكات والطبايع لم يكن لنا فيه شيء من الاختيار؟ بل إننا لا نجد في أنفسنا، ولا في أي مجموعة أخرى من الكائنات الفردية السبب الكافي لوجودنا، ولا غايتها النهائية المعقولة ولذلك نجد أنفسنا مضطرين إلى أن نبحث عن هذا السبب ، وهذه الغاية خارجاً عنا في الوجود العام وما الدين إلا الاعتراف بهذه التبعية في تسليم وخضوع هذا الشعور بالتبعية هو الأساس التجريبي للعقيدة الإلهية، ومهما تكن فكرة الألوهية في عقولنا ناقصة غير محددة فإن موضوعها لا يفلت قط من شعورنا. فهو حاضر لدينا. بل يفرض نفسه علينا في هذا الشعور حتى

(١) انظر الدين المقارن ص ٣٨٠ - ٣٩٥

إنه يسوغ لنا أن نضع هذه المعادلة الحسابية مطمين. إن شعورنا بالتبعية المطلقة هو شعورنا بحضور السر الإلهي فينا. هذا هو الينبوع العميق الذي تفيض منه الفكرة الإلهية بقوة لا تقاوم^(١)

وأخيراً كانت هذه الآراء ملخص الاتجاهات التي ذهبت إلى أن الإنسان هو الذي صنع الدين على اختلاف فيما بينهم حول الباعث على التدين إن من جهة الطبيعة رغبة أو رهبة أو من جهة الأحلام التي يراها الإنسان والذي أخذ منها باعثاً على التدين - أو من جهة الشعور بالحب كباعث دفع الإنسان إلى التدين - أو الاتجاه الأخير الذي يستند على الشعور النفسي.

(١) انظر الدين للدكتور دراز ص ١٣٥ - ١٣٨

تأثير بعض المفكرين في العالم الإسلامي بالقول بالتطور في العقيدة

نلاحظ أن الفكرة التي تجمع هذه المذاهب الغربية جميعها - على الرغم من اختلافهم - هي فكرة التطور أى أن الدين لم يكن . ثم اخترعه الإنسان بادئاً بالتعدد في العبادات متىهاً إلى التوحيد.

وينبغي أن نلاحظ أن التوحيد الذين ذهبوا إليه ليس هو التوحيد الذي جاء به الأنبياء ، وإنما توحيد العبادات القديمة في معبد واحد .
ويعدون هذا من التطور العقلي الذي وصل إليه الإنسان.

وقد انتقلت هذه الآراء إلى العالم الإسلامي وتأثر بها بعض الباحثين. نعم خالفوا الغربيين في أن المعبد الواحد هو ما جاء به الأنبياء ودعوا إليه. يقول الأستاذ " سليمان مظہر " في كتابه قصة الديانات " جاء وقت اعتقاد فيه الإنسان أن للأصنام قدرة إذا تقدم لها بقريان على أن تفعل له الخير وتلحق الضرر باتباعه ، ولكنه مع مرور السنين بدأ يتصور هذا الخالق ومن حوله الآلهة الآخرون ينظمون الحياة على وجه الأرض وتبينت صور هذا الخالق في أذهان البشر حتى آمن البعض بفكرة الرب الواحد أو رب الأرباب أو كبير الآلهة

ومنهم الأستاذ " طه المهاشمي " في كتابه تاريخ الأديان وفلسفتها " على ما يذكر الدكتور عوض الله حجازي ^(١)

ومنهم الأستاذ " العقاد " في كتابه " الله " يقول " يعرف علماء المقابلة بين الأديان ثلاثة أطوار عامة مرت بها الأمم البدائية في اعتقادها بالآلهة والأديان هي :-

- | | |
|---------------------------|-------------------------|
| Polytheism | ١. دور التعبد |
| Henotheism | ٢. دور التمييز والترجيح |
| ^(٢) Monotheism | ٣. دور الوحدانية |

(١) انظر مقارنة الأديان ص ٣٨

(٢) الله كتاب في نشأة العقيدة الإلهية ص ٢٨.

ويذكر عن دور الوحدانية (أن الأمة تجتمع على عبادة واحدة تؤلف بينها مع تعدد الأرباب في كل إقليم من الأقاليم المترفة، ويحدث في هذا الدور أن تفرض الأمة عبادتها على غيرها كما تفرض عليها سيادة تاجها وصاحب عرشها، ويحدث أيضاً أن ترضى من إله الأمة المغلوبة بالخضوع لإلهها مع بقائه وبقاء عبادته كبقاء التابع للمتبوع والحاشية للملك المطاع^(١))

ويواصل انتصاره لهذا الرأي بقوله " ولا تصل الأمة إلى هذه الوحدانية الناقصة إلا بعد أطوار من الحضارة تشيع فيها المعرفة ويتعدّر فيها على العقل قبول الخرافات التي كانت سائغة في عقول الهمج ، وقبائل الجاهلية فتصف الله بما هو أقرب إلى صفات الكمال والقدسية من صفات الآلهة المتعددة في أطوارها السابقة"^(٢)

ويؤكد فكرة التطور بقوله " فالتطور في الديانات حرق لا شك فيه ولكنه لم يكن على سلم واحد متعاقب الدرجات بل كان على سالم مختلف تصدع من ناحية وتهبط من أخرى "^(٣)

ثم يقول " فديانة الشمس كانت الخطوة السابقة خطوة التوحيد الصحيح لأنها أكبر ما تقع عليها العين. وتعلل به الخليقة والحياة فإذا دخلت هي أيضاً في عداد المعلومات فقد أصبح الكون كله في حاجة إلى خالق موحد للأرض ، والسماء ، والكواكب ، والأقمار وينطبق هذا الترتيب تمام الانطباق على فحوى قصة إبراهيم في القرآن **«فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ الْيَلَوْ رَءَاءَ كَوْكَبًا قَالَ هَذَا نَتِي** »^(٤)

وسوف نناقش دعوى الأستاذ العقاد بالتفصيل في مسألة مستقلة ضمن البحث الثاني.

(١) نفسه ص ٢٨

(٢) نفسه ص ٢٩

(٣) نفسه ص ٣٢

(٤) سورة الأنعام الآيات ٧٦ - ٧٩. وانظر الله. كتاب في نشأة العقيدة الإلية ص ٣٦ ، ٣٧.

البحث الثاني

تقويم المذاهب الغربية في مصدر الدين والباعث عليه

وسوف نناقش هذه الاتجاهات ونحضر ما ذهبوا إليه من أن الدين مصدره الإنسان وأن الباعث عليه ما زعموه في المسائل التالية:

المسألة الأولى: مناقشة أصحاب المذهب الطبيعي

من الملفت للنظر أن الذى فند آراء أصحاب هذا الاتجاه ^{للله} من الغربيين وكانوا على المستوى الفكرى والعلمى لأصحاب المذهب资料ى إن لم يتفوقوا عليهم .- ولكن نقد هؤلاء لأولئك . كان القصد منه إبطال وجهة نظر الخصم ليخلص الناقد إلى إثبات ما ذهب إليه هو ، ويبدو هذا واضحاً في نقد "دور كايم" للمذهب "ال الطبيعي" "والحيوى" كباعثين على التدين وإبطالهما لإثبات صحة ما ذهب إليه من أن الدين من اختراع العقل الجماعي متمثلاً في الطوطم ونستطيع أن نحمل أهم ما وُجه إلى المذهب الطبيعي من نقد في النقاط التالية :

١ - إن ما استند عليه أصحاب المذهب الطبيعي بعد دراستهم للفيدا الهندية وملحوظاتهم حول وجود أسماء الآلهة بأسماء مظاهر الطبيعة كالشمس ، والنار ، والتشابه بين هذه الأسماء ومظاهرها عند كثير من الأمم الأخرى كما ذهب "ماكس مولر" لقد انبرى جماعة للرد عليه فيما ذهب إليه ، وأثبتوا أن أصول الكلمات التي زعم "مولر" تشابهاً بينها وبين غيرها في الديانات الأخرى لم توجد منفصلة على الإطلاق بشكل يدل على أنها قائمة بذاتها ، وإذا كان الأمر كذلك يعد من الممكن أن تكون هذه الأصول للغة البدائية للهندود ، الأوربيين فقد نشر Oldemlurg أبحاثه عن الفيدا في كتابه La/ religion/ du/ vead /-. وحاول أن يثبت أن آلهة الفيدا - إن كانت ثمة آلهة فيها . لا تتحقق فيها

الصفة الطبيعية التي ينسبها إليها "مولر"^(١) وهذا التقدّم قائم على البحث والدراسة والاستقصاء الأمر الذي يجعل قبوله أولى من كلام "ماكس مولر"
 ٢. لو كان مبعث العقيدة هو مظاهر الطبيعة ، وهدف العبادة هو استرحامها لما استمر الإنسان على تدينه بعد ما ظهر له عدم استجابة الطبيعة؟ والحاصل أن الديانات لم تقطع ولن تقطع. فلابد أن يكون لها منشأً وهدف آخر ثم إذا سلمنا جدلاً بعبادة الطبيعة للانبهار بها والوقوف أمام مظاهرها فكيف نفسر عبادة الأحجار والأشجار والحيوانات والأشياء التافهة التي لا توحى بها الشعور^(٢) ثم إن الذين ذهبوا إلى أن مظاهر الطبيعة وتأمل الإنسان لها هو الذي دفعه على التدين. قول يحتاج إلى نظر فإن رتابة الطبيعة لا تولد إلا إحساسات مؤقتة ولا يمكن أن تُعد أساساً لمذاهب ثابتة وطقوس دائمة هذا من ناحية ، ومن جهة أخرى هل الإنسان البدائي كانت عنده المقدرة الفكرية والتأمل في تلك المظاهر واستكشاف العجائب في هذا النظام

٣. أما القول بأن الإنسان عبدها خوفاً منها يقول "ساباتيه" إن شعور الرهبة والخوف من القوى العلوية لا يكفي وحده لتفسير الفكرة الدينية ولا بد له من شعور آخر يوازنه ويلطف من حدته ذلك أن الخوف إذا استثار بالنفس سحق الإرادة ، وشل الحركة ، وولد اليأس ومن وقع فريسة للرعب إن لم يتصور إمكان الخلاص لم يفكر في البحث عن عون ينقذه من الخطر الذي وقع فيه.فلابد لتحقيق الشعور الديني من مقاومة الخوف والرهبة بما يعادلها من الأمل والرجاء اللذين يبعثان على الدعاء والتضرع^(٣)

هذه هي أهم ما وُجه من انتقادات إلى النظرية الطبيعية التي ذهب أصحابها إلى أنها الدافع على التدين. وينبغي أن نلاحظ أن فكرة الخوف فكرة رئيسة في الأديان الكتابية ، والإسلام مليء كتابه بالأيات التي تحذف العباد وتحذرهم مع مراعاة الفرق

(١) نشأة الدين ص ٨١/٨٠

(٢) الدين ص ١١٩

(٣) الدين للدكتور داراز ص ١٢٧/١٢٦

الشاسع بين الخوف الذى تملية الطبيعة كفوة غاشمة ليس لها هدف ولا غاية ، ولا نفع ولا ضر ، وبين الخوف الذى ورد فى الأديان الكتابية و ورد أيضاً فى الإسلام . لأن الخوف الوارد فى الكتب السابقة على لسان الأنبياء قبل محمد ﷺ إن صحت نسبته إليهم فإنه بمثابة التحذير والتنبيه من أجل المصلحة الغائية له ثم إن هذا الخوف لا يعم مطلق الإنسان وإنما يتوجه إلى المنحرف الذى يريد أن يفسد الحياة ويهلك فيها الحrust والنسل هذا من ناحية ثم إن الخوف على لسان الأنبياء لا يكون من مظاهر الطبيعة - لأنهم يعلمون أتباعهم أن الكون بما فيه ومن فيه مسخر للإنسان - والأنبياء يسعون إلى تبديد الخوف من أى كائن سوى الله ولذلك ينصرف الخوف فى معظم الحالات إلى الأمور التى تتعلق بالحياة المستقبلية أى فى الآخرة . فإذا ما تركنا الأديان الكتابية وجئنا إلى الإسلام فإن آيات القرآن تجمع بين الترغيب والترهيب فى كثير من الآيات بل إن بعض آيات القرآن تبدأ بجانب الأمان والآمن والتبيشير أولاً . وبعد ذلك تأتى آيات العذاب مثل قوله تعالى ﴿ * نَعِيْ عَبَادِيَ اَنِّيَ اَنَاَ الْغَفُورُ الْرَّحِيمُ ﴾^(١)

(١) سورة الحجر الآية ٤٨ وانظر المعالجة القيمة لهذه الفكرة فى الدين المقارن ص ٣١ - ٣٣ للدكتور كمال جعفر برحمه الله

المسألة الثانية: نقد المذهب الحيوى

توجه مجموعة كبيرة من الباحثين الغربيين لتفنيد ما ذهب إليه البعض من أن الأحلام المنامية هي الاباعثة على التدين وتمثل نقدتهم في الآتي :-

١. أن الصور التي يستحضرها البدائى غير متماسكة وغير مطردة. ثم إنه لا يستطيع أن يعتقد أن ما يراه حقائق ثابتة على الدوام لا اختلاف فيها ولا تباين. والبدائى لا يستطيع أن يميز في أحلامه بين ما يكون ناشئاً عن وحى وإلهام، وما يكون

منبعاً عن أوهام المخيلة^(١)

٢. أثبت علم الأجناس أن فكرة البدائى عن النفس كانت فكرة مركبة غير بسيطة فلم يكن يعتقد أن له نفساً واحدة بل له عدة نفوس ، وثبت أيضاً أن الإنسان قد يأى كأن يعتقد أن له مشاركات في اسم أو في ظل. أو في طوطم وأن كل هذه الأشياء توجد في وقت واحد ويتصل بها الإنسان. قد تمتزج وتشابك ولكنها لم تنسق إطلاقاً عن إحساس بفردية واحدة.

أما المذهب الحيوى فيضع تصوراً فردياً للأنا Ego ولكن هذه الفكرة التي جعلها

"تيلور" التطور العقلى للإنسان لم يصل إليها البدائى على الإطلاق^(٢)

٣. وكما يقول "دور كايم" إن البدائين ليسوا في حاجة إلى تفسير ظاهرة الأحلام وإنهم وإن احتاجوا إلى تفسيرها فليس الطريق الذى وضعته النظرية. ثم إن تجربة الحلم إن سلمنا أنها تكفى للاعتقاد بالروح فإنها لا تكفى لتعليل الاعتقاد بألوهية مصدرها فإن من الرؤى ما هو هذيان وأضغاث أحلام، وفيها ما هو مجرد ذكريات ماضية عادية. وليس شيء من ذلك يثير عقيدة التأله. ثم إنه من جهة أخرى لا يعرف في أمة من الأمم أن احترامها للموتى أو الأسلاف وصل

(١) انظر نشأة الدين ص ٤١ - ٤٢

(٢) نفسه

بها إلى عبادة جميع الموتى أو جميع الأسلاف وإنما الذي كان موضعًا للتقديس عندهم من عُرف في حياته بقوة خارقة ممتازة تركت أثراً باقياً في الطبيعة أو في المجتمع. فليس الموت إذا شرطاً ولا سبباً في هذا التقديس، وإنما معيار التقديس هو تلك القوة السرية الخارقة أو تلك الجوهرة الإلهية التي تتجلى آثارها في الحوادث الإنسانية العظيمة ^(١)

وينبغي علينا أن نذكر بأن نقد "دور كايم" وغيره للمذهب الحيوي كان تكأة لإثبات وجهة نظره الداعية إلى أن الباعث على التدين عند الإنسان هو العقل الجماعي الذي يتخذ رمزاً حيوانياً شعاراً له . فهو نقد موجه من قبل "دور كايم" وأنصار مدرسته لإثبات مذهبهم بعد نقد المذاهب الأخرى.

(١) انظر الدين ص ١٣٤

المسألة الثالثة: نقد نظرية دور كايم في (الطوطم)

سبق وأشارنا إلى أن "دور كايم" وجه سهام نقه لكل من المذهب الطبيعي، والمذهب الحيوى.. وقام بهذا النقد ليدلل على صحة نظريته هو ، ولكن الباحثين تناولوا نظرية (الطوطم) بنقد لا هؤادة فيه ولا رحمة وأتوا على بنية النظرية من القواعد وتلخص نقدهم في الآتى :-

- 1- ليس من المستطاع دائمًا أن نستقى معلومات كافية عن الطبيعة الحقيقية لكاين ما من مجرد النظر في أصل تكوينه فإن التغيرات والنظم التي تحدث له في أثناء نموه قد تبرز فيه صفات وخصائص ما كنا نرى فيها أدنى أثر في بدايته. إن الطبيعة الحقيقية لكاين ما إنما تكون من قانون تطوره منذ نشأته الأولى إلى صورته النهائية ^(١)
- 2- إن التساؤل الذي ييرز هنا هل نظام القبيلة الذي درس "دور كايم" "أحوالهم يمثل دورًا أقدم من نظام الأسرة؟ هذه دعوى يعوزها الدليل بل هناك أدلة أثرية وتأريخية على عكسها ^(٢)

ثم هل قبائل استراليا الوسطى تمثل أقدم نظام معروف للقبائل؟ هذه مسألة غير مسلمة ، وقد قام بهذا الباحث "شمت" حيث أثبت ما قرره الباحثون بما لا يدع مجالاً للشك. أن قبائل استراليا الوسطى لم تكن أقدم جماعة إنسانية إنما هي الطور السادس الذي انتهت إليه العقلية الوطنية لأهل استراليا بل هي أكثرها تقدماً وأحدثها ^(٣)، والمشكلة أن "دور كايم" قد قصر أبحاثه على (الطوطم) في المنطقة الاسترالية المتوسطة ولم يشر إلى أنواع (الطواطم) في شمال أمريكا إلا نادراً بينما المنهج العلمي كان يوجب عليه أن يقوم بدراسة مقارنة مفصلة (للطوطمية) في جميع صورها لا أن يتوقف عند صورة واحدة (للطوطمية)، وهذا ما فعله

(١) الدين ص ١٥٥.

(٢) نفسه ص ١٥٤ / ١٥٥

(٣) نشأة الدين ص ١٧٤

دور كايم "إذ قصر بحثه على منطقة معينة استقى معلوماته عنها من السياح والرجالات. ثم عمم أحکامه على الإنسان البدائي في كل زمان ومكان.

٣- هل البدائيين الذين درس "دور كايم" أحوالهم كان لديهم الشعور بأن ما يقومون به حيال (الطوطم) ورموزه هو تقديس للمجتمع الذي يتتمون إليه؟ مع أن الذي يظهر من بحوث علماء الأنثروباجرافيا أن البدائيين لم يكن لديهم شعور بمثل هذه الحقائق السامية وأن العقلية البدائية ما كانت تستطيع أن تسمو إلى مثل هذه الأفاق في التفكير. من جهة أخرى لا يمكن التسليم بما ذهب إليه "دور كايم" من أن (الطوطمية) تمثل أقدم ديانة إنسانية. إن الطوطمية كانت نظاماً دينياً لبعض شعوب بدائية اكتشفت في صدر العصور الحديثة. وهذه الشعوب ظلت بمعزل عن الحضارات التي ظهرت بين سكان القارات، ولكن هل استمرت تلك الشعوب بمعزل عن تغيير معتقداتها وظلت محافظة على تلك المعتقدات؟ بل إن التسليم بهذا يحتاج إلى دلائل كثيرة تشير إلى عكس ما ذهب إليه "دور كايم"

وعلى فرض أن (الطوطمية) تمثل أقدم ديانة سارت عليها الشعوب البدائية منذ نشأتها فإنه لا يوجد دليل يحمل على اليقين ولا على الظن بأنها كانت الديانة السائدة في فاتحة الإنسانية ولجميع شعوبها على الإطلاق.

وكما يقول الدكتور "عمارة نجيب" كما اتخذت اللوازم والمظاهر الطوطمية دليلاً على عكس هذه الفكرة أى على أن (الطوطمية) لم تكن أصل العقيدة الدينية لأنها نشأت بعد وقت طويل جداً لم يخل من دين وذلك قبل اتساع القبائل ومعرفتها لأنظمة الاجتماعية والقواعد (الطوطمية)^(١)

ويكفي نفس الوقت الاستدلال بهذه اللوازم والمظاهر على وجود رجعية فكرية مماثلة في (الطوطمية) سبقها وحى سماوي مسخه عقل الإنسان وعواطفه^(٢)

(١) الطوطمية للدكتور على عبد الواحد وافي وانظر الإنسان في ظل الأديان ص ١٢٥

(٢) الإنسان في ظل الأديان ص ١٢٥

٤. على أن التساؤل الباهم هل (الوطسمية) نظام ديني أصلاً؟ أو هو نظام اجتماعي فحسب؟ إن الاستقراء الدقيق للعشاير الاسترالية لا يثبت إطلاقاً "فكرة "دور كايم"

لقد اتصلت (الوطسمية) اتصالاً قوياً بحياة العشيرة وبحياة الاتحاد وبحياة القبيلة ثم بحياة الفرد قبل ذلك أو بعد ذلك فالأمر سيان. غير أن الصلة بين عقيدة كل من تلك النظم الاجتماعية أو الأفراد غير واضحة على الإطلاق يسودها الغموض وتكلتها الشبهات أو بمعنى أدق تكاد تكون معدومة، ومن العجيب أن يأتي "دور كايم" و يجعل منها مصدر الحياة الدينية ومنبعها. بينما ينشر هذا العدد الكبير من الباحثين أبحاثاً في ضوء تجارب وأبحاث في استراليا نفسها ينكرون فيها أية صلة بين الطوسمية والعقيدة الدينية^(١)

٥. لقد اعترف "دور كايم" أن عدداً من قبائل استراليا قد وصلوا إلى فكرة الإله الأعلى أو "الإله الأوحد" وأنه كائن أزلٍ أبدى تسير الشمس والقمر والنجوم بأمره وبالجملة فجميع الأمور ترجع إليه ليس فقط في الحياة وإنما بعد الموت حيث يميز هذا الإله بين المحسن والمسئ^(٢)

بعد ظهور هذه الحقائق نرى "دور كايم" يضرب عنها صفحأً وبدلأً من أن يقرر عقيدة التوحيد نراه يدخل في جدال عنيف مع الباحثين الذين ذهبوا إلى أسبقية عقيدة التوحيد وكما يقول الدكتور "دراز" يعترف "دور كايم" بكل هذا. ولكن عند استنباط نظريته في الألوهية يضرب صفحأً عن ذكر هذه الصورة الدينية الحقيقة ثم يعمد إلى ضرب من اللهو والخليع تأتيه بعض القبائل في حفلات تضم كل شيء إلا الدين والعبادة ويترخص فيها بارتكاب أعمال شادة تناهى قواعد الأخلاق المقررة والمتبعة عندهم بانتظام.

(١) الدين ص ١٧٣

(٢) نفسه ص ١٥٦/١٥٧

يعد إلى هذه الحالات الماجنة فيرسم لنا فيها لوحة بارزة يعرضها علينا قائلاً: إذا أردتم معنى الدين فها هنا منبئه ومظهره^(١) هنا التحكم والهوى والرغبة لا الحكم الذي يسنته الدليل وتعضده الحجة. لقد رجع أمراً مشكوكاً فيه على أمر مقرر خاصة أن الذين قدموا من أهل الاختصاص في علم الأنثربولوجيا، و"الإتنولوجيا" بينما "دور كايم" لم يكن من علماء هذين العلمين إنما أقام أبحاثه على دراسات غيره من الباحثين^(٢) ولذلك كان النقد إليه عنيفاً من قبل المختصين وكانت حجتهم مما يصعب الرد عليها من قبل "دور كايم" ومن ذهب مذهبة.

لعلنا قد أسهبنا بعض الشيء في الرد على "دور كايم" ولكن ذلك مرده إلى أنه الأكثر شهرة من غيره من ذهبوا إلى أن الباعث على الدين هو (الوططم)

٦- أما فيما يتعلق "باتايلر" و "ويلكن" فإن ما ذهبا إليه يقوم على فهم خاطئ للديانة (الوططمية) لأنهما ظنا أن (الوططمية) مظهر من مظاهر عبادة الحيوان والنبات مع أن (الوططمية) تختلف اختلافاً جوهرياً عن عبادة الحيوان والنبات. لأن أفراد العشيرة لا يقفون حيال طوطمهم كما يقف عابد الحيوان أو النبات حيال معبوده لأن الذي يعبد الحيوان أو النبات يعتبر نفسه شيئاً حقيقةً إذا قيس بإيمانه على حين أن النظام الطوطمي يجعل الإنسان نفسه من طبيعة طوطمية فالعلاقة بين أفراد العشيرة وفصيلة طوطمها ليست علاقة عباد بالآلهة. بل علاقة أقرباء تربطهم بعضهم البعض وشigraphy الدم ولحمّة النسب الوثيق، ولو كانت الطوطمية متشعبة عن عبادة أرواح الموتى للاعتقاد بحلولها في أجسام بعض الحيوانات أو النباتات كما يذهب "تايلور" و"ويلكن" لما ظهرت في الصورة التي وصفناها بل تظهر في الصورة التي تبادرت إلى ذهنيهما وهي عبادة الكائنات نفسها التي حلّت فيها هذه الأرواح وهذا^(٣) لم يحدث

(١) الدين ص ١٥٧

(٢) نشأة الدين ص ١٧١

(٣) الطوطمية للدكتور على عبد الواحد وافي

٧. أما ما ذهب إليه "جيفوفنس" فإن نظريته تصور (الوطمية) على أنها ناشئة عن عمل إرادى قصد إليه الأفراد لتحقيق غاية نفعية أو وقائية ولو كان الغرض من (الوطمية) أن يتقرب إليها الإنسان لعقد الإنسان هذه الصلة بينه وبين أكبر مظاهر الطبيعة قوة وبطشاً وإثارة للرعب والخوف في نفس الإنسان مع أن الواقع أن معظم هذه (الوطاطم) تتألف من نباتات، وحيوانات ضعيفة لا ترعب ولا تخيف ولا سيطرة لها على حياة الإنسان. وهذا يدل على أن القبيلة والعشيرة اخندوها رمزاً فحسب ولكن أعطوا لها مفهوم القداسة والتعظيم^(١)

نقد القول بأن الバاعث على التدين هو الحب

إن اختزال البااعث على التدين في كونه شعوراً بالحب ينقص مفهوم الدين ويسطه إلى حد كبير. مع أن هذا القول جزء من بواعث متعددة وليس هو البااعث الوحيد كما يريد أنصاره له.

ثم إن الشعور بالحب معنى جميل، ولكن هل يصل إلى درجة يجعل الإنسان يعتقد في الدين، ويرتبط بالمعبود؟ من الممكن أن تكون حالة الحب تلك دافعة للإنسان إلى الطاعة والعبادة، وذلك بعد اعتقاده في دين من الأديان مثل المسيحية أو الإسلام أما أن تحرك هذه العاطفة الإنسان البدائي إلى التدين فهذا فيه نظر ويحتاج إلى تحيص.

نقد القول بأن التجارب النفسية هي البااعثة على التدين

إن أصحاب هذه الفكرة بالرغم من إفاضتهم في شرحها وبيان فلسفتها إلا أن هذه الوجهة لا تنطبق على سائر الديانات وهي أجدر بأن تلتحق بالفكرة الفلسفية منها بالوجهة الدينية. لأنها بلغت حداً كبيراً من التجريد يبعد أن تكون فكرة عالمية في تفسير البااعث على التدين، ومن ثم تستبعد هذه الفكرة على الرغم من عمقها وجدتها لتلتحق بالفلسفة بعيداً عن الدين^(٢) لأن مجال الفلسفة أولى بها عن مجال الدين.

(١) الطومية للدكتور عبد الواحد وافي وانظر الإنسان في ظل الأديان ص ١٧٣ وما بعدها.

(٢) الدين بتصريف ص ١٣٨.

المسألة الرابعة: نقض القول بالتطور في خلق الإنسان

بني دعاء التطور في الدين على مذهب التطور في الكائنات. تلك النظرية التي دعا إليها "ديدرو"^(١) و "لامارك"^(٢) وأخذت شهرتها على يد "دارون"^(٣) ومفاد هذه النظرية أن الكائنات تطور بعضها عن بعض^(٤) وقد صبغت هذه النظرية الحياة الأولية وكان لها تأثير كبير في جميع نواحي الحياة وفسر بها بعض الباحثين نشأة الدين عند الإنسان يقول أحدهم: إننا إذا قبلنا نظرية تطور الإنسان عن بعض الصور الحيوانية الدنيا فإننا مضطرون إلى أن نبحث عن أصل العواطف والبواعث الدينية في تلك الغرائز التي ليست في أصلها دينية بصورة بحثة^(٥).

والتساؤل هنا هل نظرية التطور في الكائنات مسلم بها؟ إننا بحاجة إلى نقض هذه النظرية أولاً ثم ننطلق إلى نقض نظرية التطور في الدين ثانياً.

أولاً: نقض نظرية التطور في الكائنات

إنه ما من أساس من الأسس التي قامت عليها نظرية "دارون" إلا وأبطلها الباحثون سواء من ناحية الحفريات^(٦) أو من ناحية الانتخاب الطبيعي وبقاء الأصلح^(٧). أو من ناحية علم الأجنحة أو علم التشريح. هذه الأساس أصبحت الآن حديث المؤتمرات العلمية التي انتهت إلى أن هناك عمليات تزوير واسعة تمت لصالح نظرية التطور على الرغم من عدم صحتها أصلاً^(٨) وأخيراً ننقل هنا عبارة "آرثر كيث" وهو أحد أرباب الدارونية والمنادين بها يقول: (إن نظرية النشوء والارتقاء غير ثابتة

(١) تاريخ الفلسفة الحديثة ص ١٩١ / ١٩٠ ، الموسوعة الفلسفية. المختصرة ص ١٣٨

(٢) موسوعة الفلسفة ج ٢ ص ٤٨ الدكتور عبد الرحمن بدوى

(٣) تاريخ الفلسفة الحديثة ص ٣٥١

(٤) أصل الأنواع ص ١١٩

(٥) في الدين المقارن ص ٢٧

(٦) انظر خلق لا تطور ص ١٠٧ / ١٠٨ وانظر الإسلام يتحدى ص ٢٩

(٧) انظر العلم يدعو إلى الإيمان وتوحيد الخالق ج ٣ ص ٢٩ / ٨٨

(٨) انظر للأهمية خلق لا تطور لمجموعة من العلماء الغربيين ترجمة إحسان حقي - الناشر دار الفائس بيروت

علمياً ولا سبيل إلى إثباتها بالبرهان ونحن لا نؤمن بها إلا لأن الخيار الوحيد بعد ذلك هو الإيمان بالخلق المباشر وهذا ما لا يمكن حتى التفكير فيه ^(١)

إذن فالقضية لم تعد أمر نظرية علمية، ولكن الأمر أصبح أمر إلحاد وكفر بالله، وأنه لا سبيل أمام أرباب النظرية إلا التسليم بها حتى ولو كانت تفقد الأدلة العلمية لأن السبيل الآخر هو الإيمان بالله وهذا لا يخطر لهم على بال، وبعد هذا وغيره نجد أنفسنا مضطرين لعدم قبول النظرية من الناحية المتعلقة بخلق آدم عليه السلام. مثل قوله تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةَ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّنْ صَلْصَلٍ مَّسْنُونٍ فَلِإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوْحِي فَقَعُوا لَهُ سَعِدِيَنَ﴾ ^(٢) وقوله تعالى ﴿وَعَلَمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلُّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةَ فَقَالَ أَنْبِعُونِي بِأَسْمَاءَ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَدِيقِي﴾ ^(٣) وهذه الآيات وغيرها مثل قوله تعالى ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ ^(٤)

تنفيذ الآتي:-

أولاً: أن آدم خلق بيد الله ولم يتطور عن شيء آخر. ومن نسله جاء الإنسان مستوياً في خلقته مستعداً لقبول هدى الله.

ثانياً: أن آدم خلق وهو في أعلى مراحل النضج البشري لا كما يزعم التطوريون بأن الإنسان البدائي كان في أدنى مراحل المعرفة وكان متواحاً وظل يتعلم من الحيوان إلى أن صار إلى ما هو عليه الآن.

ثالثاً: أن الله خلق من كل شيء زوجين وهو إشارة عجيبة تكشف عن قاعدة الخلق في هذه الأرض بل في الكون كله وحين تدلنا الآية على هذه الحقيقة نجدنا

(١) الإسلام يتحدى ص ٣٩

(٢) سورة الحجر الآية ٢٩/٢٨

(٣) سورة البقرة الآية ٣١

(٤) سورة الذاريات الآية ٤٩

أمام أمر عجيب عظيم. نطلع من خلاله على الحقائق الكونية في هذه الصورة المبكرة كل التبكيت^(١)

بعد هذا كله نرى أن القول بعدم تعارض نظرية^(٢) التطور مع حقائق القرآن فيه تجاوز ليس هناك أى مبرر لقبوله مادامت أن الأدلة القرآنية تدحضها وأيضاً الأدلة العلمية. ونختتم بقوله تعالى «مَا أَشَدَّهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَحِّدَ الْمُحْسِلِينَ عَضْدًا»^(٣)

(١) في ظلال القرآن ج ٦ ص ٢٣٨٥

(٢) انظر مقال الدكتور علم الدين كمال . تطور الكائنات الحية ص ٤٩ . مجلة عالم الفكر المجلد الثالث العدد

الرابع ١٩٧٣ م - الكويت.

(٣) سورة الكهف الآية ٥١

المُسَأَّلَةُ الْخَامِسَةُ: نَفْضُ الْقَوْلِ بِالْتَّطْوِيرِ فِي الْعِقِيدَةِ

نسجل في البداية أن دراسة الإنسان البدائي هي دراسة تقوم على الفتن لا على اليقين.. وهذه الدراسة تقوم على خطأ مزدوج من ناحية الغاية والوسيلة لأن هذه المنطقة البدائية الحضرة قد اعتبرها العلم منطقة حراماً حظرها على نفسه وأعلن في صراحة كاملة خروجها عن حدود عمله فاقتحامها الآن باسم العلم تعامل بصفه مزيف ، وَسَرَّ بثوب مستعار. لأن مؤرخى الديانات على الخصوص معترفون بأن الآثار الخاصة بديانة العصر الحجرى وما قبله لا تزال مجهولة لنا جهلاً تماماً فلا سبيل للخوض فيها إلا بضرب من التكهن والرجم بالغيب^(١)

إن ما نعرفه عن التاريخ الإنساني قبل خمسة آلاف سنة قليل أما ما نعرفه قبل عشرة آلاف سنة فيُعد أقل من القليل^(٢) وما قبل ذلك يعتبر مجاهيل لا يدرى التاريخ عنها شيئاً فما هي معرفة العلماء بـمليونين ونصف مليون عام؟ لقد اكتشف في جبل حجرى بصحراء تقع شرق بحيرة "رودلف" في كينيا بقايا جمجمة وساق يرجع تاريخها إلى مليونين ونصف مليون عام ولذلك تعتبر هذه البقايا أقدم أثر للإنسان الأول^(٣) إن المعلومات التي ورثها الإنسان اختلطت بباطل كثير بل ضاعت في أمواج متلاطمة في محيطات واسعة من الريف والدجل والتحريف . إن كتابة تاريخ شخص فضلاً عن جماعة في العصر الحديث أمرٌ في غاية الصعوبة فكيف بتاريخ يمتد إلى فجر البشرية^(٤) ولذلك جانب الصواب الذين درسوا العقائد البدائية عند جماعة من البشر ثم عمموا أحكامهم على الجنس البشري بأكمله ونستطيع أن نجمل أهم الانتقادات الموجهة إلى القول بالتطور في الدين في الآتى :-

(١) الدين ص ١٠٨

(٢) العقيدة في الله ص ٢٤٥

(٣) انظر مجلة عالم الفكر العدد الرابع المجلد الثالث ص ٩٧٢

(٤) العقيدة في الله ص ٢٤٥

أولاً: إن الاستدلال على ديانة الإنسانية الأولى بديانة الأمم المزعزة المتخلفة عن ركب المدنية خطأ في الاستدلال. لأنه مبني على أن تلك الأمم غير بأدوار مقلبة، وهذا الافتراض لم يقم عليه دليل. بل الذي أثبته التاريخ واتفق عليه المنقبون عن آثار القرون الماضية أن فترات الركود والتقهقر التي سبقت مدنياتها الحاضرة كانت مسبوقة بمدنيات مزدهرة وبالتالي فلا تصلح الأنماط الدينية المنحطة أو الهمجية للاستدلال على نقطة البدء في الدين لأنها تمثل انتكاسات في تاريخ البشرية^(١) وكما يقول "هوفدنج" Hoffding إنه يبعد كل البعد أن ينجح تاريخ الأديان في حل مشكلة بزوغ الدين في النوع الإنساني فإن التاريخ لا يصور لنا هذه البداية الأولى في موضع ما، وكل ما نجده إنما هو سلسلة من صور مختلفة الديانات متقدمة قليلاً أو كثيراً حتى إن أخطر القبائل الهمجية التي نعرفها قد مرت بأدوار شتى وتطورت تطوراً بعيداً^(٢)

ثانياً: إن القول بأن قوى النفس تسير في نموها على قدم المساواة مع تقدم القوى المادية في الحياة. قول ينقصه الدليل وتعوزه الحجة والأقرب إلى الصواب أن الحياة البسيطة التي كان يعيشها الإنسان البدائي كانت تدفعه إلى التأمل الديني، وتنمى مشاعره. بينما اشتغال الناس بترف الحياة الجسدية في العصور الحضارية، هذا الترف يؤدي إلى فتور الناحية الروحية لأن الغرائز المقابلة تضعف وتقلص بقدر ما تنمو وتقوى أضدادها ككفتى الميزان لا ترفع إحداها إلا اخفاضت الأخرى^(٣)

ثالثاً: إن قياس تطور الدين على تطور الفنون والصناعات حجة على الذين يقولون بالتطور لا لهم . لأن معنى التطور في الفنون والصناعات هي أنها تبدأ في صورة بسيطة ساذجة ثم تنتقل تدريجياً إلى نوع من التكثير والتركيب تزداد به تعقيداً كلما بدت عن أصلها وواضح أن تطبيق هذا القانون التطورى بمعناه العلمى الحيوى على العقيدة الإلهية يستوجب أنها سارت أيضاً من الوحدة إلى الكثرة، ومن النقاوة

(١) انظر الدين للدكتور دراز ص ١٠٩ وانظر في الدين المقارن ص ٤٣

(٢) نقلأ عن الدين ص ١٠٩ وانظر الوحدانية ص ٨٠ للدكتور بركات دويدار مطبعة السعادة.

(٣) الدين ص ١١٠

والسهولة واليسر إلى التعقد بالإضافة إلى الأسطورية والنزوات الخيالية التي لا ضابط لها من العقل السليم^(١)

ثم لو كان قياس تطور الدين على التطور في العلوم والصناعات لوجدنا أن إنسان القرن العشرين قد وصل إلى درجة عالية من الاعتقاد والتطور الصحيح للألوهية ولكن هل حدث ذلك؟ الواقع يشهد بعكس ذلك. لقد اخند إنسان القرن العشرين أصناماً عبداًها من دون الله مثل التقدم. والفردية، وتجريد الأمة وأصنام القوة المسلحة وغيرها من طوطم ورموز مقدسة، وطقوس واحتفالات^(٢) ثم هل اندشت معبدات الإنسان البدائي بعد النقلة الحضارية الضخمة؟ إنه وبناءً على التطور يجب أن تتلاشى الوثنيات القدية ولكنها هي الوثنية البغيضة تطل علينا من آسيا وإفريقيا وأمريكا^(٣). هل أتى نبا الهند وتفجيراتها النووية. للذين يقولون بالتطور من الأدنى للأعلى في التدين؟ ما بال الكثرة من سكان الهند يعبدون البقرة ويقدسون كثيراً من مظاهر الطبيعة في القرن العشرين ويموت أكثرهم جوعاً ولا يذبحون بعض الحيوانات ثم ما شأن روسيا والصين والملحدون في أوروبا بعد التقدم العلمي المذهل؟ إنهم مع ما ذكر ما زال الكثير منهم لا يؤمنون بالله ولا يعترفون بالخالق^(٤). بعد هذا كله يصر البعض على القول بالتطور في الديانات من الكثرة إلى الوحدة.

رابعاً: إن هناك حضارات ازدهرت في الأمم وأماكن معينة في الماضي على حين أننا نجد هذه الأمم وهذه الأماكن الآن تمثل ثروذجاً في التدهور والتأخر فهل يصح القول بأن حالة التدهور والتأخر تمثل نقطة البدء لهذه الأمم أو تلك الأماكن؟^(٥) بالضرورة لا. ومن ثم فقد بطل القول بتطور العقيدة من التعدد والوثنية إلى التوحيد.

(١) الدين ص ١١١

(٢) انظر ما يعده به الإسلام ص ٢٦٧ روجيه جارودي، وانظر معركة التقاليد ص ٨٢/٨١

(٣) انظر الإسلام والأديان ص ٣٣

(٤) مقارنة الأديان ص ٤٠/٣٩

(٥) في الدين المقارن ص ٤٣.

إن الحديث عن التطور في العقيدة بضاعة أوربية استنفت أغراضها أو انتهت صلاحيتها. ويجب علينا أن نفهم ونقرر ونعلن أن الدين حقيقة علوية قائمة بذاتها. ظل الإنسان ينهل منها بحسب طاقته واستعداده حتى وصل على يد الرسل إلى أوضح فهم لها في عقيدة التوحيد.^(١) الذي لم يكن هو نهاية الأطوار بل هو البدء والمختتم^(٢) وهو الكلمة الأولى على لسان الأنبياء والكلمة الأخيرة لمحمد صلى الله عليه وسلم وأتباعه إلى قيام الساعة.

خامساً: إن القائلين بالتطور في الديانات لو قصروها على الديانات الوضعية لكان لهم وجه أما أن يعمموا أحكامهم على الديانات الوضعية وغيرها فهذا لا يجوز ولا يأتي. على أن نزعة التوحيد في الديانات الوضعية ليس مردها إلى الإنسان وتفكيره ولكن مردها إلى بقایا الوحی الذي أنزله الله مع الرسل إلى الأمم مصداقاً لقوله تعالى «إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ يَشْهِدُهُ اللَّهُ وَالْمَلَائِكَةُ وَإِنَّ مِنْ أَمْمَةِ إِلَّا خَلَّ فِيهَا تَنْذِيرٌ»^(٣)

(١) في النفس والمجتمع ص ١٦ - محمد قطب دار الشروق

(٢) الأديان في القرآن ص ٣٢ الدكتور محمود بن الشريف الطبعة الثالثة دار المعارف ١٩٦٣ م

(٣) سورة فاطر الآية ٢٤

المسألة السادسة: مناقشة العقاد في قوله بالتطور في العقيدة

استناداً على قصة إبراهيم عليه السلام في سورة الأنعام تابع الأستاذ العقاد الاتجاه القائل بأن الإنسان تطور في التدين من التعدد إلى الوحدة وينبغى هنا أن نقرر أن متابعة العقاد لم يكن لهم على طول الخط. لأنهم حين قالوا بأن الإنسان مصدر الدين وذكروا البواعث عليه. لم يقولوا بأنه انتهى إلى التوحيد الذي جاء به الرسل. لأن غالبيتهم لا يؤمنون بالله أصلاً. أما الأستاذ العقاد فإنه تابعهم في القول بأن بداية الدين التعدد. ثم توصل الإنسان إلى التوحيد الذي جاء به الرسل. واستدل بقصة إبراهيم عليه السلام الواردة في قوله تعالى ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ الَّيْلُ رَأَ كَوْمَكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْأَفَلِبِرَ﴾ (١) ﴿فَلَمَّا رَأَهُ الْقَمَرَ بَارِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لِئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأُكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (٢) ﴿فَلَمَّا رَأَهُ الشَّمْسَ بَارِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَقُولُ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشَرِّكُونَ﴾ (٣) ﴿إِنِّي وَجَهْتُ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَيْنَا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشَرِّكِينَ﴾ (٤)

كانت هذه الآيات هي التي استدل بها العقاد على التطور في العقيدة "يقول فديانة الشمس كانت الخطوة السابقة لخطوة التوحيد الصحيح لأنها أكبر ما تقع عليه العين وتعلل به الخلقة والحياة فإذا دخلت هي أيضاً في عدد المخلوقات فقد أصبح الكون كله في حاجة إلى خالق موحد للأرض والسماء والكواكب والأقمار، وينطبق هذا الترتيب تماماً الانطباق على فحوى قصة إبراهيم في القرآن ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ الَّيْلُ﴾ (٢)

والسؤال الآن هل فعلاً هذه الآيات تدل على التطور في العقيدة والانتقال من الوثنية إلى التوحيد كما ذهب العقاد؟ إن الإجابة على هذا السؤال تكمن في استعراض ما قاله العلماء في تفسير هذه الآيات.

(١) سورة الأنعام الآية ٧٨، ٧٦

(٢) الله - كتاب في نشأة العقيدة الإلهية ص ٣٧/٣٦. دار المعرفة ١٩٦٣ م

يقول الزمخنثري عن إبراهيم عليه السلام " كان أبوه آزر وقومه يعبدون الأصنام والشمس والقمر والكواكب فأراد أن ينبههم على الخطأ في دينهم وأن يرشدهم إلى طريق النظر والاستدلال ويعرفهم أن النظر الصحيح مؤد إلى أن شيئاً منها لا يصح أن يكون إليها لقىام دليل الحدوث فيها وأن وراءها صانعاً صنعوا ومدبراً دبر طلوعها أما قوله (هذا ربي) فهذا قول من ينصف خصمه مع علمه أنه مبطل فيحكي قوله غير متبعض لمنهبه لأن ذلك أدعى إلى الحق وأنجي من الشغب ثم يكر عليه بعد حكايته فيبطله بالحججة ^(١) (إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات) أى للذى دلت هذه المحدثات عليه وأنه مبتدئها ومبتدعها. ثم يتساءل الزمخنثري بقوله " فإن قلت لم احتج بالأفول دون البزوغ وكلاهما انتقال من حال إلى حال ؟ قلت الاحتجاج بالأفوال أظهر لأنه انتقال مع خفاء واحتجاج ^(٢)"

ويعلق ابن المنير السكندرى على عبارة الزمخنثري بقوله " وهذه أيضاً من عيون نكته ووجوه حسانه " ^(٣)

أما الفخر الرازى فيقرر أن إبراهيم ما كان شاكاً وإنما أراد أن يثبت لقومه أن الإله واحد وأن ما يعبدونه من دونه ليس لهم عليه حجة ويحشد الرازى الأدلة لإثبات أن إبراهيم كان يدعى قومه بعد أن دعا آباء إلى التوحيد وأن هذه الواقعة حدثت بعد أن أرأاه الله ملوك السموات والأرض ثم يقول " ومن كان منصبه في الدين كذلك وعلمه بالله كذلك فكيف يليق أن يعتقد بإلهية الكواكب " ^(٤)

وحجة أخرى يسوقها " الرازى " وهى أن هذه الواقعة إنما حصلت بسبب مناظرة إبراهيم عليه السلام مع قومه والدليل عليه أنه تعالى لما ذكره هذه القصة قال سبحانه **﴿وَتَلَكَ حُجَّتُنَا إِنَّنَاهَا إِنَّرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ﴾** ^(٥) ولم يقل على نفسه . ثم يقول

(١) الكشاف ج ٣ ص ٣١ وانظر الألوسى ج ٧ / ٨ ص ١٩٨ / ١٩٩

(٢) الكشاف ج ٢ ص ٣٢

(٣) هامش الكشاف ج ٢ ص ٣٢

(٤) التفسير الكبير للرازى ج ١٢ / ١٤ ص ٤٧ - ٤٨

(٥) سورة الأنعام الآية ٨٣

فلنعلم أن هذه المباحثة إنما جرت مع قومه لأجل أن يرشدهم إلى الإيمان والتوحيد لا لأجل أن إبراهيم كان يطلب الدين والمعرفة لنفسه ^(١)

أما تحرير قوله (هذا ربي) فيذكر "الرازى" أن هذا ليس على سبيل الإخبار وإنما على سبيل الملاحظة. كمن يعبر عن شبهة الخصم بلفظها حتى يرجع إليه فيبطلها أو يقال إن المراد منه الاستفهام على سبيل الإنكار إلا أنه أسقط حرف الاستفهام استغناء عنه لدلالة الكلام عليه أو ذكره على سبيل الاستهزاء كما يقال لذليل ساد قوماً هذا سيدكم على سبيل الاستهزاء ^(٢) وكلها محاولات عقلية تؤيد الأدلة النقلية التي تدل على توحيد إبراهيم أولاً ثم مجادلته لقومه.

أما "الشهر ستانى" فقد أبدع في استبطاط دلائل التوحيد من هذه الآيات على لسان سيدنا إبراهيم عليه السلام. يقول الشهر ستانى "بعد إيراد قوله تعالى ﴿فَلَمَّا
رَأَاهَا الْقَمَرَ بَارِزًا غَرَّا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَّلَ قَالَ إِنَّ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَا كُوَنَّ مِنْ
الْقَوْمِ الْأَضَالِّينَ﴾ ^(٣) فيا عجباً من لا يعرف رباً كيف يقول (لئن لم يهدنِي ربي
لَا كُوَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الْأَضَالِّينَ) رؤية الهدى من رب تعالى غاية التوحيد ونهاية

المعرفة، والواصل إلى الغاية والنهاية كيف يكون في مدارج الهدى ^(٤)
ويخرج قوله ^{﴿فَلَمَّا رَأَهَا الشَّمْسَ بَارِزَّةً غَرَّا قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ﴾} ^(٥) بقوله "إن
الموافقة في العبارة على طريق الإلزام على الخصم من أبلغ الحجج وأوضح
المناهج" ^(٦) ويعُدُّ هذا شاف كاف ^(٧) وبين ما استملت عليه هذه الآيات وما قام به
إبراهيم عليه السلام من بيان الحججه لقومه وإلزامهم إياها فيذكر أنه أى إبراهيم "قرر
مذهب الخنفاء وأبطل مذاهب الصابئة، وبين أن الفطرة هي الخinيفية، وأن الطهارة
فيها، وأن الشهادة بالتوحيد مقصورة عليها وأن النجاة والخلاص متعلقة بها. وأن

(١) نفسه

(٢) نفسه ج ١٣ / ٤٩ ص ٥٠

(٣) سورة الأنعام الآية ٧٧

(٤) الملل والنحل للشهر ستانى ص ٣٠٧

(٥) سورة الأنعام الآية ٧٨

(٦) الملل والنحل ص ٣٠٧ ومنهج الشهر ستانى ص ٥٧١

(٧) نفسه

الشائع والأحكام مشارع ومناهج إليها، وأن الأنبياء والرسل مبعوثون لتقريرها وتقديرها، وأن الفاتحة والخاتمة والبدأ والكمال منوطة بتحصيلها وتحريتها (ذلك الدين القيم) والصراط المستقيم والنهج الواضح والسلوك اللائح قال تعالى لنبيه المصطفى ﷺ: **﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلَّذِينَ حَنِيفَ فِطَرَ اللَّهُ أَنْتَ فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِعَلْقَلِ اللَّهِ ذَلِكَ الْقِيمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾** * **﴿مُبَيِّنِ إِلَيْهِ وَأَنَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الْصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾** * **﴿فَرِقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شَيْعَةً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾** ^(١) يا لها من شفافية مطلقة كشف عنها الشهر ستانى بأوضح عبارة وأجملها وأوجزها وزين كلامه وطلى حجته باستدلاله الموفق بقول الله تعالى (فأقم وجهك للدين حنيفاً) فهذا القول هو الفصل والحكم الذى لا معقب له.

وقد سار على هذا النهج ابن كثير رحمة الله. إذ يقرر أن إبراهيم عليه السلام في هذا المقام كان مناظراً لقومه مبيناً لهم بطلان ما كانوا عليه ثم يتساءل كيف يكون إبراهيم ناظراً في هذا المقام وهو الذي قال الله في حقه **﴿وَلَقَدْ ءاَتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلِ﴾** ^(٢) وقال **﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾** ^(٣) وقال **﴿مِلَّةً إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾** ^(٤)

إن إبراهيم أولى الناس بالفطرة السليمة والسجية المستقيمة بعد رسول الله ﷺ بلا شك ولا ريب، وما يؤيد هذا أنه كان مناظراً لقومه قوله تعالى **﴿وَحَاجَهُ قَوْمُهُ﴾** ^(٥) وقد أنكر الطبرى على من خرج المناظرة وأنها كانت إقامة الحجة على قوم إبراهيم منه وانتصر لما روى عن ابن عباس وعمن روى عنه من أن إبراهيم قال للكرافك هذا ربى، وبعد أن عدد ما استدل به الذين أجروا الآية على ظاهرها قال " وفي خبر الله تعالى عن قول إبراهيم حين أفل القمر (لئن لم يهدنى ربى لا تكون من القوم الضالين) الدليل على خطأ هذه الأقوال (الذين صرفوها عن ظاهرها) وأن

(١) سورة الروم الآية ٣٢-٣٠ وانظر الملل والنحل ص ٢٠٧-٢٠٨

(٢) سورة الأنبياء الآية ٥١

(٣) سورة النحل الآية ١٢٠

(٤) سورة البقرة الآية ١٣٥

(٥) سورة الأنعام ٨٠ وانظر تفسير ابن كثير ج ٢ ص ١٥١-١٥٢ وانظر مختصر تفسير البغوى ج ١ ص ٢٥٩

الصواب من القول في ذلك في الإقرار بخبر الله تعالى الذي أخبر عنه والإعراض
عما سواه^(١)

والذى دعا الطبرى (عليه رحمة الله) إلى هذا القول ما روى من آثار عن ابن عباس ، قوله (لئن لم يهدنى) ولكن الرازى (رحمة الله) قال " لا يمكن حمل لفظ الهدایة على التمکین وإزالة الأعذار ونصب الدلائل لأن كل ذلك كان حاصلاً . فالهدایة التي يطلبها بعد حصول هذه الأشياء لابد وأن تكون زائدة عليه^(٢) ويكون معنى لئن لم يهدنى ربى " لئن لم يثبتنى ربى على الهدى . ليس لأنه لم يكن متهدىأ لأن الأنبياء لم يزالوا يسألون الله تعالى الثبات على الإيمان^(٣)

وأخيراً بعد عرض هذا الحشد من الأدلة يتضح تماماً أن إبراهيم لم يكن شاكاً ولا معتقداً في النجوم أولاً ثم في القمر ثانياً ثم في الشمس قبل أن يصل إلى التوحيد ولا أدرى كيف غابت هذه المعانى كلها عن الأستاذ العقاد (غفر الله له) وهو صاحب العقلية الكبيرة في الدفاع العقلى عن الإسلام؟ اللهم إلا متابعته للغربيين في هذا الشأن ، وخطورة متابعة الغربيين في القول بالتطور حتى وإن انتهى إلى القول بالإله الواحد . أتنا ما دمنا قد سمحنا لأنفسنا بقبول التطور في الدين فما المانع أن يأتي وقت تتطور فيه فكرة الإله ذاته . إلى فكرة غيره قد لا تمت إلى الدين بصلة .

يصور ذلك الأستاذ محمد قطب بقوله " إذا كانت الحياة تتطور من الخلية الواحدة إلى الإنسان المعقد الشديد التعقيد فماذا يمكن أن يكون ثابتاً على وجه الأرض؟ إن فكرة " الإله تطور في تفكير البشرية إنها ليست فكرة أزلية ثابتة كما يصورها الدين . لقد تطورت من قبل ويمكن اليوم أن تتطور . كانت عبادة للوالد وعبادة للطوطم ، وعبادة لقوى الطبيعة المختلفة ثم صارت عبادة لله ولكنها يمكن أن تتطور . يمكن أن تكون عبادة لأى شئ آخر "^(٤) وهذا ما حدث بالفعل وينادى بها الآن البعض باسم

(١) تفسير الطبرى ج ١١ ص ٤٨٣ / ٤٨٤ - ٤٨٥ تحقيق أحمد شاكر و محمود شاكر . طبعة دار المعرف .

(٢) التفسير الكبير للرازى ج ١٤ / ١٣ ص ٥٦

(٣) مختصر تفسير البغوى ج ١ ص ٢٥٩ / ٢٦٠

(٤) التطور والثبات ص ٢١ محمد قطب دار الشروق

العلم والتقدم والتطور يقول "جوليان هكسلى" : لقد انتهت العقيدة الإلهية إلى آخر نقطة تفينا و هي لا تستطيع الآن أن تقبل أية تطورات. لقد اخترع الإنسان قوة ما وراء الطبيعة لتحمل عبء الدين جاء بالسحر ثم بالعمليات الروحية ثم العقيدة الإلهية حتى اخترع فكرة (الإله الواحد) وقد وصل هذا الدين بهذه التطورات إلى آخر مراحل حياته ولا شك أن هذه العقائد كانت في وقت ما جزءاً مفيدةً من حضارتنا ييد أن هذه الأجزاء قد فقدت اليوم ضرورتها ومدى إفادتها للمجتمع الحاضر والتطور ^(١) إن التعبير هنا عن الإنسان الذي اخترع الدين بدايةً من السحر ونهايةً إلى فكرة الإله الواحد. ولكن ما دام الأمر خاضعاً للتطور. فإن فكرة الإله الواحد التي اخترعها الإنسان لم تعد مناسبة للمرحلة التي وصل إليها العلم والإنسان ومن ثم فإن الفائدة تكمن في تجاوز هذه الفكرة وتلك المرحلة والبحث عن شيء آخر يسد الفراغ إلى حين. ثم يتجاوز إلى شيء آخر وهكذا دواليك. هذا هو تصور الغربيين للتطور الذي تأثر به ماركس في قوله "إن إزالة الدين بوصفه السعادة الوهمية للشعب هي الشرط الوحيد لتحقيق سعادته الحقيقة" ^(٢) وعبر عنه إنجيلز بقوله " تكمن أصول الديانة في النظريات المحدودة الجاهلة التي تنشأ في حالة الهمجية" ^(٣)

وكما يقول أستاذنا الدكتور بخيي هاشم "إن تطبيق فكرة التطور على الدين تؤدي منطقياً إلى ما ذهب إليه "فويرباخ" من الاعتراف بالدين على أنه من وضع الإنسان والقول بأن فكرة "الله" نفسها ليست سوى مثل أعلى متغير وضعه الناس لأنفسهم سداً لحاجات ما يسميه " التجربة الدينية" ^(٤) وفكرة التطور تلك - يواصل أستاذنا - تؤدي بالضرورة إلى تكذيب النصوص الدينية التي تقرر سمو التصور الدينى عند سيدنا آدم عليه السلام ، و تقرر استحالة قبول تعدد الآلهة في أي عصر من عصور النبوة كما تقرر وحدة الدين عند الله (إن الدين عند الله الإسلام) وقد تطبق هذه

(١) الإسلام يتحدى ص ٣٨ - ٣٩

(٢) موسوعة الفلسفة ج ٢ ص ٤٢٠

(٣) أصول الفلسفة الماركسيّة ج ٢ ص ٢٤٢

(٤) تكوين العقل الحديث ج ٢ ص ١١٩

النظيرية أولاً تنطبق على الأديان الوضعية أما الدين الذي هدى الله إليه الإنسان منذ آدم عليه السلام فلا يقبل هذه النظيرية على أى حال من الأحوال وإنه لمن العبث في تقديرنا ، وفي تقدير كل منصف أن تُتَخَذ هذه النظيرية المتهافة أساساً تفسير في ضوءه الحقائق الدينية الإلهية مهما تكن صعوبات هذا التفسير أو استحالاته في كثير من النقاط الرئيسية وإن كان من الجائز أن تَتَخَذ أساساً لتفسير الأديان الوضعية" والله در ما قاله وقاله غيره من الذين يضعون الأمور في نصابها الصحيح مهما كانت الأصوات العالية التي تنادي بغير ذلك^(١)

(١) الإسلام والاتجاهات العلمية ص ٧٢ - ٧٣

الفصل الثالث

مصدر الدين و بواسعه الدين عذن بصور المسلمين

المبحث الأول:

القرآن الكريم وحديثه عن مصدر الدين

تمهيد:-

ذكرنا أن هناك اتجاهين رئيسيين في مصدر الدين والباعث عليه. وقد عرضنا الاتجاه القائل بأن الدين مصدره الإنسان وهناك اتجاه آخر يذهب إلى أن الدين مصدره الله وهذا الاتجاه يقرر أن العقيدة الدينية لم يسر إليها الإنسان بل سارت هي إليه وأنه لم يصعد إليها بل نزلت عليه وأن الناس لم يعرفوا ربهم بمحجة العقل بل بنور الوحي^(١)

وهذا قول جمهور أهل السنة والجماعة ونفرٌ من الباحثين الغربيين انتهوا بعد دراساتهم إلى أن عقيدة الخالق الأكبر هي أقدم ديانة ظهرت في البشر وأن الوثنيات إن هي إلا عرض طارئ ومرض متطفل بجانب هذه العقيدة العالمية ومن أبرز الباحثين الغربيين في هذا الاتجاه "شننج" الذي ذهب في كتابه "فلسفة الميتولوجيا" إلى أن فكرة عن التوحيد غامضة وغير واضحة كانت تسود الإنسانية الأولى^(٢)

وكان منهم "لانج" Anderelang الذي كان ظهور مذهبة مؤذنا بعهد جديد في تاريخ الأديان والأجناس فقد بشر بقوة بأن أقدم ديانة في الوجود هي ديانة إله السماء وعنها تشعبت الأديان . وقد أثارت آراء لانج دهشة كبرى في الأوساط العلمية السائدة في ذلك الحين. وهاجمها كثير من علماء أوروبا في ذلك الوقت^(٣) كما يقرر الدكتور النشار.

(١) الدين ص ١٦٤

(٢) نشأة الدين ص ١٧٩

(٣) نفسه ص ١٨١ ، ١٨٤ ، ١٩١

ومنهم "ويليم شميد" الذى درس أحوال القبائل ومعتقداتها فرأى أن عقائد هذه القبائل الوثنية ترجع بعد تحليلها وتشريحها إلى عقيدة الإله الواحد^(١)

ولكن يجب أن نخاطب فى عرض آراء الغربين الذين يذهبون إلى القول أن الإنسان بدأ موحداً. ثم انتكس إلى التعدد والوثنية وهذا التحفظ مرده إلى أمرين :
الأول : أن التوحيد الذى يقولون به لا ينسبونه إلى السماء عن طريق الأنبياء .
إنما يدرسون القبائل وعاداتها وتقاليدها فهو توحيد مختلط بالوثنية.

الثانى : أنهم يدرسون هذا الدين. فى دراسة الشعوب المتأخرة والأمم الغابرة .
وهذه الدراسة لا يملكون وسائلها .

يقول العلامة الدكتور دراز وهو بصدق التعليق على القائلين بالتطور والقائلين بالفطرة يقول رحمة الله عليه " غير أنه مهما تتفاوت النتائج فى نظر المذهبين " التطوري والفطري " فإنهما متفقان على موضوع البحث وهو تحديد صورة العقيدة " البدائية " الحقيقة وعلى منهاجه وهو دراسة الشعوب المتأخرة والأمم الغابرة ونخن نرى أن وضع المسألة على هذا الوجه ومحاولة حلها من هذا الطريق ينطوى على خطأ مزدوج فى الغاية وخطأ فى الوسيلة "^(٢)

وبعد أن يدلل على خطأ الفريقين يقرر أن الغرض الذى بنيت عليه البحوث الحديثة كلها أثبتت على جرف هار لا تطمئن عليه الأقدام ^(٣). ومعه الحق فيما ذهب إليه .

ولذلك فتحن إنما نذكر هذه الأقوال للغربين على سبيل الاستئناس فقط ويبقى عندنا المصدر الحق الذى نستقى منه الحديث عن مصدر الدين والباعث عليه وحقيقة المعبد الذى توجه إليه الإنسان قديماً. على امتداد التاريخ وكيف ظهر الالخاراف . كل هذه الأمور تحدث عنها الإسلام .

(١) المفصل فى تاريخ العرب ج ٦ ص ٣٦ وما بعدها الدكتور جواد على .

(٢) الدين ص ١٠٨

(٣) نفسه ص ١٠٩

حديث القرآن الكريم والسنة عن مصدر الدين

إن تاريخ العقيدة الدينية قسم منه لم يقع على الأرض بل حدث في السماء ولذا فإن الرأي الصواب هو أن نتلمس حقيقة الدين ومصدره من الخالق سبحانه وتعالى الذي فصل لنا حالة الإنسان الأول وتدبره . يقول سبحانه وتعالى ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَنْجَعْلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدَّمَاءَ وَنَحْنُ نُسْبِحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾^(١)

ويقول سبحانه ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةَ اسْجُدُوا لِلْأَدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْرِيزَ لَمْ يَسْجُدْ وَأَسْتَكَبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَفَرِينَ ﴾^(٢) وَقُلْنَا يَتَعَادُمُ أَسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغْدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونُنَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾^(٣) فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا أَهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقْرٌةٌ وَمَتَّعْ إِلَيْ حِينِ ﴾^(٤) فَتَلَقَّى إِدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ الْتَّوَابُ الْرَّحِيمُ ﴾^(٥) فَلَنَا أَهْبِطُوا مِنْهَا حَيْكًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبَعَ هُدَى فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ مُنْخَرِثُونَ ﴾^(٦)

هذه الآيات تقرر الآتي :-

أولاً: أن الحق سبحانه وتعالى قبل أن يخلق آدم قضى أن يكون خليفة في الأرض يخلف الله فيها بمنهجه الحق والتوحيد.

ثانياً: أن الله عز وجل خلق آدم وهو في قمة النضج العقلي والمعرفي بدليل أن الله علمه الأسماء أى اسم كل شيء كما يقول ابن عباس^(٧). وهذه الأسماء لم يعرفها الملائكة وعرفها آدم وأنبا الملائكة بها ...

ثالثاً: أنه منذ خلق آدم حواء وهناك أمر ونهى تمثل في إباحة الجنة له بما فيها من الطيبات باستثناء شجرة مخصوصة . لا يعلمها إلا الله وحذرها من الشيطان الذي

(١) سورة البقرة الآية ٣٠

(٢) سورة البقرة الآية ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨ .

(٣) مختصر تفسير البغوى ص ١٩

أظهر العداوة المبكرة لآدم عليه السلام حين امتنع عن السجود له مع بقية الملائكة امثلاً لأمر الله.

رابعاً: أن الله أهبط آدم من الجنة بعد أن نسى ما عهد به الله إليه، وعده الله بأن يُنزل عليه وعلى ذريته هداه كي يعرف الإنسان بربه ومنهجه وتشريعه ووعد المحتدين بالسعادة في الدنيا والفوز في الآخرة أما المكذبين المعرضين فأوعدهم النار خالدين فيها.

خامساً: تدلنا هذه الآيات وغيرها أن مصدر الدين هو الله وأن الإنسان الأول نزل بالوحى والهداية والتوحيد وأن الباعث له على التدين هو الفطرة التي أودعها الله فيه، وجعله مستعداً لقبول الهدى والخير^(١)

(١) انظر العقيدة في الله ص ٢٤٥ ، ٢٤٦ وانظر الإسلام والأديان ص ٢٤ وانظر دعوة التوحيد ٧٩ و٩٢ وانظر ظلال القرآن ج ١ ص ٥١.٥٥

المبحث الثاني

البواعث على التدين عند جمهور المسلمين

آدم وذريته الأولون كانوا على التوحيد

سبق وأوضحتنا أن الله أنزل آدم. ومعه الهدى الذي من اتبعه لا يضل ولا يشقى ومن يعرض عنه فإن له معيشة ضنكًا، وحدثنا هنا عن ذرية آدم المتقدمين. هل عبدوا الإله الواحد أو بدأوا وثيين؟

جمهور أهل السنة على أن آدم وذريته كانوا على التوحيد ليس فقط في حياة آدم وإنما استمروا على التوحيد فترة طويلة تقدر بعشرة قرون. واستدلوا على هذا الرأي بعدة حقائق نعرضها في المسائل التالية: ..

المسألة الأولى: فطرة الله التي خلق الناس عليها والميثاق الذي أخذه عليهم.

يقول تعالى ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلَّدِينِ حَيْنِفَاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الَّدِينُ الْقَيْمَ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾^(١)

وقد اتفق جمهور المفسرين على أن المراد بالفطرة الإسلام والتوحيد الخالص له سبحانه يقول الطبرى ﴿ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ صبغة الله التي خلق الناس عليها قال أهل التأويل عن ابن وهب عن ابن زيد في قوله ﴿ فِطْرَتَ اللَّهِ ﴾ قال الإسلام منذ خلقهم الله من آدم جمياً يقررون بذلك وقرأ ﴿ وَإِذَا أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتِهِمْ وَأَشَهَدُهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَّا سُتُّ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهَدْنَا ﴾^(٢)

ويقول ابن كثير عند تفسيره الآية ﴿ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ إنه تعالى فطر خلقه على توحيده ومعرفته وأن لا إله غيره^(٣)

ويؤيد ما ذهب إليه المفسرون ما رواه البخارى بسنده عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كمثل البهيمة هل ترى فيها من جدعاء ؟"^(٤)

يقول ابن حجر " وأشهر الأقوال أن المراد بالفطرة الإسلام . قال ابن عبد البر وهو المعروف عند عامة السلف ، وينقل عن القرطبي في المفهوم ما يؤيد أن المراد بالفطرة الإسلام والدين الحق^(٥) .

ويؤيده ما رواه مسلم بسنده عن عياض بن حمار المجاشعي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ذات يوم في خطبته " ألا إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتكم ما

(١) سورة الروم الآية ٣٠

(٢) سورة الأعراف الآية ١٧٢

(٣) تفسير الطبرى المجلد العاشر ص ٢٦/٢٧ دار المعرفة وانظر الرازى ج ٢٦/٢٥ ص ١٢٠

(٤) فتح البارى ج ٣ ص ٣٩٣ / ٣٩٤

(٥) نفسه ج ٣ ص ٣٩٣ / ٣٩٤

علمى يومى هذا. كل مال تَحَلَّتْ عَبْدًا حلال. وإنى خلقت عبادى حنفاء كلهم وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً^(١) وهذا الحديث أصل عظيم فى الدلالة على أن الناس كلهم منذ آدم عليه السلام كانوا على الخنيفية أى الإسلام وقيل كانوا مستقيمين متبيين لقبول الهدى أى قوله (وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم) أى استخفوه فذهبوا بهم وأزالوه عن دينهم (وإنهم أتتهم الشياطين معهم فى الباطل كذا فسره الهروى فى رواية فاختالتهم أى يحبسونهم عن دينهم ويصدونهم عنه^(٤))

ومن الآيات التى يستدل بها على أن الناس كانوا على التوحيد وأنهم فطروا عليه قوله تعالى ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشَهَّدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَّا سُنْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهَدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴾^(٢)

يقول ابن كثير " إن المراد بهذا الإشهاد هو إنما فطراهم على التوحيد كما فى حديث أبى هريرة ما من مولود إلا ويولد على الفطرة . ولهذا قال من بنى آدم ولم يقل من آدم ، وقال من ظهورهم ولم يقل من ظهره . والمراد أن الله جعل نسلهم جيلاً بعد جيل وقرناً بعد قرن ، ودل على أنهم فطروا على التوحيد ولهذا قال أن تقولوا أى لثلا تقولوا يوم القيمة إننا كنا عن هذا " أى التوحيد غافلین^(٤)

ويذكر " القاسمى " أن الله فى هذه الآية أخبر أنه فطر الخلق كلهم على معرفته بفطرة التوحيد حتى من خلق مجنوناً مطبقاً لا يفهم شيئاً ما يحلف إلا به ولا يلهم لسانه بأكثر من اسمه المقدس فطرة بالغة^(٥)

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ج ١٦ / ١٩٧ ص ١٩٧ باب الصفات التى يعرف بها فى الدنيا أهل الجنة وأهل النار

(٢) نفسه

(٣) سورة الأعراف الآية ١٧٣ . ١٧٢

(٤) تفسير ابن كثير ج ٢٦٣ / ٢٦٤ وانظر مختصر تفسير البغوى ج ١ ص ٣٢٢ / ٣٢٣

(٥) محسن التأويل للقاسمى ج ٥ ص ٢٩٧ / ٢٩٨ دار الفكر

وعلى نفس النهج سار صاحب المدار حيث ذكر عشرة وجوه للدلالة على أن هذا الإشهاد بالفطرة والرسل لا وجه بعده في إقامة الحجة على من أشرك ^(١) إن دلالة الفطرة على وجود الله ووحدانيته تحل لنا كثيراً من الأمور التي نبحث لها عن حل سواء على مستوى الفرد أو على مستوى الجماعة.
أولاً: على مستوى الفرد

إن أى إنسان ملحد بالتأمل في حياته نجد أنه يتمدد على الاعتقاد في وحدانية الله طالما أنه غارق في نعيمه سبحانه يقول سبحانه ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَنَ لَيَطْغَىٰ﴾ ^(٢) أى رَءَاهُ أَسْتَغْنَىٰ ^(٣) أى ليتجاوز حده ويستكبر على ربه أن رأى نفسه غنياً قال الكلبي: يرتفع عن منزلة إلى منزلة في اللباس والطعام وغيرهما ^(٤)
يظل هكذا معرضاً حتى إذا أدركته نعمة الله وبلاه ليصحو من غفلته بنقمة قارعة تبدد بها وسائل الاستغناء عن الله كأن يتعرض لحريق عاصف أو غرق يائس فإن الحوائل التي كانت تحول بينه وبين فطرته تسقط تلقائياً، ويجد نفسه وجهاً لوجه أمام حقيقة الاعتراف بوجود الله ووحدانيته ^(٥). لأن الدافع الفطري أو الإحساس بأن الله هو المنفذ عميق وقوى ومسيطر على النفس البشرية، ويظهر هذا الشعور حين يمس الإنسان أدنى بلاء ^(٦)

ثانياً: على مستوى الجماعة والشعوب

فإن التأمل في أحوالهما في جميع مستوياتها وأطوارها الاجتماعية يجد أنها تعتقد عقيدة في الله مما يدل على أن ذلك أمر مفظور عليه البشر وإن الالخارف الذي تتعرض له الشعوب إنما هو نوع من تشويه الفطرة يقودها إلى الشرك بالله لا إلى إنكار وجوده أو هو من الكبت يقودها إليه طائفة من الحكام يريدون لها أن تهبط من عبودية الله إلى عبودية البشر ^(٧)

(١) انظر تفسير المدارج ٩ ص ٤٠١ - ٤٠٠ دار المعرفة للطباعة والنشر.

(٢) انظر مختصر تفسير البغوي ج ٢ ص ١٠٢٥ والأية من سورة العلق الآية ٦، ٧

(٣) انظر مختصر تفسير البغوي ج ٢ ص ١٠٢٥

(٤) انظر المنهج القرآني ص ٨٨ / ٨٩ للأستاذنا الدكتور عبد الله الشاذلي وانظر نهاية الأقدام للشهر الثاني ص ١٢٤، ١٢٥

(٥) انظر مدخل إلى العقيدة ص ١٣٨ للأستاذنا الدكتور يحيى هاشم

ولكن تظل مع ذلك كله الفطرة كقوة غلابة لا تزيدها المقاومة إلا عنفاً واشتعالاً إن قوة الفطرة لا حد لها فهى ما إن مسها إزاء الكون الهائل والدقيق المتمثل في تفصيلات الأجرام وتنظيماتها ودورة أفلاتها من يوقيتها استيقظت كالعملاق وقد يكون ذلك الشيء روعة يحسها الإنسان. وقد يكون لحظة من يقظة الوجود أو أزمة من الأزمات مثل الموت الذى يروع الحس البشرى ويلجئه للبحث عن واهب الحياة. ثم هناك روعة حدوث الأحداث: الليل والنهر الزمان والمكان والموت والحياة والصحة والمرض والغنى والفقير واللذة والألم والسعادة والشقاء كلها توقعات يوقعها خالق الكون على الحس البشرى فتوقظ فطرته إلى الله.

والإسلام يقيم نظامه كله على هاتين الحقيقتين المتقابلتين:

حقيقة وجود الخالق ، وحقيقة توجه الفطرة إليه فهو ينبع الإنسان عقيدة في الله تلبى فطرته المتوجهة إلى الله ، وتصبح الفطرة وتقومها من خلالها إن ضلت عن حقيقة الله. عقيدة تلبى حاجة الإنسان الفطرية إلى الله ، و حاجاتها الفطرية إلى عبادته و حاجاتها الفطرية إلى التعرف على مركزها من الحياة والكون وعلى حقيقة الصلة بينها وبين الله ^(١)

(١) انظر الدين للدكتور دراز ص ٩٥ وانظر المعالجة القيمة للأستاذ محمد قطب . التطور والثبات ص ١٨٣ ، ١٨٤ وانظر الدين والفطرة في كتاب دراسات في النفس الإنسانية

المسألة الثانية: استمرارية التوحيد من آدم إلى نوح عليه السلام

من الآيات ذات المغزى العميق والدلالات الواضحة على أن الأصل هو توحيد الله سبحانه وتعالى، وأن الطارئ هو الشرك والوثنية عكس ما يقوله التطوريون قول الله تعالى ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيًّا مُّبَشِّرًا وَمُنذِرًا وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحُكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا أَخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا أَخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُواهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبِيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ أَمْنَوْا لِمَا أَخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَأَلَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾^(١) هذه الآية أصل كبير يستدل به جمهور العلماء على أن الناس كانوا على التوحيد. أمة واحدة على الحق والهدي من لدن آدم عليه السلام إلى أول رسول وهو نوح عليه السلام.

واستدل الجمهور على ما ذهبوا إليه بأدلة عقلية ونقلية ولغوية ولكن ذهب البعض إلى خلاف رأى الجمهور وقالوا بأن الناس كانوا أمة واحدة على الكفر واستدلوا ببعض ما أثروا عن الصحابة والتابعين من آثار فممن ذهبوا إلى أنهم كانوا أمة واحدة على الكفر الحسن وعطاء وأحد قولى ابن عباس عنهم أنهم قالوا: كان الناس من وقت وفاة آدم إلى مبعث نوح أمة واحدة على ملة الكفر أمثال البهائم فبعث الله نوحًا وغيره من النبيين^(٢)

ومن ذهب إلى هذا الرأى في العصر الحديث الإمام محمد عبده وقد نقل رأيه الأستاذ محمد رشيد رضا في تفسير النار عند تفسيره لقول الله تعالى ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيًّا مُّبَشِّرًا وَمُنذِرًا ﴾^(٣) يقول رحمة الله " حمل جمهور العلماء من المفسرين لفظ الأمة في الآية على الملة ثم اختلفوا فيما كانت الملة فقال جمهورهم: أنها ملة الهدي والدين القويم فيكون معنى الآية في رأيهم كان الناس أمة واحدة أى ملة واحدة قيمة الدين صحيحة العقيدة جارية في أعمالهم على

(١) سورة البقرة الآية ٢١٣

(٢) تفسير البغوى ج ١ ص ٧٥

(٣) سورة البقرة الآية ٢١٣

أحكام الشرائع ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَخُكُّمْ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا أَخْتَلَفُوا فِيهِ﴾^(١)

يقول رحمة الله " لما وجدوا أى (الجمهور) أن المعنى لا يكون قويمًا لأنه لا معنى لإرسال الرسل إلى الأمم الصالحة المهتدية ليحكموا بينهم فيما اختلفوا فيه إذ لا يتأتى الاختلاف الذى يحتاج فى رفعه إلى رسالة الرسل مع استقامة العمل والوقوف عند حدود الشرائع. قالوا لا بد من تقدير فى العبارة فىكون الكلام كان الناس أمة واحدة فاختلفوا ببعث الله النبيين مبشرين ومتذرين، وأنت ترى أن هذا بمنزلة أن تقول " كان زيد عالماً ببعثت إليه من يعلمه ما كان نسيه من معلومات أو كان عاملًا فترك العمل فأرسلت إليه من يعظه فى العودة إلى ما ترك من عمله وتقول إن كلامى على تقدير كان عالماً فنسى أو كان عاملًا فترك العمل ببعثت إليه أو أرسلت إليه، وهو مما لا يقبله ذوق عربى " والملاحظ أن الإمام محمد عبده يستخدم كل الوجوه الممكنة لصرف قول الجمهور أن الناس كانوا أمة واحدة على الحق. ويعرض رأى من قال بأنهم كانوا أمة واحدة على الكفر والضلال يقول : والآية لم تحدد زمن كان الناس أمة واحدة وغاية ما فى الأمر أن يكون النبيون المبعوثون مخصوصين بغير آدم أو نوح. إذا حملت الأمة الواحدة على أمة الضلال والفساد ولذلك ذهبت طائفة أخرى وفي مقدمتهم ابن عباس وعطاء والحسن إلى أن الأمة الواحدة أمة الضلال التى لا تهتدى بحق ولا تقف بأعمالها عند حد الشريعة واحتلوا على قولهم بهذا التعقيب فى الآية فإنه جعل بعثة الرسل تابعة لوحدة الأمة، ولا تكون تلك الوحدة قاضية بالحاجة إلى إرسالهم ليحكموا بينهم فى الاختلاف الذى يقع فيهم بسبب الفساد فى العقائد والذهاب مع الأهواء الضالة فى الأعمال واعتداء بعضهم على بعض لذلك. وانتهاكم حرمة ما أمر الله برعاية حرمته فيجب أن تكون وحدة الأمة وحدة فى الباطل حتى يرد عليه الحق فيزهقه وأما لو كانت الأمة واحدة فى الهدى واتباع الحق فلا معنى لجعل بعثة الرسل مترتبة عليها كما هو ظاهر، ودفعوا ما يقال من أن آدم كان نبياً وكان أولاده من بقى على شريعته فكيف يقال إن الناس كانوا أمة واحدة على الباطل؟ دفعوه بأن الحكم على الغالب فقد كان الناس لعهد نوح كفاراً إلا

القليل منهم ومن المعروف أنه يقال دار كفر لمن كان أغلب سكانها كفاراً وإن كان فيها مسلمون ^(١) ويستند رحمة الله على بعض أقوال المفسرين التي تذهب إلى أن كان في الآية للثبوت لا للمضى. وقد ذهب إلى هذا "ابن العادل" نقلاً عن "القرطبي" يقول : ونحن ذاكرون لك إن شاء الله ما يجلى المعنى في الآية مقتضين أثر ابن العادل والقرطبي فيما قالاه في معنى (كان) وأنها للثبوت لا للمضى ^(٢) ويتبع وصف الأمة في القرآن الكريم ليخلص إلى أن الأمة في الآية كانت على الضلال لا على الحق ثم يتحدث عن الحكمة والغاية من إرسال الرسل وأن الناس لا يستغثون عن هدى الله عن طريق الأنبياء يقول "فَلَمَّا كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَمْكُنُ أَنْ يَكُونُوا بِمَقْتَضِيِّ فَطْرَهُمْ إِلَّا كَذَلِكَ وَهُمْ إِنَّمَا يَعْمَلُونَ بِمَقْتَضِيِّ آرَائِهِمْ وَيَنْحُونَ فِي أَعْمَالِهِمْ نَحْوَ الْمَنَافِعِ الَّتِي يَرَوْنَهَا لَازِمَةً لِقَوْمٍ مَعِيشَتِهِمْ وَلَمْ يَنْحُوا مِنْ قَوْةِ الإِلَهَامِ مَا يَعْرِفُ كُلُّهُمْ وَجْهَ الْمَصْلَحَةِ فِي حَقِّ غَيْرِهِ لِتَوْفِيرِ الْمَنْفَعَةِ بِذَلِكَ لِنَفْسِهِ لَمَا كَانُوا كَذَلِكَ كَانَ لَابْدَ مِنَ الْاِخْتِلَافِ ، وَكَانَ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ بِهِمْ أَنْ يُرْسَلُ إِلَيْهِمُ الرَّسُولُ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ^(٣) وَهَكُذا رأَيْنَا الْإِمَامَ مُحَمَّدَ عَبْدَهُ يَنْتَصِرُ لِلرَّأْيِ الْقَائِلِ بِأَنَّ النَّاسَ كَانُوا أُمَّةً وَاحِدَةً عَلَى الْكُفَّرِ وَالضَّلَالِ . وَيَعْمَلُ جَاهِدًا لِتَرْجِيحِهِ فَيَتَابُعُ رَأْيَ مَنْ قَالَ بِأَنَّ (كان) فِي الآية للثبوت كما في قوله تعالى **﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾** وَلَيْسَ لِلْمَضِيِّ . ثُمَّ نَرَاهُ يَبْيَنُ أَنَّ التَّقْدِيرَ الَّذِي ذَهَبَ إِلَيْهِ الْجَمَهُورُ فِي الآيَةِ "فَاَخْتَلَفُوا" غَيْرُ مَقْبُولٍ مِنْ نَاحِيَةِ النُّوْقُلِ الْلُّغُوِيِّ إِذَا كَتَبَ لَا تَرَاهُ لَائِقًا بِكَلَامِكَ فَكِيفَ تَجْدِهُ لَائِقًا بِكَلَامِ اللهِ أَبْلَغَ الْكَلَامَ وَأَوْلَى قَوْلَ بِكَلَامِ الْعُقُولِ وَالْأَفْهَامِ ^(٤) وَسُوفَ نَعْرِضُ رَأْيَ الْجَمَهُورِ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الآيَةِ وَنَرْجِحُ مَا نَرَاهُ .

وَذَهَبَ آخَرُونَ مِثْلَ قَاتِدَةِ وَعُكْرَمَةِ وَأَحَدِ قَوْلِيِّ ابْنِ عَبَّاسٍ إِلَى أَنَّهُ : كَانَ النَّاسُ مِنْ وَقْتِ آدَمَ إِلَى مَبْعَثِ نُوحٍ وَكَانَ بَيْنَهُمَا عَشَرَةُ قَرْوَنَ كُلُّهُمْ عَلَى شَرِيعَةٍ وَاحِدَةٍ مِنَ الْحَقِّ وَالْهَدِيِّ ثُمَّ اخْتَلَفُوا فِي زَمْنِ نُوحٍ فَبَعَثَ اللهُ نُوحًا فَكَانَ أَوَّلَ نَبِيٍّ بُعْثَثًا ثُمَّ بَعْثَ بَعْدِهِ النَّبِيِّنَ ^(٥)

(١) انظر تفسير المثارج ١ ص ٢٢٢، ٢٢١

(٢) نفسه ج ١ ص ٢٢٣، ٢٢٤

(٣) نفسه

(٤) تفسير المثارج ١ ص ٢٢٤

(٥) نفسه وانظر تفسير ابن كثير ج ١ ص ٢٥٠ وانظر الطبرى ج ٤ ص ٢٧٥

يعرض هذا الخلاف إمام المفسرين الطبرى بقوله (كان الناس أمة واحدة) كانوا على الهدى جمِيعاً فاختلفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين فكان أول نبى بعث نوح عليه السلام فكان تأويلاً الآية على معنى قول هؤلاء : كان الناس أمة مجتمعة على ملة واحدة ودين واحد فاختلفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين ، وأصل الأمة الجماعة تجتمع على دين واحد ثم يكتفى بالخبر عن الأمة من الخبر عن الدين لدلالتها عليه كما قال جل ثناؤه ﷺ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ^(١) يراد به : أهل دين واحد وملة واحدة فوجه ابن عباس في تأويلاه قوله (كان الناس أمة واحدة) إلى أن الناس كانوا أهل دين واحد حتى اختلفوا . هذا الدين الذى كانوا عليه دين الحق كما قال أبي بن كعب ^(٢) لكن فى أى الأوقات كان الناس على دين واحد ثم اختلفوا؟ يجيب الطبرى : يجوز أن ذلك الوقت الذى كانوا فيه أمة واحدة من عهد آدم إلى عهد نوح عليهما السلام كما روى عكرمة عن ابن عباس وكما قاله قتادة ، وجائز أن يكون ذلك حين عرض على آدم خلقه ، ويجوز أن يكون ذلك فى وقت غير ذلك ^(٣) .

ثم يقرر أنه لا دلالة من كتاب الله ولا خبر يثبت به الحجة على أى هذه الأوقات كان ذلك . ويرى أن الأولى القول بما قال عز وجل من أن الناس كانوا أمة واحدة فبعث الله فيهم لما اختلفوا الأنبياء والرسل ولا يضرنا الجهل بوقت ذلك ^(٤) ثم ينذر إلى ما يراه حقاً وأولى بالقبول فيقول " غير أنه أى ذلك كان فإن دليل القرآن واضح على أن الذين أخبر الله عنهم كانوا أمة واحدة على الإيمان ودين الحق دون الكفر بالله والشرك به ذلك أن الله قال في سورة يومن ^٥ وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَالْخَتَلُفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةً سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ تَخَلَّفُوا ^(٥) فتوعد جل ذكره على الاختلاف لا على الاجتماع ، ولا على كونهم أمة واحدة ولو

(١) سورة المائدة الآية ٤٨

(٢) تفسير الطبرى ج ٤ ص ٢٧٩

(٣) تفسير الطبرى ج ٤ ص ٢٧٩

(٤) تفسير الطبرى ج ٤ ص ٢٧٩

(٥) سورة يومن الآية ١٩

كان اجتماعهم قبل الاختلاف كان على الكفر ثم كان الاختلاف بعد ذلك لم يكن إلا بانتقال بعضهم إلى الإيمان ولو كان ذلك لكان الوعد أولى بمحكمته جل ثناؤه في ذلك الحال من الوعيد لأنها إنابة بعضهم إلى طاعته، ومحال أن يتوعد في حال الإنابة ويترك ذلك في حال اجتماع الجميع على الكفر والشرك ^(١) وهذا ملخص جيد في فهم الآية من إمام المفسرين "الطبرى" إذ المناسب أن يتوعدهم الله على الاختلاف فدل ذلك على أنهم اخترعوا عن التوحيد إلى الشرك الأمر الذي استدعي إرسال الأنبياء والرسل. وفي جميع ما نقلناه عن الطبرى نراه ينزع إلى ترجيح أن الناس كانوا أمة واحدة على الحق لكن الذي توقف فيه الوقت الذي كانوا فيه أمة واحدة. فلم يحدد وقت أورده ابن كثير فيما روى عن ابن عباس كان بين نوح وآدم عشرة قرون كلهم على شريعة من الحق، وهذا الأثر عن ابن عباس أصح سندًا ومعنى كما يذهب ابن كثير ^(٢) في تفسيره وفي صحيح البخارى عن ابن عباس قال " وكان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام ^(٣) والمقصود بالإسلام هنا إسلام الوجه لله وتوحيده وطاعته.

أما الرازى في تفسيره فيستدل باللغة والعقل على أن الناس كانوا أمة واحدة على الحق. ويدلل على ذلك بوجوه منها:

أولاً: ما ذكره القفال من الدلالة بقول الله تعالى (فبعث الله النبيين) فهذا يدل على أن الأنبياء عليهم السلام إنما بعثوا حين الاختلاف ويتأكّد هذا بقوله ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ فَآخْتَلُفُوا﴾ ويتأكّد بما نقل عن ابن مسعود أنه قرأ ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ إذا عرفت هذا فنقول الفاء في قوله (فبعث الله النبيين) تقتضي أن يكون بعضهم بعد الاختلاف ولو كانوا قبل ذلك أمة واحدة في الكفر لكان بعثة الرسل قبل هذا الاختلاف أولى لأنهم لما بعثوا عندما كان بعضهم محقاً وبعضهم مبطلاً. فلأنّ يُبعثوا حينما كان كلهم مبطلاً

(١) تفسير الطبرى ج ٤ ص ٢٧٩ - ٢٨٠

(٢) انظر تفسير ابن كثير ج ١ ص ٢٥٠

(٣) انظر العقيدة في الله ص ٢٤٦

أولى، ويعلق الرازى على ما ذكره القفال بقوله "والوجه الذى ذكره القفال حسن فى هذا الموضوع".

ثانيها: أنه تعالى حكم بأنه كان الناس أمة واحدة فاختلفوا بحسب دلالة الدليل عليه وبحسب قراءة ابن مسعود ثم قال سبحانه (وما اختلف فيه إلا الذين أوتواه) والظاهر أن المراد من هذا الاختلاف هو الاختلاف الحاصل بعد ذلك الاتفاق المشار إليه بقوله (كان الناس أمة واحدة) ثم حكم على هذا الاختلاف بأنه إنما حصل بسبب البغى وهذا الوصف لا يليق إلا بالمذاهب الباطلة، وهذا يدل على أن الاتفاق الذى كان حاصلاً قبل هذا الاختلاف إنما كان فى الحق لا فى الباطل.

ثالثها: أن آدم عليه السلام لما بعثه الله رسولًا إلى أولاده فالكل كانوا مسلمين مطيعين لله تعالى ولم يحدث فيما بينهم اختلاف في الدين إلى أن قتل قabil هابيل بسبب الحسد والبغى وهذا المعنى ثابت بالنقل والتواتر والأية منطبقة عليه كما يقول الرازى^(١).

بهذه الوجوه اللغوية والنقلية والعقلية رجح "الرازى" أن الناس كانوا أمة واحدة على الحق لا على الضلال. تبقى مسألة الوقت والمدة التي ظلوا فيها على تلك الحالة. لم يتعرض "الرازى" لها. وإن كان عندنا النص الثابت عن ابن عباس كما رواه البخارى بأن المدة كانت عشرة قرون على خلاف في مدة القرن . "ثمانون سنة وقيل ثلاثون سنة ، والقرن في الناس أهل زمان واحد أو هو الجيل من الناس يقول تعالى ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْوَنِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ﴾^(٢) ويقول تعالى ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنَآءَ أَخْرَيْنَ﴾^(٣).

وهذا القرن معناه الجيل من الناس أو أهل الزمان الواحد^(٤).

وقد ثبت أن أول نبي بعد آدم عليه السلام هو نوح^(٥) فتكون تلك الفترة على التوحيد الذى جاء به آدم وترك أبناءه عليه. ونحن إذ نرجح أن الناس كانوا أمة واحدة

(١) معركة التقليد ص ٧٩.٧٨ دار الشروق

(٢) سورة الإسراء الآية ١٧

(٣) سورة المؤمنون الآية ٢

(٤) مختار الصحاح ص ٤٧٥ دار الكتب العلمية بيروت الطبعة الأولى ١٩٩٤ م وانظر العقيدة في الله ص ٢٤٧

(٥) تفسير القرطبي ج ٣ ص ٣٠ - ٣٢

على التوحيد لنقطع الطريق على من ذهبا إلى أن الإنسان بدأ بالوثنية وانتهى بالتوحيد. ونقول لهم هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إلإتنا بعلم إن كنتم صادقين. إن التوجه إلى المظاهر المادية من أوثان ومظاهر طبيعية كان بعد أن بَعَدَتْ بالإنسان المسافة عن مصدر الدين التوحيد فانحدر من الألوهية إلى المادية^(١). لأن العقيدة في الله عنصر ثابت في النفس البشرية. عنصر قائم في صميم الفطرة يهدى البشرية إلى خالقها وإنما الانحراف الذي يحدث هو انحراف في طريق تصور الله، ومهمة الأنبياء والرسل دائماً هي هداية البشرية إلى الطريق المستقيم الذي ينبعق منه المشاعر الصحيحة، والسلوك الصالح والتنظيم السليم وليس صحيحاً أنه مرت على البشرية سلسلة منتظمة من العقائد الضاللة أدت في النهاية إلى التوحيد وإنما الثابت من التاريخ أن البشرية مرت في دورات متتالية من الهدى والضلال من التوحيد والتعدد من التجريد والتجمسيم^(٢).

على أننا يمكن أن نقلب نظرية التطور في الدين بالمفهوم الغربي رأساً على عقب حين نقرر ومعنا النقل والعقل في ذلك. أن الذي تطور لم يكن العقيدة في الله وإنما كان انحراف العقيدة في الله. حين عبدت البشرية مظاهر الطبيعة وعبدت الطوطم كانت في ذلك تنحرف عن العقيدة الصحيحة في الله، وتتصوره تصورات شتى منحرفة. ومن الثابت في التاريخ وأغفله علم الاجتماع الغربي أن البشرية فيما بين انحرافاتها المتكررة قد مرت بفترات فاءت فيها إلى العبادة الصحيحة عن طريق الرسالات السماوية قبل أن تعود مرة أخرى إلى الانحراف بعد تقادم الزمن وتبعاد العهد عن الوحي^(٣)

(١) انظر الحكمة العربية في أصالتها الفطرية ص ٣٤٨ لأستاذنا الدكتور عبد الله الشاذلي

(٢) معركة التقاليد ص ٧٩. ٧٨ دار الشروق

(٣) التطور والثباتات في حياة البشرية ص ١٨٦ محمد قطب. دار الشروق

المسألة الثالثة: إرسال الرسل

من الآيات ذات المغزى العميق في الدلالة على أن الناس كان عندهم توحيد، وأن أي جماعة بشرية في أي منطقة من العالم. إذا وجد عندهم توحيد أو بقايا من التوحيد فليس ذلك مرده إلى التطور عن التعدد والوثنية. وليس ذلك مرده إلى التقدم الفكري والعلقى - وإنما مرده بالإضافة إلى ما ذكر من الفطرة ، والميثاق الذي أخذه الله على بني آدم ، وكونهم كانوا أمة على التوحيد. إلى أن حدث فيهم الشرك. إرسال الأنبياء والرسل.

يقول تعالى ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مَنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَّ فِيهَا نَذِيرٌ﴾^(١) يقول الطبرى " إن أرسلناك يا محمد بالحق وهو الإيمان بالله وشرائع الدين التي افترضها الله على عباده بشيراً يقول مبشرًا بالجنة من صدقك وقبل منك ما جئت به من عند الله من النصيحة (وإن من أمة إلا خلا فيها نذير) أي وما من أمة من الأمم الدائنة بملة إلا خلا فيها من قبلك نذير ينذرهم بأسنا على كفرهم بالله .

وعن قتاده (وإن من أمة إلا خلا فيها نذير) كل أمة كان لها رسول^(٢) لتذكير بني آدم من جديد بعقيدة التوحيد الذي فطروا عليه.

ويصيغة الحصر والقصر بين " ابن كثير " أنه ما من أمة خلت من بني آدم إلا وقد^(٣) بعث الله تعالى إليهم النذر وأزاح عنهم العلل كما قال تعالى ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلَكُلُّ قَوْمٍ هَاوِي﴾^(٤)

وقوله تعالى ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِّي أَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَجْتَنِبُوا الْأَطْغَوْتَ﴾^(٥) وما تجدر الإشارة إليه أن نوحًا عليه السلام هو أول رسول إلى أهل الأرض.

(١) سورة فاطر الآية ٢٤ وانظر الإنسان في ظل الأديان ص ٢٤٧

(٢) تفسير الطبرى المجلد العاشر ص ٨٦ وانظر الإسلام والأديان ص ٢٩

(٣) سورة الرعد الآية ٧

(٤) سورة النحل الآية ٣٦

روى البخارى بسنده عن أنس رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال "يجتمع المؤمنون يوم القيمة فيقولون: لو استشفعنا إلى ربنا فيأتون آدم فيقولون: أنت أبو الناس خلقك الله بيده وأسجد لك ملائكته وعلمك أسماء كل شيء فاشفع لنا عند ربك حتى يريخنا من مكاننا هذا فيقول: لست هناكم ويدرك ذنبه فيستحي. أتوا نوحًا فإنه أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض" ^(١) والشاهد هنا النص الصحيح والصريح على أن نوحًا عليه السلام هو أول رسول إلى أهل الأرض.

وقد أرسله الله ليدعو الناس إلى التوحيد قال تعالى ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنَّ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلٍ أَنْ يَأْتِيهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ ﴿ قَالَ يَقُولُ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ ﴿ أَنِّي أَعْبُدُوَ اللَّهَ وَأَنَّقُوْهُ وَأَطِيعُوْنِ ﴾ ^(٢)

ولكن قوم نوح لما كذبوا وكانت النهاية أهلكهم الله بالطوفان يقول تعالى ﴿ وَقَوْمَ نُوحَ لَمَّا كَذَّبُواَ الرَّسُولَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ أَيَّةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا كَلِيمًا ﴾ ^(٣)

وجمع الرسل بالرغم أنهم ما كذبوا إلا رسولاً واحداً وهو نوح عليه السلام لأن من كذب رسولاً واحداً فقد كذب جميع الرسل فلذلك ذكر بلفظ الجمع ^(٤) وبعد نوح عليه السلام خلت الأرض من الظالمين ولم يبق فيها إلا الموحدون فلما اخترعوا عن التوحيد أرسل الله إليهم رسولاً يقول تعالى ﴿ ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنَاءَ أَخْرَىٰ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ ﴾ ^(٥) قيل هود وقومه وقيل صالحًا وقومه والأول أظهر كما يذكر البغوى ^(٦) وقد استمرت رحمة الله ورعايته لبني آدم كلما ضلوا وزاغوا أنزل إليهم الوحي ليضئ لهم الظلمات ويهديهم إلى صراطه المستقيم ^(٧) يقول تعالى

(١) البخارى باب قول الله (وعلم آدم الأسماء كلها) انظر فتح البارى ج ٨ ص ١٠

(٢) سورة نوح الآية ٣١

(٣) سورة الفرقان الآية ٣٧

(٤) مختصر تفسير البغوى ج ٢ ص ٦٦٠

(٥) سورة المؤمنون الآية ٣٢.٣١

(٦) مختصر تفسير البغوى ج ٢ ص ٦٢٤

(٧) العقيدة في الله ص ٢٤٧ / ٢٤٨

﴿هُنَّمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتَرَّاَكُلَّ مَا جَاءَ أَمَّةَ رَسُولُهَا كَذَبُوهُ فَأَتَبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبَعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾^(١) أى متزادفين يتبع بعضهم بعضاً غير متواصلين لأن بين كل نبيين زماناً طويلاً وهى فعلى من المواترة قال الأصمى : يقال واترت الخبر إذا أتبعت بعضه بعضاً وبين الخبرين مهلة^(٢)

ولكن يبين الله عز وجل أن كل أمة إذا جاءها رسولها كذبوا وكان الجزاء حاضراً يقول تعالى ﴿فَكُلُّاً أَخْذَنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخْذَنَا الصِّحَّةَ وَمِنْهُمْ مَنْ حَسَنَتْ بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقَنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمُهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾^(٣)

وكان التذكير بمصير المكذبين نذيراً لأهل مكة ومن بلغه القرآن إلى قيام الساعة يقول تعالى ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبِيًّا مِّنْ قَبْلِكُمْ قَوْمٌ نُوحَ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُوا أَيْدِيهِمْ فِي أَفُوَّهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ وَإِنَّا لَهُ شَكُّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ﴾^(٤) قال ابن مسعود : عضوا على أيديهم غيظاً قال ابن عباس : لما سمعوا كتاب الله عجبوا ورجعوا بأيديهم إلى أنفواههم قال قتادة ومجاهد : كذبوا الرسل وردوا ما جاءوا به ، وهذه الآية وغيرها تدل على أن الرسل الذين أرسهم الله إلى الأمم من بعد نوح ، وهم وحدهم ، وصالح لا يعلمهم إلا الله^(٥) وهذا كقول الله تعالى ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْنَ عَلَيْكَ﴾^(٦) والله سبحانه يعرض أحوال المكذبين يوم القيمة وهم يقررون ويعترفون بأن الرسل قد جاءتهم.

يعرض القرآن الكريم موقف الكفار في نار جهنم يقول تعالى ﴿كُلَّمَا أُلْقَى فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ حَرَرَتْهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾^(٧) قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل

(١) سورة المؤمنون الآية ٤٤

(٢) مختصر تفسير البغوى ج ٢ ص ٦٢٥

(٣) سورة العنكبوت الآية ٤٠

(٤) سورة إبراهيم الآية ٩

(٥) تفسير البغوى ج ١ ص ٤٦٩

(٦) سورة غافر الآية ٧٨

اللهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتَ مِنْ أُولَئِكَ الْمُنْجَدِينَ^(١)» والمقصود بالرسل في الآية الرسول الذي يبعث من عند الله للإنذار^(٢)

وهذه الكثرة من الرسل الذين أرسلوا إلى أئمهم يوضحها العدد الكبير الذي حدده رسول الله صلى الله عليه وسلم للأنبياء فيما صححه ابن حبان عن أبي ذر مرفوعاً «أَنَّهُمْ مائةَ أَلْفٍ وَأَرْبَعَةَ وَعَشْرَوْنَ أَلْفًا الرَّسُولُ مِنْهُمْ ثَلَاثَةُ وَثَلَاثَةُ عَشَرَ»^(٣)

وكان هذا الجم الغفير من الأنبياء لذكر الناس بالتوحيد وبالميثاق الذي أخذ عليهم من الله أن يوحدوه ولا يشركوا به شيئاً.

ولله الحكمة البالغة في إرسال الأنبياء والرسل، وقد التفت إلى هذا المعنى علماء الإسلام قديماً «كالغزالى» وغيره فذكروا أن البشرية كانت في أمس الحاجة إلى الرسالة لأنهم يأتون بما لا تستقبل به العقول. مثل ما يجب لله من صفات الكمال، وما يستحيل عليه من النقص، وما يجوز أن يتصرف به ومثل المعاد الجسماني وتعيين الحدود، وتعليم ما ينفع وما يضر من الأعمال وكذلك معرفة تفاصيل الثواب للمحسن والعقاب لل العاصي لأن العقل في هذه الأمور لا يرشد إلى النافع والضار من الأعمال والأخلاق والعقائد، ولا يفرق بين الشقى والسعيد فكان من لطف الله بعباده أن يرسل لهم رسلاً يبين لهم مالا يستطيعون الاستقلال به بعقولهم^(٤). ثم كانت الحكمة البالغة في إرسال محمد صلى الله عليه وسلم على فترة من الرسل كخاتم للأنبياء والمرسلين ومتفرد دون غيره من الأنبياء بعموم رسالته صلى الله عليه وسلم للتلذذ إلى أن تقوم الساعة. يقول سبحانه ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافِةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلِكُنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(٥)

(١) سورة الملك الآية ٨ - ٩

(٢) انظر مختصر تفسير البغوى ج ٢ ص ٩٥٦ و انظر العقيدة في الله للأشرق ص ٢٤٩

(٣) فتح الباري ج ٦ ص ٣٦١ كتاب أحاديث الأنبياء

(٤) انظر الاقتصاد في الاعتقاد ص ١٦٤ - ١٦٥ . والمؤلف لعدض الدين الإيجي ص ٣٤٥ ، والمقاصد للسعد التفتازاني ج ٢ ص ١٢٨

(٥) سورة سباء الآية ٢٨

الفصل الرابع

العلم التجريبي والدين

المبحث الأول:

المذهب الوضعي وشبهه في إنكار الدين

تمهيد:

هل يستغني بالعلم التجريبي عن الدين؟

منذ أن ظهرت الاكتشافات العلمية، وهناك اتجاه في الغرب يسعى جاهداً لإبعاد الدين، والإكتفاء بالعلم التجريبي، وما يكشف عنه من أسرار الطبيعة وكانت هذه الاتجاهات تأخذ أشكالاً مختلفة في وسائلها. متحدة في غايياتها. فالبعض يعترض بالألوهية ولكنه يطرحها جانباً، والبعض الآخر لا يعترض أصلاً بعالم الغيب وما فيه وما يعبر عنه، وكان الدافع وراء هذه الاتجاهات كلها هو الاغترار بالعلم والاستغناء به عن غيره من شتى التوجيهات وعبر البعض صراحة عن ذلك من هؤلاء (ديفيد هيوم) ١٧١١ - ١٨٨٦ م^(١) الذي انتقد الأدلة على وجود الله وتساءل لم لا تقد المادة نفسها إلى غير نهاية فنعتبرها الله؟ ولماذا نبحث للكون عن علة مفارقة واعتبر أن كل الأعمال العقلية ترجع إلى الترابط الآلي، وتفاني في المزادة بالعلم التجريبي إلى أقصى حد حين قال بضرورة إحراق كل كتاب لا يقوم على الرياضة والتجربة^(٢) وقد نشط الاتجاه التجريبي القائم على الملاحظة والتجربة لسبعين:-

الأول: الانحلال الذي أصاب فلسفة هيجل الميتافيزيقية

الثاني: الأثر الذي أحدثه التجارب والمشاهدات العلمية الحديثة في الصلة بين النفس والجسم^(٣)

(١) الفكر الإسلامي الحديث ص ٢٩٧

(٢) أسس الفلسفة ٢٤١

(٣) تاريخ الفلسفة الحديثة ص ٣٣٢ - ٣٢٣

وقد بلغت النزعة التجريبية المستبعدة للدين أوجها في المذهب الوضعي الذي يعرف بأنه المذهب "الذي لا يعتبر شيئاً حقيقياً واقعياً إلا ذلك الموضوع الوضعي الذي جاء أثراً لتجارب الحس ويمكن مع ذلك اختباره بالحس" (١)

ويُعد "أوجست كونت" هو الذي قَعَدَ القواعد وأَصَلَ الأصول للمذهب الوضعي بعد أن أخذ أصوله من "سان سيمون" ، و"شارل فوريه" ، وقد ذهب "كونت" إلى أن الشرط الأول للنجاح في صياغة المجتمع إعادة وحدة الاعتقاد إلى العقول كما كان الحال في العصر الوسيط لكن بواسطة العلم لا بواسطة الدين لقد أراد أن يصل إلى العلم ويستعين به وحده في تحقيق الهدف المنشود ، والعلم الذي يريد أن يصل إليه هو الذي لا يطلب الحقائق الثابتة أو المطلقة لأن ذلك فوق طاقة العلم وعلى غير طبيعته ولذلك فإن ما سماه "كونت" بالعلم الوضعي يتتجنب البحث عن أسباب الأشياء وعللها ، وعن جواهرها وحقائقها ويتجه إلى استنباط القوانين التي تحكم هذه العلاقات (٢)

(١) الفكر الإسلامي الحديث ص ٣٠٠

(٢) انظر تاريخ الفلسفة الحديثة ص ٣١٦ والفكر الإسلامي والمجتمع المعاصر ص ١٦٤ / ١٦٥

المسألة الأولى: قانون الحالات الثلاث "لأوجست كونت" (١٧٩٨ - ١٨٥٧ م)

تقوم فكرة الأطوار الثلاثة عند كونت على فكرة مؤداها أن العقل الإنساني لا يدرك سوى الظواهر الواقعية المحسوسة وما بينها من علاقات أو قوانين وأن المثل الأعلى يتحقق في العلوم التجريبية، ومن ثم يجب العدول عن كل بحث في العلل والغایيات^(١)

ويعبر "كونت" عن قانون الأحوال الثلاثة بالصيغة الآتية "بناءً على طبيعة العقل الإنساني لابد لكل فرع من فروع معلوماتنا من المرور في تطوره بثلاث حالات نظرية متابعة. الحالة اللاهوتية أو الخرافية، والحالة الميتافيزيقية أو المجردة، وأخيراً الحالة العلمية أو الوضعية^(٢)

وسوف نعرض لهذه الحالات الثلاث كما عرضها "كونت" لتبين مدى علمية هذه الأطوار الثلاثة التي أراد "كونت" للأخير منها أن يكون بديلاً عن الدين والغيبات.

"أولاً: المرحلة اللاهوتية"

يذكر "كونت" أن الإنسان في هذه المرحلة يبحث فيها عن كنه الكائنات وأصلها ومصيرها محاولاً إرجاع كل طائفة من الظواهر إلى مبدأ مشترك وقد تدرج في ذلك درجات ثلاث: كانت الدرجة الأولى "الفيتشرية" *Fetichisme* يضيف فيها إلى الكائنات الطبيعية حياة روحية شبيهة بحياة الإنسان، وكانت الدرجة الثانية تعدد الآلهة، وهي أكثر الدرجات الثلاثة تميزاً للحالة اللاهوتية يسلب فيها عن الكائنات الطبيعية ما كان خلع من حياة، ويضيف أفعالها إلى موجودات غير منظورة تؤلف عالماً علواً، وكانت الدرجة الثالثة التوحيد أي جمع كثرة الآلهة في إله واحد مفارق.

(١) تاريخ الفلسفة الحديثة ص ٣١٧

(٢) فلسفة أوجست كونت تأليف ليفي بربيل ترجمة د/ محمود قاسم و د/ السيد محمد بدوى طبعة ١٩٦٢ نقلأ عن الاتجاهات العلمية المعاصرة ص ١٠

وهذه المرحلة لها خصائص تمثل في أن موضوعها مطلق وتفسيراتها فائقة للطبيعة ومنهجها خيالي هذا من الوجهة النظرية أما من الوجهة العملية فقد كانت المعانى اللاهوتية أساساً متنبأً مشتركاً للحياة الخلقية والاجتماعية وكانت هذه المرحلة الأولى مرحلة السلطة وسلطة الكهنة وسلطة الملوك^(١)

ثانية: المرحلة الميتافيزيقية

في هذه الحالة يحاول العقل البشري أن يبحث عن حقيقة الأشياء وأصلها ومصيرها ولكنه يستبدل بالعلل المفارقة عللاً ذاتية يتوهمها في باطن الأشياء وما هي إلا معانٍ مجردة جسمها له الخيال فقال : العلة أو القوة الفاعلية والجواهر والنفس والحرية والغاية، وما إليها، وبلغت هذه الحالة أوجها في مذهب وحدة الوجود الذي يجمع في الطبيعة جميع القوى الميتافيزيقية. والفرق بين الحالة اللاهوتية، والحالة الميتافيزيقية أن المجرد يحل محل الشخص الذي كان في المرحلة الأولى. ويحل أيضاً الاستدلال محل الخيال ، وهذه المرحلة فترة انتقال ، وأدأه انتقال هي فترة نقد عقيم ولكنه ضروري إذ يتناول الاستدلال المعانى اللاهوتية فيبين التناقض فيها وإذا كان العقل في هذه الحالة يضع معانٍ أقوى موضع الإرادات المتقلبة فإنه يضييف من سلطان القوى المفارقة هذا من الوجهة النظرية أما من الوجهة العملية فيبدو الأخلاق في انتشار الشك والأثانية فيفصّم الفرد الرباط الذي يربطه بالمجتمع ويشفّف العقل على حساب العاطفة ويتصور الاجتماع ناشئاً من تعاقد الأفراد، وتقاوم الدولة على مبدأ سلطة الشعب وبحكمها القانونيون.

المرحلة الثالثة: الوضعية “Positivestage”

في هذه المرحلة يفسر فيها الإنسان الأحداث باعتبارها عناصر خاضعة لقوانين عامة يمكن إدراكتها بالطالعة أو بالمشاهدة العلمية^(٢) وفي الحالة الوضعية يدرك العقل امتناع الحصول على معارف مطلقة فيقصر همه على تعرف الظواهر واستكشاف قوانينها. فتحمل هنا الملاحظة محل الخيال والاستدلال، ويستعاض عن العلل

(١) تاريخ الفلسفة الحديثة ص ٣١٧-٣١٨

(٢) الإسلام يتحدى ص ٣٢

بالقوانين أى العلاقات المطردة بين الظواهر فيكون موضوع العلم الإجابة عن سؤال "كيف" لا عن سؤال "لَمْ" واعتبر "كانت" أن الذى تقدمه هذه المرحلة يُعد نهائياً. أما المسائل التى لا تقع تحت الملاحظة فهى خارجة عن دائرة العلم^(١)

وفي هذه المرحلة لا تذكر "الأرواح والآلهة والقوى المطلقة" ونحن بناءً على هذا نعيش فى المرحلة الثالثة التى تسمى بالوضعية أو التجريبية العلمية^(٢) (Scientifiempiricism)

هذا ملخص قانون الأطوار الثلاثة الذى ذهب إليه "أوجست كونت" واختزل جميع المعارف والعلوم فى هذا القانون خاصة المرحلة الأخيرة منه بالذات. وقد سادت هذه الوضعية وانتشرت فى أوروبا. وعرف العصر بأنه عصر الوضعية وظهرت عبارات لبعض الأوروبيين تؤكد سيادة هذا المذهب وتنفي ما عداه يقول أحدهم "كل معرفة حقة مرتبطة بالتجارب بحيث يمكن فحصها أو إثباتها بصورة مباشرة أو غير مباشرة"^(٣)

ويذكر "هكسلى" أنه "إذا كانت الحوادث تصدر عن قوانين طبيعية فلا ينبغي أن نسبها إلى أسباب فوق الطبيعة"^(٤)

(١) تاريخ الفلسفة الحديثة ص ٣١٨-٣١٩

(٢) الإسلام يتحدى ص ٢٣

(٣) الإسلام يتحدى ص ٣٦

(٤) نفسه ص ٣٦

المسألة الثانية: الأسباب التي أدت إلى سيادة المذهب الوضعي في أوروبا.

لقد ساد الاتجاه الوضعي أو الواقعي وعرف هذا العصر بأنه عصر الوضعيية وكان من أسباب سيادته ما يلى :-

أولاً: معارضه الكنيسة التي كانت تملك نوعاً من المعرفة الدينية أو الميتافيزيقية بوجه عام، وذلك لأن الوضعيية قامت على أساس تقدير الطبيعة واعتبارها المصدر الوحيد للمعرفة اليقينية لأن الطبيعة في نظر الوضعيين هي التي تنشئ الحقيقة في عقل الإنسان وترسم معالمها، والإنسان بناءً على هذا لا يُملئ عليه من خارج الطبيعة أى شيء لأن ما يأتي من الميتافيزيقا خداع للحقيقة والدين خداع لأنّه وحي ذلك الموجود الذي لا يمثله ولا يحدده كائن من كائنات الطبيعة.

ثانياً: أن الفلسفات التي قامت لناهضة الدين في أوروبا قد فشلت في هدفها في نظر الوضعيين ، ولم تستطع تلك الفلسفات أن تُبعد التوجيه الكنسي كليّة عن توجيه الإنسان وتنظيم المجتمع بل على العكس مالت بعض هذه الفلسفات إلى تأييد الدين من جديد ومن ثم رأى الوضعيون أن يعلنوا فلسفهم حتى يبعدوا الكنيسة نهائياً عن التوجيه ، ولكن يتحققوا ما عجزت الفلسفات عنه من إبعاد للدين ، وسلطان الكنيسة على المجتمع^(١).

ثالثاً: ارتباط الدين بالكنيسة التي وقفت حجر عثرة في طريق العلم ومن ثم كان المذهب الوضعي خاصة وجميع الاتجاهات المادية والإلحادية رد فعل خاطئ وطارئ لوقف خاص. وليس هذه الفكرة نتيجة نظرة موضوعية لكل من العلم والدين^(٢).

وقد تسرّب رذاذ من المذهب الوضعي إلى العالم الإسلامي وتبناه البعض ودافع عنه يقول "إسماعيل مظہر" : إن قانون الدرجات الثلاث الذي كشف عنه

(١) الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي ص ٣٤٢ - ٣٤٣

(٢) الإسلام والعلم التجربى ص ٩٧ د فاروق الدسوقي - المكتب الإسلامي بيروت

الفيلسوف "أوجست كونت" لأكبر استكشاف وصل إليه العقل البشري في الطبيعة الإنسانية^(١) هذا ما ي قوله "إسماعيل مظهر" عن قانون الحالات الثلاث الذي تناوله الغربيون بالنقد اللاذع بل إن "كونت" نفسه قد هدمه علمياً بابتداعه ديانة الإنسانية. يقول أستاذنا الدكتور بخيي هاشم معلقاً على اتجاه إسماعيل مظهر "لقد أفصح عن كراهية عميقة عارمة للإيمان بالغيبيات فيما أورده. وينقل عنه قوله "عسى أن يكون قريباً أن الخطوة التي خطوناها في سبيل الخروج من ظلمات الأسلوب الغيبي إلى وضح الأسلوب اليقيني سوف تقودنا إلى ميدان يتصادم فيه الأسلوبان تصادماً يثير في جو الفكر عجاجة ينكشف غبارها عن الأسلوب الغيبي وقد تحطم جوانبه واندك قوائمه"^(٢)

ومن الذين تأثروا بالذهب الوضعي الدكتور "زكي نجيب محمود". في كتابه "خرافة الميتافيزيقيا" الذي عدل عنوانه فيما بعد ليصبح " موقف من الميتافيزيقيا" وله كتاب آخر يقرر فيه المذهب الوضعي ويتابع فيه الفكر المادى الغربى هذا الكتاب هو "المنطق الوضعي"^(٣)

وسوف ننقل بعض فقرات مما كتبه الدكتور زكي نجيب محمود. في كتابه خرافة الميتافيزيقيا.

بداية يعرف الميتافيزيقيا بأنها "البحث في أشياء لا تقع تحت الحس لا فعلاً ولا إمكاناً لأنها أشياء بحكم تعريفها لا يمكن أن تدرك بخاصة من الحواس"^(٤) يذكر الدكتور البهى رحمة الله أن الكاتب لم يذكر في سطر واحد في كتابه أن المراد من البحث في الأشياء التي لا تقع تحت الحس لا فعلاً ولا إمكاناً (الفلسفة الميتافيزيقية) دون الحقائق الدينية حتى لا يدخل الدين ورسالته والإسلام وتعاليمه فيما يبحثه

(١) تاريخ الفكر العربي ص ١٠٩ نقلأً عن الاتجاهات العلمية ص ١٦

(٢) تاريخ الفكر العربي ص ١١٥ لإسماعيل مظهر نقلأً عن الاتجاهات العلمية ص ١٨ . تذكر بعض المصادر أن إسماعيل مظهر تاب إلى الله ورجع عن ميادنه للإلهاد أنظر الموسوعة الميسرة ج ٢ ص ٨١٤

(٣) الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب ج ٢ ص ٨٢١

(٤) خرافة الميتافيزيقيا ص ١١

ولكنه عمم ولم يقييد . يقول الدكتور زكي نجيب محمود " العبارة الميتافيزيقية التي تخبرنا عن شئ غير محس عبارة فارغة من المعنى لسبب بسيط : وهو أنها ليست مما يحيز المنطق أن يكون كلاماً على الإطلاق . فمتى يُقبل الكلام عند المنطق؟ يُقبل الكلام إذا كان لدى السامع وسيلة لتحقيقه فإذا ما يصدقه بعد التحقيق أو يكذبه أما الكلام الذي يستحيل بطبيعة تركيبه أن نتصور وسيلة لمراجعة صدقه أو كذبه فهو كلام خلو من المعنى "^١ هكذا بدون تحديد يلغى كل مالا يقع تحت الحس والمشاهدة . من دائرة الحقيقة . ونحن نتساءل ما هي الوسيلة الحسية التي يتحقق الإنسان من خلالها لوجود الملائكة أو الجن أو الحور العين ناهيك عن كلمة الله؟ إن الكاتب يعمم ولا يقييد كما فعل فلاسفة الغرب ^٢ وكثرة تداول اللغة وجودها في القواميس يزيد الناس إيماناً بأنها يستحيل أن تكون مجرد ترقيم أو مجرد صوت بغير دلالة . لكن التحليل يبين لك أن مئات من الألفاظ المتداولة والمسجلة في القواميس ألفاظ زائفة أو هي أشباه ألفاظ ، وما أشبه الأمر هنا بظرف يتداوله الناس في الأسواق مدة طويلة على أنه يحتوى على ورقة من ذوات الجنين حتى يكتسب الظرف قيمة الجنين في المعاملات . وبعدئذ يجئ متشكك ويفض الظرف ليستوثق من مكتونه ومحتواه ، وإذا هو فارغ ، وكان ينبغي أن يبطل البيع به والشراء لو تنبه الناس إلى زيفه من أول الأمر ^٣"

والتساؤل هنا ما هي الكلمة أو الكلمات الزائفة التي لا معنى لها بالرغم من وجودها والتعامل بها ولو تنبه الناس إلى ما فيها من زيف لبطل البيع بها والشراء؟

أكل الكلمات الميتافيزيقية على هذا النحو ، وجماهير الناس لا يعرفون " الميتافيزيقيا " فضلاً عن أن يقفوا على مصطلحاتها ^٤"

(١) خرافة الميتافيزيقيا ص ٧٨

(٢) الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي ص ٣٠٦ ، ٣١١ بتصريف

(٣) خرافة الميتافيزيقيا ص ١٠٥ - ١٠٠ نقلأ عن الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار

(٤) الفكر الإسلامي الحديث ص ٣١٠

إن الكلمات التي يقصدها هي الكلمات التي تتعلق بعالم الغيب وهي التي يشبهها بالظرف المغلق. فلما تقدم العلم التجربى تحقق زيف هذه الكلمات. وكان ينبغي أن يكتشف هذا الأمر من فترة طويلة ، ولكن الوسائل لم تكن متاحة أما وقد أتيحت فلا معنى للتعامل مع تلك الألفاظ. ذهب إلى هذا الرأى الدكتور " زكي نجيب محمود " متابعة للفكر الغربى المادى الذى تبناه " أووجست كونت " وغيره من أتباع الوضعية المنطقية ، وقد ذهب البعض إلى رجوع صاحب هذا الكلام عنه فى آخر حياته ^(١)

(١) انظر مجلة المجتمع الكويتية العدد ٨٥٥ في ١٢ / ١٤٠٨ هـ وانظر الصحوة الإسلامية في عيون مختلفة الدكتور نعمان السامرائي ص ٩٢ . الناشر دار المنارة للنشر والتوزيع جدة الطبعة الأولى ١٩٩٣ م

المبحث الثاني

تقويم المذهب الوضعي

مناقشة "أوجست كونت" وأتباعه في مدى علمية قانون الحالات الثلاثة
المسألة الأولى: عدم اتباع كونت المنهج العلمي فيما ذهب إليه

١- ما هو رأى "كونت" فيما يقرره العلم . الذي يعتبره "كونت" هو الحكم النهائي لأى أمر من الأمور . العلم يقول إن الجنس البشري عمره ملايين السنين . فكيف تم لكونت من الناحية العلمية توزيع الحالات الثلاثة على هذه الملايين على اعتبار أن المرحلة الثالثة الواقعية أو العلمية بدأت في زمنه . إنه إزام لا يجد "كونت" ولا أتباعه جواباً عليه ^(١)

إن نقطة الخطأ في المذهب الوضعي تمثل في أن أنصاره جعلوا منه قانوناً يستوعب التاريخ كله في شوط واحد قطعت الإنسانية ثلثية بالفعل ونفقت يدها أو كادت منه إلى غير رجعة ولن تعود إليه إلا أن يعود الكهل إلى طفولته وشبابه ولو أنهم جعلوا منه سلسلة دورية كلما ختمت شوطاً رجعت عوداً على بداء لكان الخطأ أقل شناعة

ولكنها أيضاً تظل دعوى غير سليمة لا لأنها مجردة عن البرهان فحسب بل لأنها ثحرف التاريخ وتصادم العيان ^(٢)

ثم إن "أوجست كونت" عندما وضع نظريته الوضعية لم ينظر في العلوم الدينية والعلوم التجريبية نظرة موضوعية وإنما كان لزاماً عليه أن ينظر في علوم سائر الأديان وخاصة الإسلام . قبل أن يعمم الحكم الذي استخلصه من النظر في دين الكنيسة على كل الأديان . وهذا التعميم مخالف للموضوعية هذا من جهة ، ومن جهة

(١) انظر الإسلام والاتجاهات العلمية المعاصرة ص ١١

(٢) الدين للدكتور دراز ص ٨٤ / ٨٥ وانظر الموسوعة الميسرة في الأديان والمناهج ج ٢ ص ٨٢٢

أخرى فإنه لم يستخلص نظريته من مجرد النظر في الدين والعلم ولكنه أتى وقد اعتقد بفكرة تنازعهما وتعارضهما ثم حاول أن يأتي بالشاهد الدالة على هذا الحكم الموضوعي السابق، والمذهب الوضعي في تحليله النهائي جاء نتيجة رد فعل العقل الأوروبي ل موقف الكنيسة من العلم. ومن ثم فهو إفراز خاص لحالة رد الفعل وهذا يمنع كونها نتيجة بحث موضوعي^(١)

٢- يختلف الطريق الذي سلكه العقل الإنساني عن ذلك الذي حده "كونت" ففي كثير من الأمور كان الفهم الوضعي للأمور يسير مع الفهم الديني أو الميتافيزيقي في مجال فهم الحقائق الرياضية والفلكلورية مثلاً أمور كانت تسير مع الفهم قديماً، ولا تزال بعض المجتمعات تفسر دينياً على الرغم من أنها نجتاز حالياً المرحلة الوضعية في نظر "كونت"^(٢) وكما يقول الدكتور دراز (إن هذه النزعات الثلاث متعاصرة متباورة في نفس كل فرد ففي الوقت الذي تفسر فيه الحوادث العادية بأسبابها المباشرة خارجية أو داخلية. فنقول مات فلان بكتنا أو هلك فلان بكتنا لا يزال كل واحد منا يفسر الحوادث الشاذة الخارقة بالقضاء والقدر أو بسبب غير حسي معلوم. بل نذهب أبعد من هذا حين نقول إن الفطرة الموضوعية تقع في بداية الطريق لا في نهايته. وأن ما ظنه "كونت" يمثل مرحلة التضجع العقلي . يمثل مرحلة الطفولة النفسية لا مرحلة النضج والكمال ذلك بأن مبعثها الحاجة العاجلة ، وضرورة الحياة اليومية وبأنها وظيفة الحس لا العقل وبأنها من معدن القابلية والانفعال لا من معدن الفاعلية والإنشاء أما نظرة التعليل فإنها تنبثق في النفس على إثر ذلك متى استيقظت ملكرة التجريد والتعيم في التصورات والأحكام أما المرحلة الدينية فواضح أنها لا تولد في النفس إلا حينما يتسع أفقها فتجاوز الكون بظاهره وباطنه إلى ما وراءه فهي أوسع النظريات مجالاً وأبعدها مطلباً وهكذا ينقلب الترتيب الذي تخيله الفيلسوف رأساً على عقب وال حاجات النفسية المعقولة. حاجة الحس فحاجة العقل فحاجة الروح أو إن شئت قلت حاجة الحس فحاجة العقل القائم فحاجة العقل المتسامي المتمثلة في الدين^(٣) وهذا النقد الذي يوجه إلى النظرية في بنيانها الفكرى يأتي على

(١) الإسلام والعلم التجربى ص ٩٩ - ١٠٠ د/ فاروق الدسوقي

(٢) الموسوعة الميسرة ج ٢ ص ٨٢٢

(٣) انظر الدين للدكتور دراز ص ٨٥ - ٨٧ بتصريف وانظر الإسلام والعلم التجربى ص ٩٧ - ٩٨

أصولها من القواعد. وهي تفسيرات لا مجال لإنكارها أو المزايده عليها. إن "كانت" بهره العلم التجربى فحصر فيه كل الحقيقة وجاءت فلسفته الواقعية هي الفلسفة المادية بالرغم من تحفظه إذا أنها تؤدى إلى النتيجة ذاتها، وهي إنكار الميتافيزيقيا أو الغيبات^(١)

ديانة الإنسانية وهدمها للمذهب الوضعي

أين العلم الوضعي عند مدعيه "كانت" فيما اخترعه من ديانة الإنسانية^(٢) بعد أن رفض الأديان جميعها. صنع ديناً جعل المعبود فيه هو الإنسان بدلاً من الله. (إمرأة) تدعى "كلوتيلد دى فو".

والكتاب المقدس لدى الإنسانية إنجيل الوضعيه. عبارة عن الرسائل المتبادلة بينه وبينها.

والعبد هو شقتها التي كانت تعيش فيها.

وقدس الأقداس الكرسى الذى كانت تجلس عليه وبعض متعلقاتها الشخصية بل أكثر من هذا صاغ صلاة لها. يقف هو وأتباعه أمام تمثال أم البشرية لمناجاتها. وصارت تلك المرأة هي شيطانه الذى يوحى إليه أثناء تحريره كتابه الكبير (مذهب فى السياسة الواقعية) أو كتاب (فى علم الاجتماع) يصنع ديانة الإنسانية (١٨٥١-١٨٥٤) فى أربعة مجلدات واختصره فى كتاب (التعليم الدينى الواقعى) أو عرض موجز للديانة الكلية ١٨٥٢ م^(٣) وقد أدى صنيعه هذا إلى اعتزال تلاميذه له وعدوه خارجاً عن الفلسفة الواقعية الخاصة^(٤) فأى شيء أكبر شهادة على أن نهاية العلم البشرى ليست هى إطفاء الغريزة الدينية. بل زيادة إشعالها من أن مؤسس المذهب الوضعي وكبار أتباعه كما يقول الدكتور دراز "قد انتهوا إلى الاعتراف صراحة أو ضمناً بهذه الحقيقة بناءً على تجربتهم فى أنفسهم. وهذا "كانت" نفسه الذى كان يتمنى بأن فناء الديانات سيكون هو النهاية لتقديم العلوم فعاد آخر أمره إلى الدين، وكل

(١) تاريخ الفلسفة الحديثة ص ٣٢٩

(٢) ديانة الإنسانية هي (عبادة الإنسانية باعتبارها الموجود الأعظم الذى تشارك فيه الموجودات الماضية والمستقبلة المساعدة فى تقديم بنى الإنسان وسعادتهم) تاريخ الفلسفة الحديثة ص ٣٢٨

(٣) نفسه ص ٢١٧ وانظر المبحث الخاص بالمذهب الوضعي فى كتاب أستاذنا الدكتور يحيى هاشم فى مواجهة الإسلاميين. نشر مجمع البحوث الإسلامية

(٤) تاريخ الفلسفة الحديثة ٣٢٧

حياته بوضع ديانة جديدة طبعها على غرار النظام الكنسي للديانة الكاثوليكية في عقائدها وطقوسها، وأعيادها وطبقات قساوستها. رواية كاملة أعاد فصولها ولم يغير إلا أشخاصها^(١) ولكن استبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير رجع إلى وثنية بدائية ساذجة ذكرتنا بأشد الشعوب همجية حين تحرف عن الوحي والحق، وصدق الله العظيم إذ يقول **﴿إِن يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَّهُمْ إِنَّمَا يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا﴾**^(٢) وهي وإن نزلت في أهل مكة الذين كانوا يعبدون الأوثان ويسمونها باسم الإناث إلا أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب كما يقول الأصوليون. ولذا فإن الآية عامة في أمثال "كانت" ومن بعده في كل زمان ومكان. وتأتي الدقة في التعبير بالإنساث. كما ورد عن الحسن وقتادة إلا إناثاً: أى موتاً لا روح فيه لأن أصنامهم كانت من الجمادات سماها إناثاً لأنه يخبر عن الموت كما يخبر عن الإناث ولأن الإناث أدنى الجنسين كما أن الموات أرذل من الحيوان^(٣) وقد تحققت الحستان في المعبودة التي عبدها كانت بعد مماتها، وأقيمت لها المعابد في باريس بل إن أكبر المعابد لأتباع الوضعية في البرازيل. إنهم تركوا الإله الحق واتخذوا آلية متعددة عبادوها من دون الله وأنزلوا عليها صفات الإله الحق...، وصدق الله العظيم إذ يقول **﴿أَفَرَءَيْتَ مَنْ أَخْدَى إِلَهَهُ هَوَّلَهُ وَأَضْلَلَهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غَشْوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾**^(٤) **﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاةُنَا الدُّنْيَا تَمُوتُ وَخَتِّيَا وَمَا يَهْلِكُنَا إِلَّا الْدَّهْرُ وَمَا هُمْ بِذِلِّكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظْلَمُونَ﴾**^(٥) إن الله يرسم صورة للنفس البشرية حين ترك الأصل الثابت الذي يحركها وتشعر به وهو الله. ثم تعبد للهوى وتخضع له وتقيمه إليها قاهراً مستولياً عليها، وإن العجب من الذي اخذه إلهه هواه بعد أن عرف الحق، ولكنه لم يرعوي لهدى الله فاستحق الإضلال من الله وتركه في عماليته وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة.^(٦)

(١) الدين للدكتور دراز ص ٩٤ بتصرف

(٢) سورة النساء الآية ١١٧

(٣) مختصر تفسير البغوي ج ١ ص ١٩٦

(٤) سورة الجاثية الآية ٢٣

(٥) سورة الجاثية الآية ٢٤/٢٣

(٦) في ظلال القرآن ج ٥ ص ٣٢٣١ / ٣٢٣٠

المسألة الثانية: العلم التجربى قائم على الغيبيات

منذ أن ظهر العلم التجربى وكثير من الناس فى فتنة عمياً من هذا الصنم الجديد لقد سرى فى كثير من الناس يقين أو شبه يقين أنه إذا قال العلم الحديث أو اكتشف العلماء كذا. تنصب حالة عليه.^(١) وكأنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. وإذا ذكرت لهم أن الدين يقول أو قال الله أو قال رسوله تراهم يعرضون أو على الأقل لا يكون إنصاتهم مثل إنصاتهم لما يقره العلم خاصة إذا كان القول مرتبطاً بالأسماء الأجنبية أو المراجع الأوروبية أو الأمريكية. وصدق الله إذ يقول ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ أَشْمَأَرْتُ قُلُوبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبِّهُونَ﴾

وها نحن نستشهد بأقوال أساطير العلم التجربى للتدليل على أن العلم التجربى يستخدم فى بنائه نفس الأمور التى يستخدمها الدين. من حيث الاعتماد على أمور غيبية. فإذا كان المؤمن يؤمن بقوة غيبية لا ترى هذه القوة هي الله فإن الماديين يؤمنون بقوة غيبية لا ترى وهم مضطرون إلى ذلك. فما القانون العلمى والقوة والحركة والزمن والأزل والأبدى إلا مفاهيم لا تخضع للحس والمشاهدة ومع ذلك لا يجرؤ أحد من الذين يستغلون بالعلم التجربى أن ينكرها وإنما كان علمه ساذجاً واتهمه زملاؤه بالسطحية يقول "وحيد الدين خان" إن أى عالم من علماء عصرنا لا يستطيع أن يخطو خطوة دون الاعتماد على ألفاظ مثل القوة (Force) والطاقة (Energy) والطبيعة (Nature) وقانون الطبيعة (Law / o f nature) وما إلى ذلك ولكن هذا العالم لا يدرى ما القوة والطبيعة وقانونها. فهو قد صاغ كلمات تعبّر عن وقائع معلومة لكي يدلّ على علل غير معلومة، ولكن هذا العالم لا يقدر على تفسير هذه الألفاظ تماماً كعالم الدين. كلاهما يؤمن بدوره بعمل غير معلومة^(٢)

(١) انظر الأقوال التى نقلها الأستاذ محمد فريد وجدى عن الغربين فى هذا المعنى فى كتابه الإسلام فى عصر العلم

(٢) الإسلام يتحدى ص ٦٢ / ٦١

يقول أحدهم "إن العلوم مهتمة بتحسين نظرياتها وهي تحاول أن تكشف عن كنه الحقيقة ولكنها كلما اقتربت من هذين الهدفين زاد بعدها عندهما إن فكرتنا قائمة على أساس حواسنا القاصرة وعلى استخدام ما لدينا من الأدوات غير الدقيقة نسبياً إن العلوم لا تستطيع أن تفسر لنا كيف نشأت تلك الدقائق الصغيرة المتناهية كما لا تستطيع أن تفسر لنا بالاعتماد على فكرة المصادفة وحدها كيف تجتمع هذه الدقائق الصغيرة لكي تكون الحياة^(١) ذلك واحد من المهتمين بالعلم التجربى يقول هذا الكلام بعد "كونت" بأكثر من قرن. مع التقدم النسبي في أدوات العلم التجربى في عصره مقارنة بزمن "كونت" إذا كانت العلوم لا تستطيع أن تفسر وهذا العجز يُصرح به؟ إذن فلا مناص من الاعتراف بالله ليفسر لنا ما عجزت العلوم عنه وما ستعجز عنه مستقبلاً. إن التجربة والمشاهدة ليستا وسليتى العلم القطعيتين والعلم لا ينحصر في الأمور التي شوهدت بالتجربة المباشرة يقول "الكسيس كاريل" إن الكون الرياضى شبكة معقدة من القياسات والفرض لا تشتمل على شيء غير معادلة الرموز التي تحتوى على مجردات لا سبيل إلى تفسيرها^(٢) إذن فمن الذي يفسر ومن الذي يعطي اليقين إنه الدين الصحيح المتمثل في الإسلام.

يقول أحد علماء الفيزيقيا "إننا نستطيع أن نبني كثيراً من النظريات على عدد قليل من البدهيات أو تلك الفرضيات التي نسلم بها ونقبلها دون مناقشة أو جدال حول صحتها، وعند إثبات أي نظرية نجد أن برهانها يعتمد في النهاية على مسلمات أو أمور بديهية، ومع ذلك فإن النظريات مجتمعة لا تستطيع أن تقدم دليلاً على صحة بديهية من هذه البدهيات. فالواقع أننا نقبل البدهيات قبول تسليم وإيمان^(٣) ويضيف قائلاً وليس معنى ذلك بطبعية الحال أنه تسليم وإيمان أعمى لا يقوم على البصيرة، وكذلك الحال فيما يتعلق بوجود الله فوجوده تعالى أمر بديهي من الوجهة الفلسفية والاستدلال بالأشياء على وجود الله لا يرمى إلى إثبات البدهيات ولكنه يبدأ بها"^(٤)

(١) انظر مقال المادة وحدها لا تكفي - ضمن كتاب الله يتجلى في عصر العلم ص ٥٧

(٢) الإسلام يتحدى ص ٦٢

(٣) انظر منطق الإعان - جورج هربرت بونت أستاذ الفيزياء التطبيقية ضمن الله يتجلى في عصر العلم ص ٨٥

(٤) نفسه

هذه أقوال الباحثين في العلوم وفلسفتها في القرن العشرين. يقررون أن العلم التجربى يقوم على التسليم والإيمان.

يقول أحدهم "إنتى أسلم بوجود اللاماديات لأننى بوضعى من علماء الفيزياء أشعر بالحاجة إلى وجود سبب أول غير مادى. إن فلسفتى تسمح بوجود غير المادى لأنه بحكم تعريفه لا يمكن إدراكه بالحواس الطبيعية فمن الحماقة إذن أن أنكر وجوده بسبب عجز العلوم عن الوصول إليه، وفوق ذلك فإن الفيزياء الحديثة قد علمتني أن الطبيعة أعجز من أن تنظم نفسها أو تسيطر على نفسها"^(١) هل إذا وضعنا مفهوم المذهب الوضعي الذى لا يعتبر شيئاً حقيقاً ولا واقعياً إلا إذا كان يمكن إدراكه بالحس، ويخضع للتجربة. بعد الذى قرأناه يُعد تعریف الوضعيّة صحيحاً أوله مكان وسط العلم؟

إن قانون الجاذبية لا يمكن ملاحظته قطعاً وكل ما شاهده العلماء لا يمثل في ذاته قانون الجاذبية وإنما هي أشياء أخرى اضطروا لأجلها منطقياً أن يؤمنوا بوجود هذا القانون. ما حقيقة هذا القانون من الناحية التجريبية؟ ها هو نيوتن يتحدث في خطاب أرسله إلى أحد أصدقائه "إنه لأمر غير مفهوم أن نجد مادة لا حياة فيها ولا إحساس وهي تؤثر على أخرى مع أنه لا توجد أية علاقة بينهما"^(٢)

والحق ما ي قوله العالمة الدكتور دراز حين يذكر أن العلم يؤمن اليوم بأن في الوجود قوى لا ينالها الحس المجرد، ولا المجهز بأقوى المعاشر المزود بأدق المقاييس ، والموازين وبالجملة أصبح يؤمن بأن التجربة الحسية المباشرة ليست هي المعيار الوحيد للوجود وهكذا وضع بيده اللبنة الأولى في القواعد التي تقوم عليها الأديان^(٣) لقد وضعت نظريات عديدة لكنى تفسر لنا كيف نشأت الحياة من عالم الجمادات فذهب بعض الباحثين إلى أن الحياة نشأت من البروتوجين أو من الفيروس أو من تجمع بعض

(١) المبدع الأعظم مقال كلودم ها ثواى من كتاب الله يتجلى في عصر العلم ص ٩٦

(٢) الإسلام يتحدى ص ٦٤

(٣) انظر الدين للدكتور دراز ص ٩٠

الجزئيات البروتينية الكبيرة وقد يخيل إلى بعض الناس أن هذه النظريات قد سدت الفجوة التي تفصل بين عالم الأحياء وعالم الجمادات ولكن الواقع الذي ينبغي أن نسلم به هو أن جميع الجهود التي بذلت للحصول على المادة الحية من غير الحية قد باءت بخذلان وفشل ذريعين. إن كل خلية حية بلغت من التعقد درجة يصعب علينا فهمها وأن ملايين الملايين من الخلايا الحية الموجودة على سطح الأرض تشهد بقدرتها سبحانه وتعالى شهادة تقوم على الفكر والمنطق^(١) هذه النصوص كلها أليست شاهدة على مدى التعصب والهوى عند بعض الذين يتعاملون مع تلك الغيبيات في العلم التجربى. وهم مضطرون لذلك. وإلا ستتوقف البحوث تماماً. ولن يتقدم العلم قيد أملة. لكن إذا عرض عليهم الدين رفضوه لأنه يقوم على الغيبيات ومن ثم أنكروا حقائق هى أوثق ما يتعاملون معه باسم العلم. إن هؤلاء وأولئك ينطبق عليهم قوله تعالى ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَنِيَّوْنَ﴾^(٢)

قوله تعالى ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعَ مَنْ أَغْفَلَنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَأَتَّبَعَ هَوَنَهُ وَكَاتَ أَمْرَهُ فَرُطَّا هُ﴾^(٣) أى ضياعاً وقيل معناه ضياع أمره وقطع أيامه في الباطل ومخالفة الحق^(٤)

(١) انظر مقال رسول تشارلز أرنست الخلايا الحية تؤدي رسالتها ضمن كتاب الله يتجلى في عصر العلم ص ٨٣ وانظر الإسلام والعلم التجربى ص ٩٨

(٢) سورة الروم الآية ٧

(٣) سورة الكهف الآية ٢٨

(٤) تفسير البغوى ج ٢ ص ٥٣٥

المسألة الثالثة: إخفاق العلم التجاري في حل مشكلات الإنسان

لقد استعرض "كانت" "تاريخ البشرية قبل عهد العلم والصناعة واستخلص منه أن عهدين قبل هذا العهد مراً بالإنسانية ولم يزل الإنسان في طور الغاب والحيوانية، والغريزة العمياء، والأناانية رغم وجود الدين "الكنسي" كمصدر للتوجيه في عهد وجود الفلسفة بعده في عهد آخر، ورغم إسناد التوجيه في العهد الأول إلى رجل الدين وال الحرب وفي العهد الثاني إلى رجل الفلسفة ورجل القانون، ولكن عصر العلم، والصناعة بعدهما وإسناد التوجيه فيهما إلى رجل العلم والصناعة كفيل في نظره بنقل الإنسان من هذا المستوى الغريزي الحيواني إلى المستوى الإنساني بمعناه الصحيح^(١)، وفي رأيه أنه " كلما تقدم العلم وقوى الإيمان بالإنسانية كلما تقدم الإنسان وابتعد عن الحيوانية وعن سيطرة الغريزة العمياء وتحكم الأنانية"^(٢)، ونحن الآن بعد مضي فترة ليست بالقصيرة تقدم العلم التجاري فيها أضعاف أضعاف ما كان عليه في عهد "كانت" والمفترض بناءً على طرح "كانت" أن تحل جميع المشاكل المتعلقة بالإنسان فهل حدث هذا؟ وحل العلم المشاكل التي تورق الإنسان في العصر الحديث؟ وهل انتهت القرصنة وشريعة الغاب؟ وهل بعد التقدم العلمي المذهل الذي تسبب في مليء خزانات الدول والأفراد في الغرب الصناعي بالأموال، شعر إنسان القرن العشرين بالسعادة؟ أسئلة يجيب عليها الواقع وتشهد لها التجربة، يقول "روجيه جارودي" إن الاعتقاد بقدرة العلوم الموضوعية والتقنيات المتقدمة على حل مشكلاتنا، والقول بأن مفتاح جميع القضايا الإنسانية في يد هذه العلوم والتقنيات وهم، خرافى فتاك. وقد صب هذا الاعتقاد بكل غباء ولا مبالغة انتشارية في قالب عصري كاذب يقول "لا يمكننا وقف التقدم"^(٣) ويقارن "جارودي" بين أكثر النماذج وحشية في التاريخ وبين ما فعله العلم وتقنياته بقوله "لقد أمضى

(١) الفكر الإسلامي والمجتمع المعاصر ص ٣٩٥ الدكتور محمد البهى.

(٢) نفسه ص ٣٩٧.

(٣) ما يعد به الإسلام ص ١١٤ - ١١٥

تيمور لنك بعد الاستيلاء على أصفهان عدة أيام في ذبح سبعمائة ألف من البشر. أما في هيروشيمما فلقد وصل الإنسان إلى النتيجة نفسها خلال ثوان معدودة وهذا - لعمري - تقدم علمي لامراء فيه، وعالم اليوم يملك ما يوازي مليون قنبلة من قبلة هيروشيمما "أى ما يعادل خمسة أطنان من المتفجرات التقليدية على رأس كل مواطن على هذا الكوكب"^(١) هذا هو العلم التجربى الذى يُتَّخَذَ صنماً بعده من دون الله. والذى يذهب "كونت" إلى قدرته على حل المشاكل - نعم إنه يحل مشكلة . ولكن "يخلق صعوبات لا حصر لها، مع غياب الموجه لهذا العلم وتلك التقنية يذكر "روجيه جارودى" هذا الذى عاش فى قلب الحضارة الغربية وسب أغوارها أن تحسين الغرب لتقنياته فى قطع أشجار الغابات ، وفى تطوير زراعة الحصول الواحد. لم يؤد إلا إلى موت خمسين مليوناً من البشر جوعاً فى العالم الثالث ، وهذا الرقم سيصل إلى خمسة وثمانين مليوناً بعد كل خمس سنوات بعد أن تسببت تقنياته إلى تعرية جبال الهيمالايا ، وفيضانات بنجلادش^(٢) أنه التقدم العلمي الذى يرمى بالفائقين من الحبوب فى البحار للمحافظة على السعر العالمى . إن الدول المتقدمة تصرف مائة مليار سنوياً على الخمور وثلاثمائة مليار دولار على التسليح يكفى استعمال ٣٪ فقط من مصروفات الخمور أو بتحفيض ١٪ فقط من مصروفات التسليح لكي توفر المياه النظيفة فى العالم^(٣) فهل فعل أرباب العلم التجربى؟ أم أن العلم التجربى يخنق جنساً دون جنس ، واقع الأمر يقول ذلك إن الإنسان الأبيض ، وهو إنسان المجتمع الأمريكى والغربي مجتمع "كونت" لا يزال يباشر التفرقة العنصرية فى سياساته مع غير الإنسان الأبيض النصرانى. لأنه من الممكن أن يكون أياً مهماً ومارس ضدّه تلك التفرقة وما المسلمين فى أوروبا . فى البوسنة والهرسك والبلقان إلا خير شاهد على ذلك. وليتأتى معنا القارئ النموذج الذى نورده للتدليل على أن إنسان العلم التجربى قد تجرد من كل إنسانية وهو يتعامل مع غير الأبيض النصرانى.

(١) ما يعد به الإسلام ص ١٥ .

(٢) نفسه

(٣) الحرمان والتخلف فى ديار المسلمين ص ٣٦٠-٣٥ د/ نبيل صبحى "كتاب الأمة" العدد ٧ شوال ١٤٠٤

أوردت مجلة المجتمع الكويtie في أحد أعدادها ملخصاً لكتاب بعنوان "الإيمان والدين" لمؤلفته الهولندية "سوزان جورج" تتحدث في هذا الكتاب عما يقوم به سدنة النظام الرأسمالي نتاج العلم التجاري. تقول "يكتب نائب رئيس البنك الدولي للتنمية الاقتصادية في تقرير له عن تصدير الصناعات القدرة لدول العالم الثالث وضرورة قيام البنك الدولي بمساعدة تصدير هذه الصناعات والحجج القوية الدافعة لهذا العمل ما يأتي :-

١- عندما تلقى النفايات السامة في بلد متوسط دخل الفرد فيه (٢٠٠٠٠) عشرون ألف دولار سنوياً، ومتوسط عمره الحالي أربعين سنة ويتوقع أن يعيش خمسة وعشرون عاماً أخرى فإن الاقتصاد العالمي يتوقع دخلاً يساوى $(25 \times 20) = 50000$ خمسماة ألف دولار في حين أن الفرد في العالم الثالث يتوقع أن يكون دخله على أحسن الفروض (٣٠٠ دولار) في السنة ويتوقع أن يعيش خمس عشرة سنة أخرى ولذلك فهو لا يضيف إلى الاقتصاد العالمي سوى $(300 \times 15) = 4500$ دولار في إلقاء النفايات في البلد الثاني بشكل تصرفً منطقياً.

٢- إن كثيراً من بلدان العالم الثالث تعداد سكانها منخفض، ودرجة التلوث فيها منخفضة بما يعني أن هواءها وماءها أقل تلوثاً من دول العالم الأول الصناعي وبذلك يكون منطقياً إلقاء النفايات هناك حتى تلحق بدول العالم الأول. في درجة تلوث بيئتها.

٣- إن الشحاذين لا خيار لهم فإذا أرادوا أن يقبلوا معوناتنا فعليهم أن يقبلوا شروطنا ^(١)

بهذه المعادلة البسيطة ينظر نائب رئيس البنك الدولي للتنمية للبشر من غير دول العالم المتقدم. إذا كان موت فرد من دول العالم الثالث يكلف الاقتصاد العالمي (٤٥٠٠) دولار وموت أحد أفراد العالم الصناعي الأول يكلفه (٥٠٠٠٠) خمسماة ألف دولار. فلتكن التضخمية بأفراد العالم الثالث. والتحليل بسيط ما داموا يأخذوا

(١) انظر مجلة المجتمع الكويtie وانظر للحقيقة فقط متى الأسعد فيه ثماذج لا حصر لها عن الرجل الأبيض وأخلاقيات العلم التجاري.

معوناتنا فليقبلوا شروطنا - التي تعنى الهلاك والدمار الحسى والمعنوى . وهنا نقول أين ديانة الإنسانية . وهل استطاعت أن تحد من غلواء الغربى ؟ وهل هذه السياسة العنصرية أمارة على العلم وبالتالي على تقدم الإنسان أم دليل واضح على الاعتقاد بالخرافة ، وبالتالي على التخلف كما يقول الدكتور البهى رحمة الله ^(١)

الحق أن حضارة الغرب قد أقامت ناطحات السحاب وأجرت مراكب الفضاء بين الكواكب ووضعت قدم الإنسان على وجه القمر ، وغمرت الأسواق بألوان الرفه والترف ولكنها لم تدخل على مشاعر الناس وأحاسيسهم إلا القلق والخيرة ولم تسكب فى قلوبهم إلا الأثرة والأثانية ولم تثر فى تفكيرهم إلا دافع العداون والسلط ^(٢)

ينقل الأستاذ " محمد فريد وجدى " عن العالمة " كاميل فلا مريون قوله " لا يجوز لنا أن نخجل من الاعتراف بما وقعنا فيه من الانحطاط لأننا رضينا به وأصبحت عقولنا المشتبعة بالأثرة لا همّ لها إلا أغراضها الذاتية أليس حظنا اليوم من الحياة قد استحال لجمع الثروة بلا مبالاة بوجوه جمعها والحصول على المجد بطريقة الاغتيال لا الكسب ، والجمود وعدم الاهتمام بالواجبات ؟ وإن من التناقض بين المؤلم أن نرى هذا الرقى الباهر الذى حصل فى العلوم مما لا مثيل له فى التاريخ وأن هذه الفتوحات المتواتلة التى تمت للإنسانية فى الطبيعة بينما رفع عقولنا إلى الدرجات العالية ، قد هبط بإنسانيتنا إلى أخس الدرجات " ^(٣) وبالفعل أشيع جانب فى الإنسان وأهملت جوانب أخرى كثيرة . وذلك مرده إلى النظر للأمور من جانب واحد . وهذا شأن الإنسان حين لا يكون له مرجع صحيح يتمثل فى دين حق يرجع إليه والدين الحق الذى نقصده هو الإسلام .

(١) انظر كتابه الفكر الإسلامي المعاصر مشكلات الحكم والتوجيه ص ٣٩٨ وما بعدها

(٢) الله ذاتاً وموضوعاً ص ٥١ للأستاذ عبد الكريم الخطيب . دار الفكر العربي .

(٣) الإسلام فى عصر العلم للأستاذ محمد فريد وجدى ج ١ ص ٢٨٣ بتصريف يسir وانظر أيضاً من ٢٢٨ .

المقالة الرابعة: انتشار السحر والتنجيم في الحضارة الغربية المعاصرة على الرغم من العلم

التجريبي:-

هذه الحالة هي التي دفعت الأفراد في المجتمعات الغربية إلى الهروب من هذا الجحيم إلى الوهم والسراب حيث قارئات الفنجان. وضاربى الودع بعد قرن ونصف من تبشير "كونت" بالذهب الوضعي وأربعة قرون من ولادة ديكارت صاحب العبارة الشهيرة "أنا أفكّر إذن فأنا موجود" كل هذه العقلانية والوضعية اللتان بَزَّغَتَا من فرنسا. لم تَحُلْ دون تفشي ظاهرة لجوء الفرنسيين المتزايد لقارئي الطالع الذين يبلغ عددهم في إحصاء رسمي الخمسين ألف ممتهن بينما عدد الكهنة الكاثوليك لا يتجاوز الستة والثلاثين ألفاً، وعلماء النفس الستة آلاف) أما مهنة التنجيم في فرنسا التي يقدر عدد زبائنه المدمنون بـ مليون ونيف، وهناك فروع عدّة من قراءة الفنجان إلى قراءة الكرة الزجاجية إلى قراءة ورق الكوتشينا إلى قراءة الغيب في كوب ماء إلى السحر الإغريقي والمندل المغربي إلى الوصفات العجائب من الأعشاب والسوائل والحجيات والأبراج. وبالرغم من أن القضاء يلاحق من حين آخر بعض المشعوذين الذين يتعاطون هذه المهنة لابتزاز بعض العجائز فإن ظاهرة التنجيم وقراءة البخت والسحر تلفت النظر في وطن "ديكارت" أما في الجانب الآخر من المحيط الأطلسي فإن اللجوء المتزايد إلى الأطباء النفسيين والعقلانيين للمعالجة فضلاً عن انتشار عبادة الشيطان إلى الهيز وغير ذلك من البدع التي تظهر كل حين وأخر. وتساءل صحيفة "النيويورك تايمز" عن سر انتشار هذه المظاهر في فرنسا؟ تجيب الصحيفة عن السبب في ذلك بأن الفرنسيين هم رواد المذاهب. وتدلل الصحيفة بأمثلة كثيرة على هذه المذاهب. إلا أن الإجابة التي يصعب تجاهلها. وهي من العوامل الرئيسة في انتشار هذه الأشياء في موطن "ديكارت" و "كونت" - هي العطش الروحي والقلق النفسي المتمثل في البحث عن منطلقات جديدة^(١) قد تكون بدائية أو لا تكون ولكنها تمثل نوعاً من الهروب إلى المجهول في غياب القيم والدين من بنية المجتمع الغربي ماذا يقول لنا "كونت" وأتباع الوضعية عن هذه

(١) جريدة الشرق الأوسط العدد ٦٣٨٢ الأحد ١٩٩٦/٥/١٩ م مقال بعنوان اللاعقلانية الفرنسية. باسم الجاسر

النماذج التي انتشرت ليست على مستوى العوام بل على مستوى الشخصيات السياسية والاقتصادية وأصبح بعض رؤساء الدول عرّافات هن من أعلام المجتمع^(١) فقد كانت زوجة الرئيس الأمريكي "رونالد ريجان" تستشير عرافة أصولية كانت تدعى القدرة على تلقى الرؤى من الله، وكان الهدف من استشارة زوجة "ريجان" لها معرفة ما يجب فعله من قبل الرئيس حسب إرادة الله ومشيئته^(٢) إذن أين العلم الأمريكي والتقنيات الحديثة؟ أين الجيوش الجرارة من رجال المخابرات ومستشاري الأمن القومي. وعلماء النفس والمجتمع الذين يحللون ويدرسون ويكتبون التقارير؟ ما بال "ريجان" وغيره لم يلجم إليةم إنها الفطرة حين تؤخذ الإنسان فيحاول أن يلجم إلى المجهول حتى ولو كان هذا الغيب خرافات وأساطير وأضغاث أحلام؟ ماذا لو رجعوا إلى الدين الحق التمثيل في الإسلام. الذي يشبع الروح كما يشبع الجسد. والذي يتعامل مع الإنسان كإنسان من مادة وروح يعطي كلاً منهما بقدرٍ فلا طغيان لأحدهما على الآخر ولا إفراط ولا تفريط.

لقد أدرك بعض العلماء أنهم ضللوا الناس حين زعموا لهم أنهم يستطيعون تفسير كل شيء في الكون بقانون مفهوم. أدركوا أن دعواهم بأن العلم يستطيع أن يفسر المجاهيل كلها لم يكن سوى خرافة، وأن العصر الذهبي للعلم في نظرهم الذي سيطر فيه الإله الجديد فجعل يثبت ما يدخل في إدراكه، وينفي ما لا يقع في نطاقه هذا العصر كله عصر الخرافة الكبرى^(٣) .

هكذا يعترف العلماء التجاريين. الواحد منهم بعد الآخر. إنهم يسجلون الحيرة والتعجب بالرغم مما وصلوا إليه. فما بال المستضعفين من الرجال والنساء الحيari والضالين تحت دعوى أن العلم قادر على كل شيء ما بهم لا يرجعون!! يقول السير جيمس جينز عالم الفلك الذي بدأ حياته ملحداً شاكاً "لقد حاولنا أن نبحث فيما إذا كانت العلوم الحديثة عندها ما تقوله عن مسائل صعبة معينة. ربما كانت إلى الأبد بعيدة عن منال العلم التجاري ولا نستطيع أن ندعى أننا لخنا أكثر من بصيص ضعيف من النور، وربما كنا واهمين تماماً في لمح هذا البصيص بالتجربة

(١) الإسلام والاتجاهات العلمية ص ١٢/١١

(٢) المسيحية وال الحرب ص ٤٥ للدكتور رفيق حبيب. الناشر دار يافا

(٣) في النفس والمجتمع ص ٤٢-٤٣ محمد قطب

الموضوعية فإننا ولا شك قد اضطررنا إلى أن نجهد أعيننا إجهاداً عظيماً قبل أن نظر برؤية شيء ما، ولذا فليس معنى كلامنا أن العلم عنده قول فصل يلقىه بل على العكس ربما كان خيراً ما نستطيع أن نقوله: إن العلم قد عدل عن إلقاء الأقوال جزافاً كما في الماضي. فإن نهر المعرفة قد تعرج في اتجاه سيره مراراً وتكراراً، وعجز عن إخضاع قضايا الدين والفلسفة لأسلوبه الحسى وإن العلم المادى كلما تقدم في أبحاثه التى تتزايد، وتتضخم يوماً بعد يوم ويرى أن أكثر قضاياه وضوحاً تختفى في طواياها جيشاً عظيماً من الأسرار وما زال هذا شأنه. كلما وصل إلى منطقة من مناطق البحث، وخيل له فيها أنه بلغ الغاية. بدت له مناطق أخرى بعيدة المدى تتصل في حقيقته وجودها بعالم العتقد الذى هو عالم الوجود والإيمان^(١)

هذا الكلام صادر عن أحد أساطين العلم. وهو يقرر في كلامه أن تقدم العلوم يزيد البشرية حاجة إلى الدين أو الأصل أن يكون كذلك. لا كما ذهب أرباب الوضعيه ومن على شاكلتهم. ولعل التوغل في العلم ثم الرجوع منه بدون ما كان يتوقع الباحث هو الذى يدفع هؤلاء إلى الدين دفعاً. لأن الدين عنده إجابات عن كثير من الأسئلة التى يعجز عنها العلم.

ولعل رجوع الباحثين إلى الدين بعد توغلهم في العلم يعيد إلى الذاكرة ما كان من شأن سحرة فرعون مع موسى عليه السلام. ذلك أن فرعون جمع كل سحّار علیم فلما أخرجوا ما تعلّمُوه من السحر، وهو نهاية العلم فيه، ثم ألقى موسى عصاه فإذا هي تلتف ما يأفكون؛ أيقنوا أن الذى عند موسى ليس من السحر فى شيء لأنه لو كان منه لعلمه. ولذلك كانوا صادقين وأعلنوا الإيمان.

يقول سبحانه ﴿فَأَلْقَقَ السَّحَرَةَ سُجْدًا قَالُوا إِنَّا بِرَبِّ هَرَوْنَ وَمُوسَىٰ ﴾ قالَ إِنَّمَا تُمْلَأُ لَهُ رَقَبَلَ أَنْ إَذْنَنِي لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلِمْتُكُمُ السِّخْرَ فَلَا قُطْعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلُكُمْ مِنْ خَلْفِي وَلَا صِلْبَنِكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَعَلَّمْتُنَّ أَيْنَا أَشَدُ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾^(٢)

(١) انظر الدين والفلسفة العلم ص ٣٧-٣٨ . محمود أبو الفيض المنوفى - الناشر دار الكتب الخديوية .

(٢) سورة طه الآية ٧٠-٧١ . وانظر شرح المواقف ص ٣٥٤

إن الجميع سيعود مرة أخرى إلى الدين لأن الملاذ وهو اليقين والطمأنينة ولكن أي دين الذي يحقق لإنسان العصر الحديث وما بعده التوازن بين النفس والجسم بين الإنسان والكون بينه وبين المجتمع هل النصرانية بما آلت إليه؟ كلا. هل اليهودية بتعصبها المقوت وإرهابها وتطرفها؟ كلا هل البوذية الديانة الخالية من فكرة الألوهية؟ كلا إن الذي يحقق ذلك كله هو الإسلام. وهذا ما ستحدث عنه في الصفحات القادمة إن شاء الله.

الخاتمة وتشتمل على

تعقيب أول

الإسلام والعلم

إن أهم ما يميز الإسلام هو جانب الشمولية في تعاليمه ونعني بالشمولية هنا أن الإسلام لا يحدد منطقة الله ومنطقة للإنسان بل الأمر كله لله. فأمر الحياة وعمارة الأرض للإسلام فيها توجيه يتمثل في القصد في الطلب وبذل أقصى الجهد لعمارة الأرض واستخراج خيراتها يقول تعالى ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلْلًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾^(١) ويقول لقارون فيما يحكيه القرآن ﴿وَأَتَيْتُكَ مِمَّا أَتَيْتَكَ اللَّهُ أَدَارَ الْأُخْرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنْ أَنْذِنِي وَأَخْسِنْ كَمَا أَخْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾^(٢)

ومعلوم أن عمارة الأرض واستخراج خيراتها والتمتع بما أودعه الله فيها من كنوز لا يتم إلا بالعلم والمعرفة اللتان يحيث عليهما الإسلام ويكتفى أن نعلم أن أول سورة نزلت على قلب محمد صلى الله عليه وسلم بدأت بقول الله تعالى ﴿أَقْرَأْنَا بِأَنْشِرِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿خَلَقَ الْإِنْسَنَ مِنْ عَلْقٍ﴾ أَقْرَأْنَا بِأَنْشِرِ رَبِّكَ الْأَكْرَمَ ﴿الَّذِي عَلَمَ بِالْقَلْمَنِ عَلَمَ الْإِنْسَنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾^(٣)

بل إن آدم أبو البشرية ما استحق المنزلة العظيمة إلا بالعلم الذي علمه الله إياه يقول سبحانه ﴿وَعَلَمَ إِدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنِّي عُونِي بِأَسْمَاءَ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَدِيقِي﴾^(٤)

(١) سورة الملك الآية ١٥

(٢) سورة القصص الآية ٧٧

(٣) سورة العلق الآية ٥.١

(٤) سورة البقرة الآية ٣١

وجاءت الآيات القرآنية تحت على التدبر، والتعقل، والتعلم، والذذكر مثل قوله تعالى «**قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ أَنْظُرُوا**»^(١) وقوله تعالى «**وَكَأْيَنِ مِنْ إِيمَانِ**
في السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمْرُونَ عَيْنَاهَا وَهُمْ عَنْهَا مُغَرَّضُونَ»^(٢) وقوله تعالى «**إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ**»^(٣) وقوله «**إِنْ فِي ذَلِكَ لَا يَعْلَمُ بِهِ قَوْمٌ يَتَفَكَّرُونَ**»^(٤) وقوله
«**إِنْ فِي ذَلِكَ لَا يَعْلَمُ لِلْعَالَمِينَ**»^(٥) وقوله «**إِنْ فِي ذَلِكَ لَا يَعْلَمُ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ**»^(٦)

وجاءت الآية الكريمة التي تجمع شتى العلوم الزراعية منها والجيولوجية وعلم الأجناس البشرية، وعلم الحيوان. ثم تقرر أن العلماء أشد خشية لله لأنهم يعلمون بعض أسرار الله في خلقه وكونه ومن ثم فهم يتميزون عن غيرهم بالخشية والإجلال لله.

يقول تعالى «**أَلَّمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفَاتٍ
الْوَهْنَاءِ وَمِنَ الْجِبَالِ جُدُّدٌ بِيَضْ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفُ الْوَهْنَاءِ وَغَرَابِيَّ سُودٌ** ^(٧) وَمِنَ
الْأَنَاسِ وَالَّدَوَابَاتِ وَالْأَنْعَمِ مُخْتَلِفُ الْوَهْنَاءُ كَذِلِكَ إِنَّمَا سُخْنَى اللَّهِ مِنْ عِبَادِهِ
الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ»^(٨)

هنا لم يحدد العلم الديني فحسب وإن كان هو أشرف العلوم وأهمها، ولكن أي علم يوصل إلى الخشية من الله. واستكشاف سنته وكونه يحث عليه الإسلام ويرغب فيه الرسول صلى الله عليه وسلم.

لأن النفس البشرية السوية تتجاوز فيها حب المعرفة، وحب العبادة. لأن الفطرة تتطلع إلى ربها لتعده، وتتطلع إلى الكون من حولها تحب أن تعرف عليه وأدواتها

(١) سورة الأنعام الآية ١١

(٢) سورة يوسف الآية ١٠٥

(٣) سورة يوسف الآية ١٠٤

(٤) سورة الروم الآية ٢١

(٥) سورة الروم الآية ٢٢

(٦) سورة الروم الآية ٢٤

(٧) سورة فاطر الآية ٢٨

الحس والعقل يقول تعالى ﴿ وَآللّهُ أَخْرِجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهِتُكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ الْسَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْيَدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشَكُّرُونَ ﴾^(١)

غذى الإسلام أدوات المعرفة وأطلق العنان للإنسان للبحث والتنقيب لتحقيق الخلافة في الأرض. بالعلم المؤدى إلى الحشية والإيمان والتسليم لله سبحانه وتعالى. وقد فهم المسلمون الأوائل آيات القرآن الكريم واستوعبوا إشاراته فانطلقوا يبحثون وينقبون. مظهرين سنن الله في كونه وأياته في سمائه وأرضه، وقدموا للبشرية طرحاً جديداً في العلم يتمثل في منهج البحث العلمي. مختلفين ما كان سائداً عند اليونان من الاهتمام بالعلم النظري التجريدي والفلسفى. إلى العلم التجربى " وكانت هذه نقلة هائلة في منهج البحث. هي التي أهلت البحث للأفاق الواسعة التي وصل إليها الغرب في القرون الأخيرة "^(٢)

وكان الذي حفز المسلمين للبحث في هذا الاتجاه. آيات القرآن الكريم وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم .

يقول الله تعالى ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيلَ وَالنَّهَارَ أَيَّتَيْنَاهُ فَمَحَوْنَا إِيَّاهُ اللَّيلَ وَجَعَلْنَا إِيَّاهُ النَّهَارَ مُبَصِّرَةً لِتَبَغُّفُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّمُوا عَدَدَ الْسَّيِّنَاتِ وَالْحِسَابَ وَكُلُّ شَيْءٍ فَصَلَّنَاهُ تَفْصِيلًا ﴾^(٣)

وسوف تتحدث عن بعض العلوم التي برع فيها المسلمون :

١- علم الفلك

انطلق المسلمون يدعون في علم الفلك ليس لذات العلم كما يفعل البعض ولكن لأنّه يبحث في معرفة السنين والشهور والمواقعات وأنّه من العلوم التي توصل إلى علم التوحيد وتعظيم رب سبحانه. يقول أحد رواد علم الفلك في الحضارة الإسلامية وهو "البنائي" (٢٤٤ - ٣١٧ هـ) إن من أشرف العلوم منزلة وأنسانها مرتبة وأحسنها حلية، وأعلقها بالقلوب وألمعها بالنفوس وأشدّها تحديداً للفكر والنظر وتزكية للفهم رياضة للعقل بعد العلم بما لا يسع الإنسان جهله من شرائع

(١) سورة النحل الآية ٧٨ وانظر مذاهب فكرية معاصرة ص ٥٠

(٢) واقعنا المعاصر ص ٩٠

(٣) سورة الإسراء الآية ١٢

الدين وستته. علم صناعة النجوم لما في ذلك من جسم الحظ وعظيم الارتفاع بمعرفة عدد السنين والشهور والمواقع وفصول الأزمان، وزيادة الليل والنهار ونقصانهما ومواضع النيران وكسوفهما ومسير الكواكب في استقامتها ورجوعها وتبدل أشكالها ومراتب أخلاقها، وسائر مناسباتها إلى ما يدرك ذلك من أنعم النظر وأدام الفكر فيه من إثبات التوحيد ومعرفة كنه عظمة الخالق وسعة حكمته وجليل قدرته ولطيف صنعه^(١) هنا البحث من أجل مقاصد شرعية لتحديد أوائل الشهور التي ترتبط بها عبادات شهر رمضان وأشهر الحج، ولتحديد مواقيت الصلاة. ثم لمعرفة عظمة الخالق وسعة حكمته وجليل قدرته.

ولم يكتف علماء الإسلام بالاشتغال بعلم الفلك وإنما نقدوا النظريات التي توصل إليها علم الإغريق^(٢)

وكان البحث الفلكية التي قام بها المسلمون تعود بالفائدة العلمية عليهم إذ كان لابد لل المسلمين خاصة بعد الفتوحات أن يحددوا اتجاههم عبر الصحراء، ووسط أمواج البحار، وحينما راحوا يمخرن غُباب البحار والمحيطات وي gioبون الشواطئ كان لابد لهم كي يحددوا موقع سفنهم من معارف عميقة وأدوات لقياس كالاسطرلاب الذي طوروه وعدلوه فاستطاعوا به قياس ارتفاع الشمس والقمر وبعض النجوم وسائر الكواكب وكذا الأمر فيما يخص البوصلة التي اخترعوها ونقلوها إلى الصينيين فيما بعد. أما التوجه إلى "مكة" للصلوة أياً كان المكان الذي يقيم فيه الإنسان فيقتضي علماً دقيقاً للتوجه في "الحيز المكاني"، وأما وجوب توقيت دقيق للصلوات الخمس اليومية فيتطلب معرفة موقع الشمس ساعة شروقها وغروبها وهذا ما يلزم كذلك لمعرفة توقيت الصيام والإفطار في رمضان وتحديد يوم العيد انطلاقاً من موقع القمر، وقد بلغت الدقة في البحث الفلكية التي قام بها المسلمين الغاية. فقد قام الفلكي الأمير "أولنغ بيك" حفيد تيمور لنك "بقياس السنة الشمسية وحسابها بخطأ (١٤) ثانية فقط بالقياس إلى حساباتنا الحالية^(٣)

(١) الزيج الصابئ للباتاني ص ٦ نقلأً عن النهضة الأوربية ص ١٠٤

(٢) انظر ثناوج متعددة لنقد العلماء المسلمين. نظريات الإغريق. في كتاب النهضة الأوربية دراسة تقديرية ص

١١٤-١١٠

(٣) ما يعد به الإسلام ص ١٢٨ / ١٢٩ روجيه جارودي

٢- الرياضيات

كان لل-Muslimين السبق في البحث في الرياضيات خاصة علم الجبر الذي اخترعه الخوارزمي لحل مسائل الميراث المتضمنة في علم الفرائض. وكان للعرب الفضل في وصول الأرقام العربية إلى أوروبا وكان الصفر الذي عرفه المسلمين عن طريق الهند إحداث ثورة في الرياضيات. يذكر "روجيه جارودي" أن وصول ما يسمى بالأرقام "العربية في الغرب وبالأرقام الهندية عند العرب إلى أوروبا عن طريق "الخوارزمي" ويتضمن كتاب "سيدهانت" الهندي الذي قدم إلى الخليفة المأمون والذي أحدث ثورة في الرياضيات في طريقة الترميم العشري تقوم على تسعه أرقام مضافاً إليها الصفر تسمح بالتعبير عن أي عدد من الأعداد. ثم إن "الخوارزمي" هو الذي لخص هذه الطريقة ووضع أساسها لتنقل بعد ذلك إلى أوروبا من جامعة قرطبة على يد طالب راهب يدعى "جريرت" الذي أصبح فيما بعد البابا "سلفستر الثاني" هذه الطريقة أحدثت انقلاباً في الرياضيات وقد انتقلت إلى أوروبا كذلك بطريق صقلية. كتب العالم "بوناش" المولود في "بيزا" عام (١١٨٠ م) يقول "إن الأرقام الهندية التسعه (٠ - ١ - ٢ - ٣ - ٤ - ٥ - ٦ - ٧ - ٨ - ٩) مضافاً إليها علامة الصفر (٠) يمكن أن تشكل منها ونكتب ما شئنا من أعداد" ويلاحظ أن الصفر المرموز إليه بحلقة فارغة (٥) يعني عند الهند يعني العدم أو الفراغ وقد ترجمه العرب بمعناه الدقيق الأمين فسموه (الصفر) الذي يعني الخلو أو الفراغ في العربية^(١)

يقول "دارير" : " ومن عادة العرب أن يراقبوا ويتحنوا وقد أحبوا الهندسة والعلوم الرياضية وما تجدر الإشارة إليه أنهم لم يستندوا فيما كتبوه في الميكانيكيات والسائلات والبصريات على مجرد النظر بل اعتمدوا على المراقبة والامتحان بما كان لديهم من آلات^(٢) ونستطيع أن نقول إن الذين اخترعوا بالأمس في ظل الإسلام لديهم القدرة على أن يتفوقوا مرة أخرى في كنف هذا الدين إذا هم استمسكوا به، واستحضروا روح تعاليمه.

(١) انظر ما يعد به الإسلام ص ١٢٥ روجيه جارودي - وانظر ص ١٢٦ / ١٢٧

(٢) الإسلام والحضارة العربية ج ٢ ص ١٢٨ محمد كرد على لجنة التأليف والترجمة القاهرة سنة (١٩٦٨ م)

٢- العلوم الطبية

الطب من العلوم التي يحتاج إليها الإنسان في معيشته وهي تعنى في أبسط معاناتها معالجة المرضى والمتآلين، والمصابين، ومن هنا كانت مهنة الطب مهنة إنسانية بالدرجة الأولى^(١) وقد نشط بعض المسلمين للبحث في العلوم الطبية، ومارسة علاج المرضى بدقة متناهية، وهذا يدل على أن المسلمين الأوائل لم يقفوا مكتوفين الأيدي مكبلين العقول تجاه بعض العلوم التي تُعد جديدة عليهم. فقد انطلقاوا يستفيدون من غيرهم من الأمم وما هي إلا فترة وجيزة حتى استوعبوا ما حولهم. ثم انطلقاوا يبحثون وينجرون ويعالجون وأمكن أن يضيفوا جديداً في الطب والعلاج، وإن ما استحدثه العرب من علاجات مختلفة للأمراض، وما استخدموه من أدوات جراحية وما كشفوا عنه من أسباب الأمراض ليدلنا دلالة واضحة على عمق وأصالة الطب في الدولة الإسلامية، وقد نشأت مدارس للطب في العالم الإسلامي كان فيها التدريس على منهجين. منهج نظري في المدارس الطبية، ومنهج عملي للتدریب والتمرين يجتمع فيه الطلاب حول رئيس الأطباء فيرون كيف يفحص المرضى، وما يصف لهم من العلاج. وإذا اجتاز الطلاب مدة الدراسة تقدموا للإمتحان ثم أقسموا اليمين "عهد أبقراط" ونالوا الشهادة ثم إذا هم بدأوا ممارسة التطبيب كانوا دائمًا تحت رقابة الدولة^(٢)

وقد نبغ كثير من الأطباء في الدولة الإسلامية منهم على سبيل المثال:

١- أبو بكر محمد بن زكريا الرازى. الذى يعد من أعظم الأطباء المسلمين وقد ترجمت أكثر كتب الرازى إلى اللغة اللاتينية، وطبعت عدة مرات في البندقية سنة ١٥٠٨م، وفي باريس ١٥٢٨، وأعيد طبع كتابه الجدرى، والخطبة سنة ١٧٤٥م، وظل مرجعًا في جامعة "لوفان" حتى القرن السابع عشر الميلادى وتذكر المستشرقة الألمانية "زيغردهونكه" قبل ستمائة عام كان لكلية الطب بباريس أصغر مكتبة في العالم لا تحتوى إلا على مؤلف واحد. هو كتاب الحاوى في الطب "للرازى" وكان هذا الأثر العلمي الضخم يضم كل المعرف الطبية منذ أيام الإغريق حتى عام ١٩٢٥م وظل المرجع الأساسي في أوروبا لمدة تزيد على الأربع مائة عام بعد ذلك التاريخ دون أن يزاحمه مزاحم أو تؤثر فيه أو في مكانته مخطوطات البزيلة التي

(١) انظر في تاريخ الطب في الدولة الإسلامية ص ٧ د / عامر النجار - الناشر دار المعرف

(٢) انظر تاريخ العلوم عند العرب د / عمر فروخ ص ٢٧٦

دأب على صياغتها كهنة الأديرة قاطبة وهو العمل الجبار الذي خطته يد عربى قديم . ولقد اعترف اليونان بقيمة هذا الكنز العظيم وبفضل صاحبه عليهم وعلى الطب إجمالاً فأقاموا له نصباً في وسط القاعة الكبيرة في مدرسة الطب لديهم ، وعلقوا صورته ، وصورة عربى آخر هو " ابن سينا " في قاعة أخرى كبيرة في شارع سان جيرمان " حتى إذا ما تجمع فيه طلاب الطب وقعت أبصارهم عليه ورجعوا بذاكرتهم للوراء يسترجعون تاريخها " ^(١) وهذا من باب وشهد شاهد من أهلها .

٢. ابن النفيس ولد سنة ٦٠٧ هـ وتوفى ٦٨٧ هـ وكان لهذا العالم في الطب اكتشافات انتفع بها أوروبا - في مدارسها . فهو الذي اكتشف الدورة الدموية الصغرى قبل أن يعرفها الأوروبيون بثلاث مائة سنة ^(٢) ويُعد ابن النفيس أول عربى عرف وظائف الرئتين والأوعية الدموية وهو الذي مهد الطريق للطبيب الإنجليزى " هارفى " كى يكتشف الدورة الدموية الكبرى ، وهو أول من صحق الأخطاء الشائعة في حركة الدم وكتب أول وصف صحيح لحركة الدم في الجسم ، وهو من أبرز من عرّفوا علم وظائف الأعضاء وصحّح بعض آراء " جالينوس " و" ابن سينا " في حركة الدم ^(٣) وهو حين يكتب يبدأ باسم الله وحده والثناء عليه ويسأل الله التيسير بينما نجد " دارون " يكتب في موضوع من طبيعته أن يثير الوجدان البشري ويبعث القلب خاشعاً وهو علم الحياة ، وخروج الحى من الميت ، وخروج الميت من الحى . فلا يذكر اسم الله مرة واحدة بل يقول إن الطبيعة تخلق كل شيء ولا حد لقدرتها على الخلق " إنه الفارق بين الهدى والضلال وهذا هو الفارق بين العلوم حين يشتغل بها المؤمنون . والعلوم حين يشتغل بها الماديون .

ونسجل أنه كلما تقدم علماء الإسلام في الطب أو الفلك أو الجبر أو الهندسة كلما ازدادوا قرباً من الله . على عكس أرباب الحضارة الأوروبية . كلما تقدموا في العلم التجربى إذا بهم يُعرضون عن الله . ويصل بهم الأمر أن يتحدون الخالق سبحانه في أسماء مخترعاتهم مثل تسمية بعض المخترعات بالتحدي . أو الذي يستغنى بنفسه عن غيره .

(١) انظر شمس العرب تطع على الغرب ص ٢٤٣ ، ٢٤٦

(٢) نفسه ص ٢٦٦ / ٢٦٨

(٣) انظر للأهمية كتاب في تاريخ الطب في الدولة الإسلامية ص ١٥٨ والكتاب حافل بما يعتز المسلم في تقدم المسلمين في علوم الطب . جزى الله مؤلفه الدكتور عامر النجار خير الجزاء على جهوده المتميزة في هذا الشأن

إننا حين نذكر هذه النماذج نؤكد أن الإسلام هو الذي دفع هذه العقول للانطلاق للبحث والتجربة. وأنه كما يأمر أتباعه بالصلوة والزكاة وسائر فروض الإسلام يأمرهم بالبحث والنظر والتفكير والتدبر، وهذه الأمور كلها يعدها الإسلام عبادة يتقرب بها المسلم إلى الله إذا أخلص عمله لله. وقصد بذلك الأعمال تحقيق الخلافة عن الله غنى الأرض. واكتشاف سنته في كونه

لأن العلوم الدينية والعلوم التجريبية ليستا متعارضتين حيث يعتقد البعض أن الأولى خاصة بالنواحي الروحية وبالآخرة، والثانية خاصة بالنواحي المادية وبالدنيا، وهذا وإن كان صحيحاً إلى حد ما إلا أن المعرفة أو العلوم الدينية تتصل على شئون الحياة في الإسلام بنفس القدر الذي تنصب به على شأن الآخرة كما أن العلوم التجريبية في الإسلام عون للإنسان المسلم على عبادة ربه وابتغاء الدار الآخرة بما يحصله منها من نتائج فليس ثمة علوم دينية ، وعلوم دنيوية ^(١) ولكن العلم وطلبه فريضة . ليست واجبة الأداء فحسب . ولكنها في المصطلح الإسلامي عبادة ولتأمل قوله تعالى ﴿ وَأَعْدُوا لَهُم مَا أَسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْعَيْلِ تُرْهِبُونَ بِمِنْ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَأَخْرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمْ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ^(٢)﴾

فهل يستطيع المسلمون الآن تنفيذ هذه الآية بغير علم الرياضيات والفيزياء والكيمياء والميكانيكا وعشرات غيرها من العلوم ^(٣)؟

ونقرأ قوله تعالى ﴿ لَيَقْدِرُ أَرْسَلَنَا رُسُلًا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلَنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُولَمُ الْأَنْاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلَنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْتَفِعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرَسُلُهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ^(٤)﴾

فنون أن الله يطلب من عباده المؤمنين أن يأخذوا بالقوة المتمثلة في الحديد . لنصرة الله ورسله . وهذا ما نتمنى من المسلمين أن يقوموا به.

(١) الإسلام والعلم التجريبي ص ١٠٠ وانظر للضرورة، إحياء علوم الدين للغزالى ج ١ ص ١٦

(٢) سورة الأنفال الآية ٦٠

(٣) واقعنا المعاصر ص ٩٣

(٤) سورة الحديد الآية ٢٥

تعقيب ثان

الدين الحق الذي ينقذ البشرية هو الإسلام

بعد أن استعرضنا ما آلت إليه البشرية بعد سيطرة العلم التجريبي والإحباط الشديد الذي أحاط بالناس من جراء بعدهم عن الدين. والصيحات العالية التي خرجت مدوية من هنا وهناك تعلن عجز العلم عن تفسير كثير من الأمور وتبين الحاجة إلى الدين نتساءل . أى دين . يتحقق للإنسان المعاصر الطمأنينة والتوازن بين النفس والجسم بين الإنسان والكون وبينه وبين بنى جنسه من البشر بل بينه وبين الكائنات من حوله ؟ هل الأديان الكتابية بما آلت إليه من تحريف ، وتعصب مغوف ؟ كلا . لا شيء من هذا كله يصلح لكي يكون الدين الذي يحقق للبشرية أمنها واستقرارها في يومها وغدتها ومستقبلها إن الدين المختار من خالق البشر هو الإسلام الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم . كخاتم الأنبياء والرسل ، وخاتم للرسالات والشرع . وناسخ لها في الوقت ذاته لأنه الدين الذي يحمل في تعاليمه المتمثلة في القرآن الكريم والسنّة الصحيحة ما يصلح الإنسان إلى أن تقوم الساعة ، ولذلك حتماً ستعود البشرية إلى دين محمد صلى الله عليه وسلم سواء بالدخول فيه والإيمان بأركانه أو بأخذ تعاليمه وتطبيقاتها في مجتمعاتهم مصداقاً لقول الله تعالى ﴿ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الَّذِينَ كُلُّمْ وَلَوْكِرَهُ الْمُشْرِكُونَ ﴾^(١)

وليس كلامنا خالياً من الحقائق كلا بل إن الحقائق تؤكدها والحجج تدعمه والبراهين تدلل عليه . ولنا عدة حقائق تقدمها كبرهان ودليل على أن الإسلام الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم هو المنقذ للبشرية مما تردد إليه إن كان فيها من يأخذ بالعلم ويحتمل إلى العقل السليم . إما إذا أعرضوا . فهذا هو الاستكبار وهو الغي والضلال . هذه الحقائق تمثل في بعض آيات القرآن الكريم . يقول الله تعالى ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتُلْ مَا حَرَمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَا تُشْرِكُوا بِي شَيْئاً وَبِالَّذِينَ إِخْسَنَّا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَقٍ نَحْنُ نَزَّقْكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرِبُوا

الْفَوْحَشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَرَ ۚ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ إِلَّا بِالْحَقِّ
ذَلِكُمْ وَصَنْكُمْ يٰۤاَيُّهُمْ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝ وَلَا تَقْرِبُوا مِالَّا يَمِيزُمِ إِلَّا بِالْتِي هُنَّ
حَسِنٌ حَتَّىٰ يَتَلَقَّأَ أَشْدَدُهُ ۚ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا تُكْلِفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا
قُلْتُمْ فَاقْعُدُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ۚ ذَلِكُمْ وَصَنْكُمْ يٰۤاَيُّهُمْ لَعَلَّكُمْ
تَذَكَّرُوْنَ ۝ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۚ وَلَا تَشْتَعِلُوا أَلَّا يَمِيزُمِ فَنَفَرُّوْنَ بِكُمْ
عَنْ سَبِيلِهِ ۚ ذَلِكُمْ وَصَنْكُمْ يٰۤاَيُّهُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝^(١)

إن العالم في أمس الحاجة إلى تصور صحيح للألوهية ولن تجد البشرية هذا التصور إلا في كتاب الإسلام الوحيد الباقي بلا تحريف ولا تبديل القرآن الكريم ، وأيضاً السنة الصحيحة. وقد تضمنت هذه الآية النهي عن الإشراك بالله. وجاءت آيات أخرى لتحدث عن الوحدانية التي يطلبها الإسلام من الخلق جميعاً.
وقد تحدثت هذه الآية الجامحة عن أساس ثلاثة :

الأساس الأول: ما يتعلق بعقيدة الفرد فحرم عليه الشرك بالله وهذا أول أساس يبني عليه صلاح العالم وسعادة البشرية.

الأساس الثاني: ما يتصل بسلوك الأفراد من الناحية الأخلاقية سواء ما يتعلق بذوى قرابته أو المجتمع الذى يعيش فيه.

الأساس الثالث: ما يتصل بالمعاملات بين الأفراد فى الدولة الواحدة أو بين الدول بعضها والبعض الآخر. من ناحية الوفاء بالعهود وأدائها.

سوف نتكلم عن كل أساس من تلك الأسس بكلمة موجزة:-

(١) سورة الأنعام الآية ١٥٣. ١٥١

أولاً: عقيدة التوحيد

في وسط هذا الكم الهائل من التيه والضياع في عالم الأفكار والمعتقدات. يظهر الإسلام كدين متفرد يدعو إلى التوحيد الخالص الذي جاء به الأنبياء قبل محمد صلى الله عليه وسلم ، والذي يقول سبحانه ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِنِ إِلَيْهِ أَنَّهُ إِلَّا إِنَّا فَقَعَدْنَا عَنِ الْأَرْجُونِ ﴾^(١)

ويقول عز وجل ﴿ وَسَأَلَنَّ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الْرَّحْمَنِ إِلَهًا يُعَبَّدُونَ ﴾^(٢)

ويقول سبحانه ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ أَعْبُدُوا أَللَّهَ وَآجْتَبُوا الْطَّغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الْأَضْلَالُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَآنَظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَنْقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾^(٣)

هذه بعض الآيات التي يقرر فيها رب العالمين أن التوحيد هو دعوة الأنبياء قبل محمد صلى الله عليه وسلم.

أما صاحب الدين الخاتم فإن دعوته من بدايتها إلى نهايتها كانت من أجل التوحيد.

يقول تعالى ﴿ يَأَيُّهَا النَّاسُ أَعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَكَبَّرُونَ ﴾^(٤)

ويقول تعالى ﴿ وَإِنَّهُمْ كُلُّهُمْ إِلَهٌ إِلَّا إِلَهٌ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾^(٥) إنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَآخْتِلَافِ الْأَيَلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا يَدْرِي لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾^(٦)

(١) سورة الأنبياء الآية ٢٥

(٢) سورة الرخرف الآية ٤٥

(٣) سورة النحل الآية ٣٦

(٤) سورة البقرة الآية ٢١

(٥) سورة البقرة الآية ١٦٣ - ١٦٤

وهذه الآية تمثل مع غيرها من الآيات مثل قوله تعالى ﴿إِلَهٌ لَا إِلَهٌ إِلَّا هُوَ الْحَقُّ الْقَيُّومُ﴾^(١)

وقوله تعالى ﴿لَا إِلَهٌ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقَسْطِ لَا إِلَهٌ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾^(٢)

وقوله تعالى ﴿وَمَا مِنْ إِنْسَانٍ إِلَّا هُوَ﴾^(٣)

أقول تمثل أسلوب الاستثناء التام المنفي وهذه الصيغة ترد كثيراً فيما يقرب من تسعة وخمسين موضعًا تتحدث عن نفي كل ألوهية لغيره وتثبت الألوهية له وحده سبحانه وتعالى^(٤)

أما السورة الفذة الفريدة التي تثبت لله الوحدانية وتتفى عنه الشريك وتتزهه عن الصاحبة والولد. فهي سورة الإخلاص يقول سبحانه وتعالى ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُوْلَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ﴾^(٥)

فقد نفت هذه السورة على قلة ألفاظها الكثرة والعدد، والقلة والنقص والعلة والمعلولة، والشبيه والنظير^(٦)

وسورة الإخلاص لم يصح عن النبي صلى الله عليه وسلم في فضل سورة من القرآن مثلما صح في فضلها وعليها اعتماد الأئمة في التوحيد^(٧) إن عقيدة التوحيد التي جاء بها محمد صلى الله عليه وسلم تحرر الإنسان من أن يكون عبداً لآلهة هو الذي صنعوا، وترتفع به من أن يكون عبداً لإنسان مثله. يخلل له أو يحرم عليه. وتنأى به عن أن يكون عبداً لحيوان أو جماد لا ينفع ولا يضر. وهي في الوقت ذاته

(١) سورة البقرة الآية ٢٥٥

(٢) سورة آل عمران الآية ٦٢

(٣) انظر ما يذهب به الإسلام ص ١٢٥ روجيه جارودي. وانظر ص ١٢٦ / ١٢٧

(٤) انظر الألوهية في الفكر الإسلامي ص ١٢٦

(٥) سورة الإخلاص الآية ١

(٦) انظر شرح البيجورى على الجوهرة ص ٦٩

(٧) توحيد الألوهية من مجموع الفتاوى ج ٢ ص ٤٣٨ - ٤٣٩

(أى عقيدة التوحيد) ترد الأمر كله لله فالكون بما فيه ومن فيه ملك لله خالقه. فلا يُطلب الرزق إلا منه ولا الاستعانة إلا به ولا التوكل إلا عليه.

إن التوحيد هو الحرية في أسمى معانها. لأنه ينشئ في القلب والعقل والضمير حالة من الانضباط والإلتزام. لا تتأرجح معها العقيدة، ولا تهتز معها القيم ولا يتسم فيها التصور والسلوك. ندرك هذا حين نوازن بين المسلم الذي يتعامل مع ربه الواحد الخالق الرازق القادر القاهر المدير المتصرف وبين غيره من أرباب الديانات الوضعية^(١) وأتباع المذاهب الفكرية. بل وأرباب الديانات الكتابية حيث أصبحت هذه الديانات لا تلبى حاجات البشرية ويكفى القارئ أن يستعرض بعض أفكار الديانات الوضعية المعاصرة مثل الهندوسية أو البوذية ليرى كيف تختزل هذه الديانات كرامة الإنسان وتجعله يقدس البقرة ويحرم ذبحها، ويقدس الثعابين والتماسikh وغيرها ويعتبرون بعض الأنهار عندهم مقدساً وأن الانفemas فيها يطهر الذنوب^(٢) كما هو مقرر عند الهندوس أما البوذية فإنها يطلق عليها ديانة مجازاً لأنها تخلو من فكرة الألوهية أصلاً، وإن كان أتباع بوذا قد قدسوه فيما بعد فقد خلوا التماشيل إعجاباً به، وتقديساً له. ثم دعاهم هذا الإعجاب له لمنحه صفات الألوهية واتخاده إليها متجسداً^(٣) أما الأديان الكتابية مثل اليهودية فإن تصورهم للألوهية تصور مشوش بعد التحريف والتبديل الذي أدخله الأحبار على تعاليم موسى عليه السلام. ويتلئ العهد القديم الذي بأيدي اليهود بأوصاف لا تليق بذات الله فهو يأكل ويشرب^(٤) ويعمل ويتعب ويستريح^(٥)، وينسى ويندم ويتردد وينظر على الحيل^(٦) وأنه متعدد^(٧) فهل من العقل والمنطق أن يتبع الإنسان لإله هذه صفاته؟ هذا فضلاً عن التعصب اليهودي للجنس الإسرائيلي والنظرة باحتقار وتعالي لكل ما عداه.

(١) انظر خصائص التصور الإسلامي ومقوماته ص ٢٢٧ / ٢٢٨

(٢) دائرة معارف القرن العشرين ج ٢ ص ١٦٣

(٣) انظر الهند القديمة ص ١٥٢ وأديان الهند الكبرى ص ١٧٦ - ١٨٠

(٤) سفر التكوير ١٧ / ١٢، ٣٠، ٨١ / ٢٠

(٥) سفر الخروج ٢٠ / ٨، ١١ وسفر التثنية ١٢ / ٥، ١٥ / ٢ والتكوير ٢ / ١

(٦) سفر التكوير الإصلاح ٢٧

(٧) انظر سفر التكوير الإصلاح ٨

أما النصرانية فإن التثليث من العقائد الأساسية عندهم ويستدلون عليه بنصوص من الأنجليل^(١) وأعمال الرسل وقد حاول النصارى البرهنة عليه بأدلة عقلية لا مجال لعرضها^(٢)

وقد رفض كثير من علماء الغرب ما آلت إليه النصرانية من تحرير وتبديل خاصة في مجال التثليث والصلب والقداء^(٣)

لكل هذه الأمور وغيرها نستطيع أن نقول بدون تجاوز للحقيقة والواقع أن التوحيد هو الخاصية البارزة في الدين الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم بحيث أنه لم يبق في الأرض كلها تصور ديني صحيح إلا التصور الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم. حيث حفظ الله أصوله فلم تتمد إليه يد التحرير ومن ثم أصبح التوحيد خاصية من خصائص هذا الدين^(٤)

ولا يقول أحداً إذا كانت عقيدة التوحيد الخالص هي الباقي في الدين الإسلامي الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم دون غيره من الأديان الموجدة الآن: فما شأن الذين ينتسبون إلى الإسلام اليوم في ذيل الأمم؟ ونبادر فنقول فرق بين المبدأ والتطبيق للمبدأ. فالمبدأ حق في ذاته يؤتى ثماره لمن يأخذ به ويعمل بتوجيهاته، ولأن سنت الله لا تhabi أحداً. فحين اخترف المسلمون عن العقيدة الصافية واتبعوا سنن من قبلهم نزع الله منهم القيادة والريادة. ومن ثم فإن الوضع الذي يعيشه المسلمون الآن دليل على أن الإسلام هو الحق وأن التمسك به هو طوق النجاة والسعادة في الدنيا والآخرة. أما حين تخلى المسلمون عن عقيدتهم وشرعيتهم فإن الهوان وتكالب الأمم عليهم هو النتيجة الحتمية واللازمة لسلوكهم. وصدق الله العظيم إذ يقول **﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾**

(١) انظر إنجليل متى ٢٨ / ١٩ ويوحنا ١/١

(٢) انظر التثليث والتوحيد للأبنا غريغوريوس وانظر الدر الشميم في إيضاح الدين ص ١٠/١١

(٣) انظر على سبيل المثال المسيحية نشأتها وتطورها فالكتاب من بدايته إلى نهايته تصویر دقيق لدخول الوثنية إلى النصرانية وسيطرتها فيما بعد بدلاً من تعاليم المسيح عليه السلام والخواريون انظر بختنا. نقض دعوى عالمية النصرانية. المبحث الخاص بدخول الوثنية إلى النصرانية

(٤) خصائص التصور الإسلامي ومقوماته ص ٢١٢ / ٢١٣

ولذلك نقرر أن أصحاب عقيدة التوحيد حين يفicianون إلى منهج الله الذي منَّ به عليهم، وينادون به يملكون أن يقدموا للبشرية الشئ الكبير. الذي تفتقده جميع المناهج والأنظمة والأوضاع في الأرض كلها بلا استثناء ومن ثمَّ يكون لهم اليوم وغداً دور جديد في عالم اليوم يتمثل في القيادة الراسخة للتغيرات العالمية الإنسانية وينحthem سبياً وجيهأً للوجود العالمي الإنساني كالدور الذي منح للعرب الأميين في الجزيرة العربية يوم أن تمسكوا بالإسلام.

إن أصحاب عقيدة التوحيد لا يملكون أن يقدموا للبشرية أمجاداً علمية ولا فتوحات حضارية تبلغ من ضخامتها أن تتفوق تفوقاً ساحقاً على كل ما لدى البشرية منها، ولكنهم يملكون أن يقدموا للبشرية شيئاً آخر أعظم من كل الأمجاد العلمية، والفتحات الحضارية إنهم يقدمون تحرير الإنسان منهج يقوم على تكريم الإنسان وعلى إطلاق يده وعقله وضميره وروحه من كل عبودية لما سوى الله ويوم أن يفعل ذلك أصحاب عقيدة التوحيد سوف تنطلق كل الطاقات لتحقيق الخلافة عن الله في أرضه بعزة وكرامة كما أراد الخالق للإنسان أن يكون. وحين يتم ذلك من الممكن حينئذ أن يقدم الإنسان المحرر من العبودية لغير الله. الأمجاد العلمية، والفتحات الحضارية. ليستخدماها في طاعة الله ويسخرها في عبادته. فلا يكون عبداً للآلة ولا عبداً للبشر على السواء^(١) إن على البشرية اليوم كما تجد للحصول على الطعام والشراب وضرورات الحياة وكمالياتها. أن تجد للبحث عن الدين الحق الذي يقدم التصور الصحيح عن الله ورسله وعالم الغيب كلها. الدين الذي يقدم المنهج الصالح للحياة بحيث تتواءن متطلبات الروح مع ضرورات الجسد الدين الوسط الذي لا يهمل جانباً على حساب جانب آخر بل الكل يأخذ حقه بحساب دقيق وميزان عادل. ولن تجد البشرية ذلك إلا في الإسلام الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم.

(١) خصائص التصور الإسلامي ومقوماته ص ٢٣٤

ثانياً: الجانب الأخلاقي:

هذا الجانب يأتي بعد التوحيد مباشرة وهو منبثق؛ عنه لأن الذي يوحد الله ويعرفه حق المعرفة تظهر آثار الوحدانية على سلوكه مع ذوى قرابته وبين سائر أفراد المجتمع الذى يعيش فيه .

لقد أوصى الله الإنسان بالإحسان إلى الوالدين. والناظر فيما وصل إليه حال المجتمع المعاصر. من ناحية الجفاء والعقوق الذى أصبح سمة للإنسان المعاصر . يجد أن الإسلام يأتي ليعيد التوازن إلى البشرية ببرده إلى الإحسان لمن كان سبباً فى وجوده. إن الذى يشاهد الآباء والأمهات الذين يعيشون بلا عائل ولا موئل مما يثير الأسى. يدرك نداء القرآن **«وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا»** كتعليم أخلاقي رفيع فى وسط هذا الكم الهائل من الماديات . إنه يقول للإنسان إن عليك واجبات وتكاليف تجاه الوالدين . وكلمة الإحسان كلمة ندية رطبة تبدد جفاء الحضارة المعاصرة . وهى تعنى إعطاء أكثر فى مقابل أقل. أو فى غير مقابل أصلاً ، وهو تعبير عن إنسانية الإنسان ^(١) كما ينبغي أن يكون الإنسان .

وتضمنت آية سورة الأنعام النهى عن قتل الأولاد. أياً كان السبب أما التعليل بخشية الفقر فقد صرخ به القرآن لأنه كان العلة الشائعة لدى العرب وقت مجئ الإسلام وليس لأن النهى مرتبط به وحده وإنما فتجنب قتل الأولاد مطلوب على الإطلاق بعموم قوله تعالى **«وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَلَّا يَرْجِمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِيقِ»** ^(٢)

وهذه الآيات كما خاطبت القدامى تناطح المعاصرين الآن . الذين يعملون على إبادة الجنس البشري بتحديد النسل خشية الفقر أو حرضاً على عدم تحمل المسئولية تجاه الأسرة . وحاجتهم الاستمتاع بالحياة وهذا شائع الآن في الغرب . وقد تسررت بعض هذه الأفكار للأسف الشديد إلى المجتمع الإسلامي .

(١) الفكر الإسلامي في المجتمع المعاصر ص ٤١٦

(٢) سورة الأنعام الآية ١٥١ وانظر الفكر الإسلامي الحديث ص ٢٥٤ / ٢٥٥

ثم تأتي التوجيهات القرآنية بتجنب اقتراف الفواحش ظاهرها وباطنها خفيها وظاهرها. إن العالم الآن يئن من الفواحش وهي نذير بطش وفتوك عن طريق الأمراض التي تخلفها تلك الفواحش فضلاً عن عقاب الله. وللأسف الشديد تظهر العلل وتنتشر الأمراض وبدلًا من النهي عن اقتراف الفواحش نرى سدنة النظام العالمي الجديد يوصون رعاياهم بأخذ الاحتياطات الالزمة. يأتي نداء القرآن الكريم للبشرية كطوق للنجاة من الفرق المحتم. ولكن هل من مجيب؟ وصدق الله العظيم إذ يقول **﴿وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالْأَنْذِرِ﴾**^(١)

ثم تضييف الآية النهي عن قتل النفس بغير حق. والنهي هنا لا يتناول الأفراد فحسب بل يتناول الدول والمجتمعات. ويأتي التأكيد بعد النهي عن القتل **﴿وَأَلِكْرَزْ وَصَنْكُمْ بِهِ لَعْلَكُمْ تَعْقِلُونَ﴾**^(٢)

من الذي يحقق السلام والأمن للأفراد والمجتمعات سوى الإسلام كلمة الله الأخيرة محمد صلى الله عليه وسلم لدعوة الناس كافة.

ماذا فعل العالم المتحضر الذي تسوده الديانات الكتافية أو الديانات الوضعية مع المجاذر البشرية، ومع التفجيرات النووية ومع التجويع حتى الموت؟ إن عالم اليوم يملأ ما يوازي مليون قنبلة من مثل قنبلة هيروشيما (أى ما يعادل خمسة أطنان من التفجيرات التقليدية على رأس كل مواطن. على هذا الكوكب ^(٣) يأتي النداء القرآني **﴿وَلَا تَقْتُلُوا أُولَئِكُمْ مَنْ إِمْلَقَ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِنَّا هُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَرَنَّ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾** ليحدد ذلك الخطير الداهم الذي يهدد البشرية من جانب ثلة لا عقل لها ولا دين ولا قلب. وإن كانت تلك الآلات موجودة في أجسادهم إلا أنهم عطلوها عن العمل من أجل أبجاد زائفة. وهذا شأن الغرب المعاصر - صاحب التكنولوجيا والأقمار الصناعية.

(١) سورة القمر الآية ٣٦

(٢) سورة الأنعام الآية ١٥١

(٣) ما يعد به الإسلام روجيه جارودي ١١٥

ثالثاً: ما يتعلّق بالمعاملات بين الأفراد والأمم.

إن آية سورة الأنعام وغيرها من الآيات تأمر بعدم مساس مال اليتيم وهو ذلك الضعيف في صورة من صور الضعف الإنساني. إنه ذلك اليتيم المنتشر في أرجاء العالم. يتسلّل و تستغلّه عصابات الإجرام و يتّاجر بأعضائه البشرية لصالح الأقوياء. لا أحد يأخذ له شقة سوى الإسلام.

وتأمر الآية أيضاً بالوفاء في الكيل والميزان: أى بتحقيق التعادل في التبادل بين الناس. إنها تبّدّل الظلم والجور والاستغلال الذي يمارس من الدول الغنية المصدرة للدول الفقيرة المستوردة. الذي يفضّي إلى أبشع صور الظلم انتشاراً. حين تسلّب الموارد لصالح مجموعة قليلة من البشر. ضد الغالبية العظمى من العالم^(١)

أما قوله تعالى (إذا قلتم فاعدّلوا) يا لها القرآن من شفاء للناس. إن الآية تأمر بالقضاء بالعدل والتمسّك به مهما كانت عوامل الضغط على الانصراف عنه ولك أيها القارئ أن ترى نموذج الحيف والجور والظلم والعدوان ظاهراً للعيان في أي مشكلة يكون الطرف فيها المسلمون، وما قضية "فلسطين" أو "البوسنة" أو "كسوفاً" أو "كممير" أو الشيشان عنا ببعيد في الكيل بعدة مكاييل في الأمر الواحد. وهذا هي قرارات الأمم المتحدة تطبق على البعض بكل صرامة وتشدد. وتغفل تماماً وكأنها لم تكن عند البعض الآخر.

والمثال على ذلك إسرائيل وغيرها من دول العالم الإسلامي.

يأتي القرآن للعالم كله أمراً ﴿إِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾^(٢) أياً كانت القرابة والمصلحة ومهما ترتبّت عليها. أين نجد هذه التعاليم وعند من تطبق؟ إنها لا توجد إلا في الإسلام ولا تطبق إلا عند التمسكين به.

ثم يأتي الأمر بالوفاء بالعهد والالتزام به. بشرط أن يكون ذلك العهد على الخير وبالمعروف أما إذا كان على الشر أو المنكر. فهو وعد مهدر وعهد باطل.

(١) انظر ما يعد به الإسلام ص ١١٣ / ١١٤

(٢) سورة الأنعام الآية ١٥٢

يقول أستاذنا الدكتور البهى فى تعليقه على آية سورة الأنعام : فهذه الآية وحدها لم تقف بالإسلام عند حد الدين كما يراه الغربيون وهو الذى يعنى العقيدة فى الإله . ولم تقف عند حد الوصايا الأخلاقية الفردية فقط بل تجاوزت هذين الجانحين إلى جانب التعامل فى دائرة الأموال . والتبادل التجارى ، وفي دائرة القضاء ، وفي دائرة الوفاء بالعهد والالتزام به . والآية فوق أنها تحدد العقيدة والوصايا الأخلاقية الفردية تقرر مبدأ التعامل ومبدأ القضاء ، ومبدأ الدولة نفسها وصلتها بالأفراد .^(١)

وماذا يحتاج العالم الآن أكثر من هذا؟ إن البشرية لا مناص سوف تعود إلى الدين الذى يحقق السعادة والطمأنينة لها ليس فى الدنيا فقط وإنما يحقق الأهم وهو الأمن فى الحياة الآتية .

إنه وكما يقول الدكتور "رشدى فكار" إن الإسلام لن يقول لأبناء القرن الحادى والعشرين سأعطيكم طائرة أسرع أو سيارة أفضل أو قطاراً أكثر راحة ورفاهية أو ثلاثة أجمل وأكبر أو طرقاً أنعم وأنظف لا ولكن سيقول لهم : سأعطيكم إنساناً أكثر توازناً واعتدالاً أكثر براً وإحساناً وعدالة لآخرين إنساناً يرتبط بمبادئه ويهاب ويخشى خالقه . الإنسان الذى يخدم الإنسان ويعمل لإسعاده لا لارتفاع ناطحات السحاب ورصف الشوارع ، واستنزاف كل الخيرات فى إطار التحايل والمكر والدهاء والكيد ويعنى آخر صياغة وبيناء الإنسان ليبني كل ما دمر^(٢) "نعم إن هذا أعظم ما يقدمه الإسلام للبشرية بعد أن وصلت إلى ما وصلت إليه الحضارة المادية المعاصرة ، وفضلاً عن ذلك كله يقدم الإسلام الحضارة فى ثوب جديد يخترع فيه الإنسان ويبيتكر ويستخرج الخيرات . وهو مع ذلك عبد لله لا يتعالى ولا يغتر وهذا فرق كبير ويون شاسع بين الحضارة حين يملكونها غير المؤمن والحضارة حين يملكونها المؤمن .

إن البشرية فى أمس الحاجة إلى الإسلام فى هذه الفترة الحرجة من تاريخ الإنسان . الضمير فى حاجة إلى الاسترواح والثقة والاطمئنان ، والعقل الإنساني يحتاج إلى الانطلاق والنشاط للنفع لا للضرر للإصلاح لا للإفساد .

(١) انظر الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي ص ٢٥٥ / ٢٥٦

(٢) حوار متواصل ص ٥٤ د / رشدى فكار نقاًلا عن الصحوة الإسلامية فى عيون مختلفة ص ٨٩ / ٩٠ د / نعمان السامرائي الناشر دار المنارة .

والأسرة في حاجة إلى الحماية والرعاية ولم الشمل والتكافل.
والبشرية بأسرها في حاجة إلى التعاون لا التفرق والتعارف لا التشاجر، والسلام
لا الحرب.

إن شجرة الحضارة البشرية تهتز وتترنح اليوم كما كانت تهتز وتترنح قبيل مولد
محمد صلى الله عليه وسلم. الرسول الذي وحد العالم جميعه فما أشد حاجة البشرية
إلى رسالة هذا الرجل لتقدّها مرة أخرى^(١) إن ذلك واقع لا محالة وآت لا ريب فيه
ويومها يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم.

أهم المصادر والمراجع

- ١- القرآن الكريم
البيجورى
إبراهيم البيجورى
- ٢- "تحفة المريد شرح جوهرة التوحيد" الإدارية العامة للمعاهد الأزهرية.
أحمد أمين.
- ٣- "فجر الإسلام". مكتبة النهضة. الطبعة الحادية عشرة.
أرنولد، السير توماس.
- ٤- "تاريخ الدعوة إلى الإسلام" مكتبة النهضة المصرية.
الأشقر،
د / عمر سليمان الأشقر.
- ٥- "العقيدة في الله". دار النفائس.
الألوسي،
محمد شكري الألوسي.
- ٦- "روح المعانى". دار الطباعة الميرية.
بدوى،
د / عبد الرحمن بدوى.
- ٧- "موسوعة الفلسفة". المؤسسة العربية للطباعة والنشر.
د / بركات دويدار.
- ٨- "الوحدةانية". مكتبة النهضة المصرية.
البستانى،
المعلم بطرس البستانى.

- ٩- "محيط المحيط". مكتبة لبنان ١٩٧٣ م.
- ١٠- "مختصر تفسير البغوى" للدكتور عبد الله الزيد. مكتبة المعارف للنشر.
أبو البقاء،
أبيوب بن موسى والكتفوى.
- ١١- "الكليات" نشر وزارة الثقافة. دمشق ١٩٧٥ م.
- البهى،
د/ محمد البهى.
- ١٢- الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى". مكتبة وهبة.
- ١٣- الفكر الإسلامى والمجتمع المعاصر".
البيرونى.
- ١٤- "تحقيق ما للهند من مقوله". عالم الكتب ١٩٨٣ م.
- بيصار،
الدكتور محمد بيصار.
- ١٥- "العقيدة والأخلاق". مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٧٣ م.
- البضاوى.
- ١٦- "تفسير البيضاوى".
التفتازانى،
سعد الدين بن عمر التفتازانى.
- ١٧- "مقاصد الطالبين في علم أصول الدين". دار الطباعة العامرة.
- التهانوى،
محمد على الفاروقى التهانوى.
- ١٨- "كشاف اصطلاحات الفنون" تحقيق الدكتور لطفى عبد البديع.
ابن تيمية.
- ١٩- "الإيمان ضمن مجموع الفتاوى". الناشر دار الفكر
جارودى،
روجيه جارودى.
- ٢٠- "ما يبعد به الإسلام" ترجمة قصى أتاسى. مراجعة محمد البجاوى.
<http://kotob.has.it>

محمد كمال جعفر.

٢١. "في الدين المقارن". دار الكتب الجامعية.

د/ جواد على

٢٢. المفصل في تاريخ العرب". دار العلم للملائين.

جورج هدلی.

٢٣. "الدين .. مادة ورمزاً". ضمن آفاق المعرفة. ترجمة فؤاد جميل.
مؤسسة فرانكلين للطباعة.

ابن حزم.

٢٤. "الفصل في الملل والأهواء والتحل". مكتبة السلام العالمية. القاهرة
خان،

وحيد الدين خان.

٢٥. "الإسلام يتحدى". دار المختار الإسلامي.
الخطيب،

الأستاذ / عبد الكريم الخطيب.

٢٦. "الله . ذاتاً وموضوعاً". دار الفكر العربي.

٢٧. دائرة المعارف الإسلامية لمجموعة من المستشرقين. ترجمة أحمد الشناوى
وآخرون. الناشر دار الفكر العربي.
أبو داود.

٢٨. "سنن أبي داود" شرح الحافظ بن قيم الجوزية. الناشر المكتبة السلفية.
دراز،

الدكتور / محمد عبد الله دراز

٢٩. "الدين" دار القلم. الكويت.
الرازي،

الإمام فخر الدين محمد بن عمر الرازي
٣٠. التفسير الكبير".

- رشيد رضا.
٣١. "تفسير المنار". دار المعرفة للطباعة و النشر.
الزمخشري،
أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري.
٣٢. "الكافش عن حقائق التنزيل وعيون التأويل". طبعة الحلبي ١٩٧١ م.
الزنداei،
الشيخ / عبد المجيد الزنداei.
٣٣. "توحيد الخالق".
السامرائي،
د/ نعمان السامرائي.
٣٤. "الصحوة الإسلامية في عيون مختلفة". الناشر دار جدة ١٩٩٣ م.
السحبياني،
الشيخ / محمد بن ناصر السحبياني.
٣٥. "منهج الشهرستاني في كتابه الملل والنحل". دار الوطن. الرياض.
أبو السعود
٣٦. "تفسير أبو السعود".
سيد قطب .
٣٧. في ظلال القرآن. دار الشروق.
٣٨. "في النفس والمجتمع" دار الشروق.
٣٩. "خصائص التصور الإسلامي و مقوماته". دار الشروق .
الشاذلي،
الدكتور / عبد الله يوسف الشاذلي.
٤٠. "الحكمة العربية في أصولها الفطرية". الدار القومية.
٤٠. المنهاج القرآني". الدار القومية.
٤١. "الألوهية في الفكر الإسلامي". الدار القومية

الأستاذ / محمود شاكر.

٤٣. "أباطيل وأسمار" مطبعة المدنى. الطبعة الثانية.

ابن الشريف،

الدكتور / محمود بن الشريف.

٤٤. "الأديان في القرآن" دار المعارف الطبعة الثالثة ١٩٦٣ م.

الشهر ستانى.

"الملل والنحل" دار الفكر . بيروت.

"نهاية الأقدام".

صبحى،

د/ نبيل صبحى.

٤٥. "الحرمان والتخلف في ديار المسلمين". كتاب الأمة ١٤٠٤ هـ

الصناعي.

٤٦. "سبل السلام" نشر جامعة الإمام ١٩٨٤ م.

الطبرى،

أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى.

٤٧. "تفسير الطبرى" تحقيق أحمد و محمود شاكر. دار المعارف.

د/ عامر النجار.

٤٨. "في تاريخ الطب في الدولة الإسلامية". دار المعارف. الطبعة الثالثة ١٩٩٤ م

الإمام الأكبر الدكتور / عبد الحليم محمود.

٤٩. "الإسلام والإيمان". دار الكتب الحديثة.

عبد الرازق،

الإمام الأكبر الشیخ / مصطفی عبد الرازق.

٥٠. "الدين والوحى والإسلام" دار القادرى لبنان.

الدكتور / عوض الله حجازى.

٥١. "مقارنة الأديان بين اليهودية والإسلام". دار الطباعة المحمدية.

- الأستاذ / حمدى عبيد.
- ٥٢- "معجم المصطلحات". ملحق بموسوعة الميسرة للأديان والمذاهب.
نشر الندوة العالمية للشباب الإسلامي. الرياض ١٩٩٨ م
- ابن أبي العز.
- ٥٣- "شرح الطحاوية" تحقيق د/ عبد الله التركى، شعيب الأرناؤوط . مؤسسة
الرسالة.
- العسقلانى،
الإمام الحافظ أحمد بن حجر العسقلانى.
- ٥٤- "فتح البارى شرح صحيح البخارى" دار الريان للتراث.
العسكري،
أبو هلال العسكري.
- ٥٥- "الفرق في اللغة". دار الآفاق. بيروت ١٩٧٣ م
ابن عطية.
- ٥٦- "الحرر الوجيز في تفسير كتاب العزيز" تحقيق أحمد صادق الملاح.
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٩٧٤ م.
- العقد،
الأستاذ / عباس محمود العقاد.
- ٧٥- الله .. كتاب في نشأة العقيدة الدينية " دار العلم للملايين .
د/ علم الدين كمال.
- ٥٨- "تطور الكائنات الحية" مجلة عالم الفكر . المجلد الثالث. العدد الرابع ١٩٧٣ م. الكويت.
عمارة،
الدكتور / محمد عمارة.
- ٥٩- "الإسلام والسياسة" نشر مجمع البحوث الإسلامية.
د/ عمارة نجيب.
- ٦٠- "الإنسان في ظل الأديان". مكتبة المعرف . الرياض.

- الغزالى،
الإمام أبي حامد الغزالى.
٦١. "الاقتصاد فى الاعتقاد". مكتبة الجندي.
- القاسمى،
محمد جمال الدين القاسمى
٦٢. "محاسن التأويل" دار الفكر.
- القرطبي،
الإمام شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد بن بكر فرج الانصارى.
٦٣. "تفسير الجامع لأحكام القرآن".
- قطب،
محمد قطب.
٦٤. "مذاهب فكرية معاصرة". دار الشروق.
٦٥. "معركة التقاليد". دار الشروق.
٦٦. "التطور والثبات". دار الشروق
٦٧. "دراسات فى النفس الإنسانية" دار الشروق.
٦٨. "واقعنا المعاصر". دار الشروق.
- ابن فارس.
٦٩. "معجم مقاييس اللغة" ، تحقيق عبد السلام هارون.
د/ فاروق الدسوقي.
٧٠. "الإسلام والعلم التجربى". المكتب الإسلامي . بيروت.
د/ فرج الله عبد البارى.
٧١. "اليوم الآخر بين اليهودية وال المسيحية والإسلام". دار الوفاء . الطبعة الثانية.
الفیروز أبادی.
٧٢. "القاموس المحيط" المطبعة اليمنية بمصر.
ابن كثير،
الحافظ بن كثير الدمشقى.
٧٣. "تفسير القرآن العظيم" .

- المراغى،
الشيخ مصطفى المراغى.
- ٧٤- "تفسير المراغى". طبعة مصطفى البابى الحلبي ١٩٦٩ م.
- المصرى،
الأستاذ عبد الرؤوف المصرى.
- ٧٥- "معجم القرآن" مطبعة حجازى ١٩٤٨ م.
- د / مصطفى حلمى.
- ٧٦- "الإسلام والأديان". الطبعة الأولى ١٩٩٠ م. دار الدعوة . الأسكندرية .
- مظهر،
سليمان مظهر.
- ٧٧- "قصة الديانات".
- ملص،
محمد بسام الملص.
- ٧٨- "النهضة الأوربية". دراسة نقدية نشر جامعة الإمام ١٩٩٢ م
- ابن منظور،
جمال الدين بن منظور.
- ٧٩- "لسان العرب". دار المعارف.
- المنوفى،
الأستاذ / محمود أبو الفيض المنوفى.
- ٨٠- "الدين والفلسفة والعلم". دار الكتب الحديثة
- النشار،
الدكتور / على سامي النشار.
- ٨٠- "نشأة الدين" دار نشر الثقافة بالإسكندرية ١٩٤٩ م.
- النوى.
- ٨٢- "مسلم بشرح النووي". المطبعة العربية ومكتبتها القاهرة
- د / محمد خليل هراس.
- ٨٣- "دعوة التوحيد". نشر دار الصحابة . طنطا.

ابن هشام ،

أبي محمد عبد الملك بن هشام .

٨٤. "السيرة النبوية" تحقيق الدكتور / محمد فهمي السرجاني . المكتبة التوفيقية .

٨٥. "المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي" .

الدكتور يحيى هاشم حسن فرغل

٨٦. "الإسلام والاتجاهات العلمية" . دار المعرف .

٨٧. "مداخل للعقيدة الإسلامية" . مطبعة التقدم . طنطا ١٩٨٥ م .

٨٨. "في مواجهة الإلحاد المعاصر" . الناشر مجمع البحوث الإسلامية .

الأستاذ / يوسف كرم .

٨٩. "تاريخ الفلسفة الحديثة" . دار المعرف .

هناك بعض المصادر والدوريات اكتفينا بإيرادها في المامش .

تعريف بالمؤلف

أ. د / فرج الله عبد الباري أبو عطا الله.

- ولد في دقادوس - ميت غمر - دقهلية في ١٣/٥/١٩٥٩ م.
- تلقى تعليمه في الأزهر الشريف منذ السنة الأولى الابتدائية حتى حصل على الليسانس في أصول الدين والدعوة الإسلامية عام ١٩٨١ م بمرتبة الشرف.
- عين معيدياً في قسم الماجستير في العقيدة والفلسفة بتقدير ممتاز عام ١٩٨٧ م في موضوع اليوم الآخر بين اليهودية وال المسيحية والإسلام.
- صدر قرار تعينه مدرساً مساعداً في قسم العقيدة والفلسفة عام ١٩٨٧.
- حصل على العالمية الدكتوراه بمرتبة الشرف الأولى عام ١٩٩٠ م في موضوع موقف القرآن الكريم من الفكر المادي.
- صدر قرار تعينه مدرساً بقسم العقيدة والفلسفة في ١٠/٣/١٩٩٠ م،
- رُقى إلى درجة استاذ مساعد في قسم العقيدة والفلسفة في ٤/١/١٩٩٥ م.
- أُعير إلى جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بكلية أصول الدين بالرياض قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة اعتباراً من ٢٦/١٠/١٩٩٣ م إلى ٢١/٨/١٩٩٩ م.
- اختير في فترة إعارة ضمن أحد عشرة أساتذة حققوا سبق الإنجاز والجدية في الإرشاد الطلابي والبحث العلمي في كلية أصول الدين بالرياض.
- رُقى إلى رئيس قسم العقيدة والفلسفة في ٤/٢٠٠٢.
- سافر إلى كل من تركيا وسوريا لزيارة دور الكتب فيها وتصوير بعض المخطوطات، وزيارة كلية بمرمرة باسطنبول . وزار المراكز الإسلامية في أوروبا وأمريكا.
- يقوم بخطبة الجمعة في مساجد الأوقاف والجمعيات الأهلية منذ سنة ١٩٧٩ م.

المؤلفات العلمية:

- ١- اليوم الآخر بين اليهودية وال المسيحية والإسلام طبعة ثانية دار الوفاء.
- ٢- موقف القرآن الكريم من الفكر المادى - رسالة دكتوراه (مخطوطه).
- ٣- النزعة الإلحادية في النظريات العلمية - بحث نُشر في حلية أصول الدين عام ١٩٩١ م.
- ٤- الاختراق اليهودي للمجمعات الإسلامية نشأته وتطوره طبعة ثانية عام ٢٠٠٠ م.
- ٥- التصور اليهودي لل المسيح وعلاقته بالتقارب المسيحي اليهودي المعاصر طبعة ثانية عام ٢٠٠١ م.
- ٦- نقض دعوى عالمية النصرانية مترجم الى الإنجليزية عام ٢٠٠١ م.
- ٧- عالم الملائكة - دراسة عقدية كتاب. عام ١٩٩٨ م.
- ٨- العلمانية النسبة الدلالة - الدوافع . بحث عام ١٩٩٩ م حولية أصول الدين.
- ٩- العقيدة الدينية ونشأتها بين التوحيد والتطور - كتاب عام ٢٠٠٠ م.
- ١٠- العقائد الدينية عند الأمم الوثنية كتاب - عام ٢٠٠٠ م .
- ١١- الديمقراطية رؤية إسلامية بحث - مقدم إلى الندوة العلمية للشباب الإسلامي في عمان - الأردن عام ١٩٩٨ م .
- ١٢- بحث عن المادية منشور في موسوعة المذاهب المعاصرة دار إشبيلية الرياض عام ١٩٩٧ م.
- ١٣- الاستنساخ - بحث مقدم إلى اللجنة العلمية الدائمة لترقية الأساتذة بجامعة الأزهر عام ٢٠٠٠ م.
- ١٤- اليهودية بين الوحي الإلهي والانحراف البشري دار الآفاق العربية عام ٢٠٠٤ م.
- ١٥- العقيدة الإسلامية في مواجهة التيارات الإلحادية - دار الآفاق العربية عام ٢٠٠٤ م.
- ١٦- مناهج البحث العلمي وأداب الحوار والمناظرة - دار الآفاق العربية عام ٢٠٠٤ م.

فهرست الموضوعات

	المقدمة :
٥	
١٣	الفصل الأول : مصطلحات تتعلق بالاعتقاد
١٥	المبحث الأول : الدين في اللغة والاصطلاح
١٥	المسألة الأولى : الدين ودلالته في اللغة
١٩	المسألة الثانية : وقفة مع بعض المستشرقين حول كلمة الدين وأصولتها في اللغة
٢٢	المسألة الثالثة : الدين في الاصطلاح
٢٤	المبحث الثاني : الدين وإطلاقاته في القرآن والسنة
٢٤	المسألة الأولى : الدين في القرآن الكريم (المعنى العام)
٢٦	الدين بمعنى الإسلام الذي عليه جميع الأنبياء والرسل
٢٩	المسألة الثانية : الدين في القرآن الكريم (المعنى الخاص)
٣٢	المسألة الثالثة : كلمة الدين وإطلاقاتها في السنة النبوية
٣٦	المبحث الثالث : دحض دعوى نجاة غير المسلم بعد ظهور الإسلام وبلغه دعوته
٤٥	المبحث الرابع : الملة في اللغة والإصطلاح
٤٥	الملة في اللغة
٤٥	الملة في الإصطلاح
٤٦	إطلاقات الملة في القرآن الكريم على الدين الحق
٤٨	إطلاقات الملة في القرآن الكريم على الدين الباطل
٤٩	إطلاقات الملة في السنة النبوية
٥٠	المبحث الخامس : النحلة في اللغة والإصطلاح

- ٥٠ النحلة في اللغة
- ٥١ النحلة في الإصطلاح
- ٥٢ المبحث السادس: الدين في إصطلاح الغربيين
- الفصل الثاني:
- ٥٧ مصدر الدين وبراعث الدين عند الغربيين ونقده
- ٥٩ المبحث الأول: دعوى أن الإنسان مصدر الدين
- المبحث الثاني: البراعث على الدين عند القائلين بأن الإنسان مصدر الدين
- ٦٣
- ٦٤ أهم النظريات في تفسير البراعث على الدين
- ٦٤ المسألة الأولى: نظرية المذهب الطبيعي
- ٦٦ المسألة الثانية: المذهب الحيوى
- ٦٨ المسألة الثالثة: مذهب الطوطم
- ٧١ بعض الاتجاهات الثانوية في البراعث على الدين
- ٧٣ تأثر بعض المفكرين في العالم الإسلامي بالقول بالتطور في العقيدة
- ٧٥ المبحث الثاني: تقويم هذه المذاهب
- ٧٥ المسألة الأولى: مناقشة أصحاب المذهب الطبيعي ونقده
- ٧٨ المسألة الثانية: نقد المذهب الحيوى
- ٨٠ المسألة الثالثة: نقد نظرية دور كايم في الطوطم
- ٨٤ نقد القول بأن البراعث على الدين هو الحب
- ٨٤ نقد القول بأن التجارب النفسية هي البراعث على الدين
- ٨٥ المسألة الرابعة: نقد القول بالتطور في خلق الإنسان
- ٨٨ المسألة الخامسة: نقض القول بالتطور في العقيدة
- ٩٢ المسألة السادسة: مناقشة العقاد في قوله بالتطور في العقيدة.
- الفصل الثالث:
- ٩٩ مصدر الدين وبراعث الدين عند جمهور المسلمين
- ١٠١ المبحث الأول: القرآن الكريم وحديثه عن مصدر الدين

١٠٥	المبحث الثاني: البواعث على التدين عند جمهور المسلمين
١٠٦	المسألة الأولى: الفطرة والميثاق
١١٠	المسألة الثانية: استمرار التوحيد من آدم إلى نوح عليه السلام
١١٧	المسألة الثالثة: إرسال الرسل
	الفصل الرابع:
١٢١	العلم التجاربي والدين
١٢٣	المبحث الأول: المذهب الوضعي وشباهه في إنكار الدين
١٢٥	المسألة الأولى: قانون الحالات الثلاث: "لأوجست كونت"
١٢٨	المسألة الثانية: الأسباب التي أدت إلى سيادة المذهب الوضعي في أوروبا
١٣٢	المبحث الثاني: تقويم المذهب الوضعي
١٣٢	المسألة الأولى: عدم اتباع "كونت" المنهج العلمي فيما ذهب إليه
١٣٤	ديانة الإنسانية وهدمها للمذهب الوضعي
١٣٦	المسألة الثالثة: العلم التجاربي قائم على الغيبيات
١٤٠	المسألة الثالثة: إخفاق العلم التجاربي في مشكلات الإنسان
	المسألة الرابعة: انتشار السحر والتنجيم في الحضارة الغربية على الرغم
١٤٤	من العلم التجاربي
	الخاتمة وتشتمل على :
١٤٩	تعليق أول: الإسلام والعلم
١٥٧	تعليق ثان: الدين الحق الذي ينقد البشرية هو الإسلام
١٦٩	المصادر والمراجع
١٨٠	الفهرس

الْحَقِيقَةُ الْأَيْمَنِيَّةُ

نَشَأَتْهَا وَطَوَّرَهَا

يتحدث عن موضوع حيوي بالنسبة للانسان - اذ يبحث موضوع الدين والدين - ما هو مصدر الدين وبواعث الدين في نظر علماء الغرب الذين عرض المؤلف نظرياتهم - ونقد بعضهم البعض ووقف المؤلف بوجة خاص مع القائلين بالتطور في العقيدة سواء من الغربيين او من تأثر بهم من الباحثين المسلمين ، وبين المؤلف الخطأ المنهجي الذي وقع فيه هؤلاء . وانتهى الكتاب الى تقرير حقيقة مصدر الدين وبواعث الدين من خلال القرآن الكريم والسنّة النبوية وأنهما المصدران الوحيدان اللذان يؤخذ منها الحديث عن نشأة الدين وبواعث الدين .

وناقش المؤلف أرباب الفكر الوضعي الذين يجعلون العلم بديلا عن الدين - وبين أنه لابد من الدين الحق مع العلم لكي تتفق البشرية . كما ترددت إليه ، وأن الدين الحق هو الاسلام بما تحتوي عليه من تعاليم متسقة مع الفطرة من ناحية والعلم من جهة أخرى .

كل هذه المباحث خاص فيها المؤلف - بفهم الباحث المدقق الذي مكث قرابة ربع قرن يبحث في العقائد والاديان والاتجاهات الفكرية مع خبرة علمية في الحوار والمناظرة من خلال مشاركاته العلمية في اكثرب من دولة عربية واوروبية وامريكية - الأمر الذي جعل الكتاب واحده فكرية يجد فيها القارئ فيها ضالتة - في موضوع حيوي مثل نشأة الدين والدين بين التوحيد والتطور .